

القسم الثاني

obeykandi.com

الفصل الأول

تمرّد البارونات

١٢٢٦ — ١٢٤٢

باسم الرب القدير، كنا قد دوننا كتابة بعضاً من الأقوال التقوية، والتعاليم الطيبة، لملكنا القديس لويس، ليقف عليها من يستطيع قراءة هذا الكتاب، وليجد هذه الأشياء معروضة وفق ترتيب لائق، ولعله سيستخرج منهم المزيد من المنافع لو أنهم أدرجوا ودونوا بين أعماله، وهكذا نبداً انطلاقةً من هذه النقطة، ونمضي باسم الرب وباسم الملك لويس، لتتحدث عن الأشياء التي صنعها.

ولقد سمعت الملك لويس يتحدث مراراً ويذكر أنه قد ولد في يوم عيد القديس مرقص الإنجيلي، بعد وقت قصير من عيد الفصح، وكانت قد جرت العادة أن يحمل الناس في عدد كبير من الأماكن الصلبان في مواكب، ويعرف هؤلاء في فرنسا باسم «الصلبان السوداء»، ويمكن النظر إلى هذا من بعض الجوانب بمثابة نبوءة حول الأعداد الكبيرة التي سوف تموت في الحملتين الصليبتين، أي الصليبية ضد مصر، والصليبية التي مات فيها الملك نفسه في قرطاج (تونس)، فقد ترتب على هاتين الحملتين حزن عظيم في هذه الدنيا، وسرور عظيم في الفردوس، لأن الصليبيين الصادقين قد ماتوا في مجريات هذين الحجين.

وكان تتويج الملك لويس قد جرى في أول أحد البشارة (٢٩ — تشرين ثاني ١٢٢٦)، وكان القديس يفتتح في يوم الأحد ذلك، بكلمات: «بك أيها الرب أسمو بروحي، وبك أيها الرب أضع ثقتي»، وفي الحقيقة، وضع الملك دوماً ثقة عظيمة بالرب، وكان ذلك منذ طفولته حتى وقت وفاته، لأنه في آخر الكلمات التي نفوه بها وهو ممدد

يموت كانت الدعوة إلى الرب وإلى قديسيه، وبشكل خاص إلى القديس جيمس، وراعيتنا القديسة جنيفيف.

ولقد رعاه الرب الذي وضع ثقته فيه طوال حياته منذ الطفولة حتى النهاية، وبشكل خاص في أيام شبابه الأولى، عندما كان بحاجة كبيرة إلى الوقاية، وذلك حسبما ستسمع بعد قليل، فقد حفظ الرب شبابه من الأذى من خلال التوجيهات الجيدة التي تلقاها من أمه، التي علمته كلاً من حب الرب والإيمان به، وربت ابنها ونشأته وسط جماعة من الناس ذوي العقول الدينية، ولقد جعلته يقوم بالتلاوة طوال جميع الساعات، وأن يقوم بالأصغاء إلى القداسات في أيام الأعياد العالية، وكان دوماً يتذكر كيف كانت تجربته في بعض الأحيان أنها تفضل موته على أن يقترب ذنباً عظيماً.

وكان الملك لويس بحاجة إلى عون الرب في شبابه، لأن أمه، التي جاءت من إسبانيا، لم يكن لها لا أقرباء ولا أصدقاء في جميع مملكة فرنسا، ولأن الملك كان مجرد طفل، والملكة أمه أجنبية، اتخذ البارونات من عمه كونت بولونيا Boulogne رئيساً لهم، وتصرفوا نحوه وكأنه كان مولاهم، وبعد تتويج الملك، تقدم البارونات بطلبات إلى الملكة طلبوا فيها منحهم ممتلكات كبيرة، ولأنها رفضت (متذرة بأنه لم يعد من شأنها التنازل عن أجزاء من مملكة فرنسا ضد إرادة ابنها الذي توج) اجتمع هؤلاء مع بقية البارونات في كتلة واحدة في كوربيل Corbeil .

وأخبرني الملك القديس مرة أنه لم يتجرأ لاهو ولا أمه على العودة إلى باريس، حيث كانا آنذاك في مونتهليري، حتى جاء أهل تلك المدينة وهم بكامل السلاح لجلبهما، وقال أيضاً بأن الطريق كله من مونتهليري إلى باريس كان مكتظاً بحشود الناس من مسلحين وغير مسلحين، يدعون إلى الرب أن يمنح ملكهم الشاب حياة طويلة وسعيدة، وقد تولوا الدفاع عنه وحراسته من أعدائه، ولقد استجاب الرب لأدعيتهم،

حسبما ستسمع فيما بعد.

ويحكى أنه في الاجتماع الذي عقده البارونات في كوربيل، قرر الذين كانوا حضوراً، أن يقوم الفارس الجيد، كونت بريتاني، بالثوزة ضد الملك، وبالإضافة إلى هذا قرروا أن بقيتهم — باستثناء ليس أكثر من فارسين فقط — سوف يرافقون الكونت عندما سيلبي طائماً دعوة الملك التي سوف ترسل إليه، ورتبوا هذا لأنهم أرادوا أن يروا فيما إذا كان الكونت سيتمكن من نيل الأفضل من تلك المرأة الغريبة، أي الملكة، وقال كثير من الناس بأن الكونت سينجح بالتغلب على الملكة، وعلى ابنها أيضاً، لولا أن الرب قد أعان الملك في ساعة عوزة، مثلما لم يخذله قط.

وتمثل العون الذي أعطاه الرب إياه، بوصول الكونت ثيوت صاحب شامبين، الذي صار فيما بعد ملك نافار، مع جماعة مؤلفة من ثلاثمائة فارس، ليضع نفسه تحت خدمة صاحب الجلالة، وبسبب تأييد الكونت هذا للملك، أرغم كونت بريتاني على أن يضع نفسه تحت رحمة الملك، وأن يقيم سلاماً معه بتسليمه — كما قيل — كوثيتي آنجو ولى بيرش Perche .

وبما أنه هام بالنسبة لكم الحصول على فهم كامل لبعض الأشياء التي سوف أتناولها فيما بعد، أعتقد أنه مفيد هنا أن نقوم باستطراد لطيف، وبناء عليه سوف أخبركم هنا بأن كونت شامبين الجيد، المعروف باسم هنري الكريم، كان له من زوجته الكونتيسة مريم — التي كانت أخت ملك فرنسا، الملك فيليب (أغسطس) وأخت رتشارد ملك إنكلترا لأمه (إليانور) — ولدين، كان اسم الأسن منها هنري، واسم الآخر ثيوت، وقد ذهب الابن الأسن إلى الأرض المقدسة حاجاً وصيلياً، وكان ذلك عندما حاصر الملك فيليب والملك رتشارد عكا، واستوليا عليها.

وكان ما أن جرى الاستيلاء على عكا، حتى عاد الملك فيليب إلى فرنسا، وهو عمل سبب له اللوم العظيم، وبقي الملك رتشارد في الأرض المقدسة، يقوم بأفاعيل اتسمت بالشجاعة وجعلت المسلمين يرتعبون منه، وبلغ الأمر إلى بالفعل، كما هو مدون في الكتاب حول الأرض المقدسة، عندما كان طفل مسلم يبدأ بالبكاء، كانت أمه، حتى يلتزم بالهدوء تقول له: «أوقف هذا، الملك رتشارد موجود هنا»، وعندما كانت أياً من خيول المسلمين أو البدو تجفل في شعراء، كان أصحابهم يخاطبونهم بقولهم: «هل تظنون إن هذا هو الملك رتشارد»؟

ورتب هذا الملك بعد مباحثات طويلة زواجاً بين الكونت هنري الشاب كونت شامبين، الذي بقي معه، وبين ملكة القدس، التي ورثت هذه المملكة من والدها، ورزق الكونت هنري من هذه الملكة بابنتين، الأسن بينهما هي التي أصبحت ملكة قبرص، في حين تزوجت الأصغر من الكونت إيرارد دي بريين، الذي جاء منه خط نبيل، حسبما يعرف كل واحد في فرنسا أو شامبين، ولن أقول الآن شيئاً عن زوجة الكونت إيرارد، بل سوف أتحدث إليكم عن ملكة قبرص، لأن لها علاقة بالقضية التي أنا بصددتها.

وعلى الآن استئناف روايتي: بعدما تمكن الملك لويس من غلبة كونت بريثاني، صار النبلاء الفرنسيون الآخرون غضابى جداً مع الكونت ثيبوت، حتى أنهم قرروا الطلب من ملكة قبرص — التي، كما تعلمون كانت الابنة الكبرى للابن الأسن لهنري الكريم — أن تقوم بتجريد الكونت ثيبوت، الذي كان أبوه هو الابن الأصغر للكونت هنري.

وقام — على كل حال — بعض البارونات بخطوات للمصالحة بين الكونت بيير والكونت ثيبوت، وقد نجحوا في جهودهم إلى حد أن الكونت ثيبوت وعد باتخاذ ابنة كونت بريثاني زوجة له، وجرى تحديد اليوم الذي كان سيتزوج فيه كونت شامبين من المرأة الشابة، وتقرر

حملها للاحتفال إلى واحد من أديرة الأخوان المبشرين قرب قلعة ثييري، وكانت تدعى، كما أعتقد، فال - سكرت Val - Secret ، وتولى البارونات الفرنسيون الذين كانوا كلهم تقريباً يمتون بالقرابة لكونت بيير، مرافقة ابنته، وبعدها وصلت إلى فال - سكرت، أرسلت رسالة إلى الكونت ثيبوت، الذي كان آنذاك في قلعة ثييري.

وفيها الكونت في طريقه إلى فال - سكرت من أجل الزواج، جاء غيوفري دي شايل Chapelle إلى مقابلته حاملاً رسالة سرية من الملك، وقال له: «مولاي، لقد سمع الملك أنك عقدت اتفاقية مع كونت بريتاني للزواج من ابنته، ولهذا يجدرك أنك إذا كنت لا ترغب في فقدان كل شيء تمتلكه في مملكة فرنسا، فعليك عدم القيام بهذا العمل، لأنك تعلم بأن الكونت قد ألحق من الأذى بحق الملك أكثر من أي إنسان آخر على قيد الحياة»، وبناء عليه، قام كونت شامبين، بناء على نصيحة الذين كانوا معه، بالعودة إلى قلعة ثييري.

وعندما سمع الكونت بيير وبارونات فرنسا، الذين كانوا يتوقعون وصول كونت ثيبوت إلى فال - سكرت، والذي صنعه، اشتعل غضبهم جميعاً بسبب الإهانة التي ألحقها بهم وبعثوا على الفور لإحضار ملكة قبرص (*)، وما أن وصلت حتى توافقوا على أن يقوموا بتجنيد أكبر عدد ممكن من الرجال المسلحين، وأن يدخلوا إلى بري وشامبين من الجانب الفرنسي، بينما يدخل دوق دي بيرغندي، الذي كانت زوجته ابنة الكونت روبرت دي درو، إلى شامبين من بيرغندي، وحددوا يوماً تجتمع فيه قواتهم أمام تروي Troyes ، مع نية الاستيلاء على المدينة إذا تمكنوا من ذلك.

* - كذا، وقد وقعت هذه الوقائع سنة ١٢٣٠ في حين وصلت ملكة قبرص إلى فرنسا سنة

ودعا دوق دي بيرغندي جميع الرجال الذين كانوا تحت تصرفه، وحشد البارونات رجالهم، وزحف البارونات نحو الأمام يحرقون كل شيء ويدمرونه على جانبهم، وعمل البيرغنديون دماراً ماثلاً على جانبهم الآخر، وزحف في الوقت نفسه ملك فرنسا من الجانب الآخر لقتالهم، واتخذ كونت شامبين الاحترازات الوقائية، فأحرق جميع بلداته قبل أن يتمكن البارونات من الوصول إليها، وذلك بهدف ألا يجدهم الأعداء مشحونين بالموءن، وكان من بين المدن التي أحرقها الكونت ثيبوت ودمرها ابرني Epernay ، وفيرتوس Vertus ، وسيزان Se-zanne .

وعندما أدرك سكان تروي أنه ليس بإمكانهم التعويل على مساندة مولاهم، بعثوا يطلبون من سمعان صاحب جوانفيل، والد صاحبها الحالي، القدوم لمساعدتهم، وما أن وصلت هذه الرسالة حتى حشد مقاتليه، وغادر جوانفيل في الليلة نفسها، ووصل إلى تروي في الصباح التالي، ولهذا مروا من أمام تروي دون أن يحاولوا القيام بأي شيء، ومضوا لنصب خيمهم في سهل يعرف باسم حقل آيل Isle ، حيث كان دوق بيرغندي معسكراً .

وسمع ملك فرنسا بأنهم كانوا هناك، فزحف مباشرة نحو ذلك المكان لمحاربتهم، وبناء عليه بعث البارونات إليه ورجوه بأن ينسحب شخصياً من القتال، وهم سوف يمضون ويواجهون كونت شامبين، ودوق اللورين، وبقية رجال الملك، مع أقل بثلاثمائة فارس مما لدى الدوق والكونت في جيشيهما، وبعث الملك إليهم رسالة جوابية قال فيها بأنه لن يدعهم يحاربون ضد رجاله ما لم يكن هو شخصياً هناك معهم، وبعث البارونات بدورهم يخبرون الملك أنهم من جانبهم على استعداد لإقناع ملكة قبرص لإقامة سلام، ورد الملك بأنه لن يوافق على أي نوع من السلام، كما أنه لن يسمح لكونت شامبين بفعل ذلك، حتى يسحب

البارونات عساكرهم من ممتلكات الكونت.

ووافق البارونات على هذا المطلب، لكن بالانسحاب من الأيل فقط وأن يذهبوا للعسكرة في بقعة تقع إلى الجنوب من جولي July ، ثم عسكر الملك في المكان الذي طردهم منه، وما أن سمعوا بأنه كان هناك حتى قوض هؤلاء البارونات معسكرهم وذهبوا إلى شورس Chaource ، غير أنهم لم يتجرأوا على الانتظار هناك حتى وصول الملك، بل أزالوا معسكرهم وذهبوا إلى لين Laignes للعسكرة هناك، وكانت عائدة لكونت نافار، الذي كان من حزبهم، وهكذا أرغم الملك كونت شامبين وملكة قبرص على التصالح معه، وعقد الاتفاق الذي تم على أساس التفاهم بأن يعطي الكونت الملكة ممتلكات تعطيها كل سنة حوالي الألفي دينار، مع منحة قدرها أربعين ألف دينار.

ودفع الملك المبلغ الأخير هذا لصالح كونت شامبين، وبالمقابل باع الكونت الملك أربعاً من إقطاعياته هي : إقطاعية بليوس Blois ، وإقطاعية تشارترز، وإقطاعية سانسير Sancerre ، وإقطاعية شاتودون Chateaudun ، وقال بعض الناس بأن الملك استحوذ على هذه الإقطاعيات بمثابة رهن فقط، لكن ذلك لم يكن مطلقاً، ذلك أنني سألت صاحب الجلالة حول هذه القضية عندما كنا في بلاد ما وراء البحر، أما فيما يتعلق بالممتلكات التي أعطها كونت شامبين إلى ملكة قبرص، فإن شطراً منها الآن بحوذة كونت دي بريين الحالي، وشطراً بحوذة كونت دي جواني Joigny ، لأن جدة كونت دي بريين كانت ابنة ملكة قبرص، وهي كانت قد تزوجت من الكونت غوتير دي بريين الكبير.

ولكي تعرف كيف تملك كونت دي شامبين هذه الإقطاعيات التي باعها إلى الملك، أخبرك بأن جده الكونت ثيبوت الكبير، المدفون الآن في لاني Lagny ، كان لديه ثلاثة أولاد، الأسن بينهم كان اسمه

هنري، واسم الثاني ثيبوت، واسم الأصغر إتيين Etienne ، وكان هنري الذي صار كونت دي شامبين ودي بري يعرف بالعادة باسم هنري الكريم، وكان اسمه لاثقاً به، لأنه كان كريماً في تعامله مع كل من الرب، ومع الناس، أما بالنسبة لكرمه نحو الرب، فهذا واضح من خلال كنيسة القديس إتيين في تروي والكنائس الجميلة الأخرى التي بناها في شامبين، أما فيما يتعلق بكرمه تجاه التعامل مع الشؤون البشرية، فهذا واضح في قضية أرتود أوف نوغنت Artaud of Nogent ، وفي مناسبات أخرى، بودي إخباركم بها، لولا خشيتي من إثقال كتابي.

وكان هذا الرجل أرتود من سكان نوغنت، وواحداً ممن وثق به الكونت هنري أكثر من أي رجل آخر في العالم، وقد صار ثرياً جداً، إلى حد أنه بنى قلعة نوغنت لى أرتود Artaud على حسابه، ولقد حدث أن نزل الكونت هنري على سلم بيته الكبير وهو قادم للذهاب لسماح القديس في كنيسة القديس إتيين، ووقتها جاء فارس فقير إلى أسفل الدرج وركع أمامه وقال: «أرجوك يا مولاي أن تعطيني بعضاً من مالك حتى أتمكن من تزويج ابنتي هاتين، الواقفتان هنا أمامك»، وقال أرتود الذي كان واقفاً خلف الكونت للسائل: «ليس من اللائق بالنسبة لك أيها الفارس الطيب أن تسأل مولاي اللورد المال، لأنه قد أعطى وأنفق كثيراً حتى لم يبق لديه ما يعطيه»، والتفت الكونت صاحب القلب الكبير نحو أرتود وقال له: «أيها الفلاح الجيد إنك لم تذكر الحقيقة عندما قلت بأنه لم يبق لدي شيئاً لأنفقه، في الحقيقة، أنت لدي، خذها أيها الفارس، ذلك أنني أعطيك إياه، وفضلاً عن هذا أنا سأكون ضمانة له»، ولم يتقاعس الفارس، بل أمسك برداء أرتود، وقال بأنه لن يخلي سبيله حتى يعقد معه صفقة، وقبل أن يتخلص أرتود عقد صفقة مع الفارس وأرضاه بمبلغ خمسمائة دينار.

وكان الأخ الثاني للكونت هنري هو ثيبوت كونت بليوس، أما الأخ

الثالث، أي إيتين فكان كونت دي سانسير، ونال الأخوان من الكونت هنري كل شيء ورثاه، بما في ذلك كونتيتاهما مع حقوقهما غير الاستقلالية، وامتيازاتهما، واستحوذا فيما بعد على هذه الإقطاعيات من أبناء الكونت هنري الذين تملكوا بلاد شامبين، حتى جاء الوقت الذي باع فيه الكونت ثيوت هذ الاقطاعيات إلى الملك.

ودعوني الآن أستأنف روايتي، وأخبركم كيف عقد الملك لويس بلاطاً كبيراً في سومور Saumur في أنجو، وكان ذلك بعد الحوادث التي رويتها، ولقد كنت هناك، ويمكنني أن أؤكد لكم أنه كان أفضل بلاط منظم قد شهدته قط، فقد جلس خلف منضدة عالية، بعد الملك كونت بواتيه، الذي نصبه الملك فارساً في يوم عيد القديس يوحنا، ثم تلاه كونت التخوم، وجلس بعده كونت بريتاني الطيب، وجلس خلف المنضدة المقابلة لمنضدة الملك، وفي مواجهة الملك كونت دي دور، ثم تلاه بالجلوس مولاي ملك نافار (الذي كان آنذاك كونت شامبين)، وكان يرتدي مئزراً وعباءة من الحرير، رتبت بشكل جميل بوساطة حزام جلدي، وكان يرتدي أيضاً قلادة مذهبة وقبعة من القماش المذهب، وقد جلست إلى جانبه أقطع اللحم له.

وجلس كونت دي أرتو Artois، أخو الملك، أمام صاحب جلالته، جاهزاً ليقوم بخدمته في توزيع لحمه، وقتذاك إلى جانب الكونت جين دي سواسون الطيب، ويده سكين التقطيع حيث كان يستخدمها، ووقف لحراسة منضدة الملك، إيمبرت دي بيجو، الذي صار فيما بعد النائب الأعلى لفرنسا، ومعه انغوراند دي كوسي En- guerrand de coucy، وأرشيبدو Archimbaud دي بوربون، ووقف من خلفهم حوالي الثلاثين فارساً وهم يرتدون مآزر من الحرير، وكان عليهم القيام بحراسة سادتهم، ووقف خلف هؤلاء الفرسان كوكبة من السيرجندية الذين يرتدون الثياب الفاخرة التي

طرزت عليها رنوك كونت بواتو، وكان الملك نفسه يرتدي مئزراً من الحرير الأزرق مع معطف خارجي أحمر براق، وعباءة من القماش نفسه، مبطنة بالقطيفة، ووضع على رأسه قبعة من القطن بدت غير موائمة لإنسان مازال شاباً.

وعقد الملك هذه الوليمة في قاعة سومور، التي — قيل — بأنها بنيت من قبل الملك هنري الكبير، ملك إنكلترا، وذلك من أجل إقامة ولائمه هناك، وبنيت هذه القاعة وفق نمط قاعات الديرة السسترشانية، ولاعتقد بوجود أية قاعة تدانيتها حتى في الحجم، وسوف أخبركم لماذا أعتقد هذا، لأنه كان يوجد إلى جانب جدار القاعة الديرية التي كان الملك يتناول فيها الطعام محاطاً بفرسانه وسيرجنديته الذين شغلوا مساحة كبيرة، أيضاً غرفة من أجل منضدة جلس إليها عشرون من الأساقفة ورؤساء الأساقفة، وبالإضافة إلى جميع هؤلاء الأساقفة، كانت هناك منضدة للملكة بلانشي الملكة الأم، وذلك على مقربة منهم، في الطرف الأقصى من القاعة الكبرى، في مواجهة المنضدة التي شغلها الملك.

وكان الذي يتولى خدمة الملكة بلانشي ورعايتها الكونت دي بولون، الذي صار فيما بعد ملكاً على البرتغال، وكذلك الكونت الطيب هوغو Hugues دي سينت بول، وفتى ألمانيا كان في الثامنة عشرة من عمره، يحكى بأنه كان ابن القديسة إليزابث أوف تورنجيا، وبناء على هذا — كما قيل — قبلت الملكة بلانشي الفتى على جبينه، وذلك كعمل تقوي خالص، لأنها اعتقدت أن أمه، لا بد قد قبلته مراراً هناك.

ووجدت المطابخ عند نهاية القاعة الكبرى، وذلك في الجانب الآخر، وكذلك مخازن النيذ، والقوارير والزبدة، ومنها كان الملك والملكة الأم يخدمان باللحوم. والخمرة، والخبز، وعلى يمين وعلى يسار القاعة الرئيسة، وفي وسط البلاط، كان هناك عدداً كبيراً من الفرسان يتناولون

الطعام، وكانوا من الكثرة بمكان أنني لم أستطع تعدادهم، ولقد أعلن كثير من الناس، أنهم لم يروا قط في أية مناسبة احتفالية أخرى مثل هذا العدد من الأردية والملابس الأخرى المصنعة من الحرير والذهب، ولقد قيل كان هناك في هذه المناسبة ما لا يقل عن ثلاثة آلاف فارس.

وبعدما انتهى المحتفلون ذهب الملك إلى بواتييه، وقد اصطحب كونت بواتييه معه، حتى يقدم أتباع الكونت إليه الولاء من أجل إقطاعاتهم، ولكن ما أن وصل جلالته إلى بواتييه حتى رغب من قرارة نفسه بالعودة إلى باريس، لأنه وجد كونت التخوم الذي تناول الطعام على مائدته في يوم عيد القديس يوحنا، قد حشد من الرجال المسلحين بقدر ما استطاع وتمركز قرب بلدة لوزغان، وبقي الملك في بواتييه لمدة أربعة عشر يوماً، ذلك أنه لم يتجرأ على مغادرة المدينة حتى توصل إلى مصالحة مع كونت التخوم، لكن أنا لا أستطيع أن أقول كيف.

ولاحظت في أثناء ذلك الوقت أن الكونت جاء عدة مرات من لوزغان ليتحدث مع الملك في بواتييه، وقد جلب في كل مرة زوجته معه، التي كانت من قبل ملكة إنكلترا (*)، وأم ملكها الحالي، وهناك عدد كبير من الناس قد أكدوا بأن الملك وكونت بواتييه قد عقدا صلحاً مع كونت التخوم وفق شروط غير مرضية تماماً.

وبعد عودة الملك من بواتييه بوقت قصير، جاء ملك إنكلترا إلى غسكوني لإنشابه الحرب ضد مولاه الملك، وتوجه ملكنا القديس ليقا تل ضده على رأس قوة كبيرة وذلك بقدر ما استطاع حشده، وزحف ملك إنكلترا وكونت التخوم للاشتباك بالقتال مع الملك، أمام قلعة تيليبورغ Taillebourg ، التي تقوم إلى جانب نهر صغير بأيس يدعى شارنتي Charente ، وذلك عند نقطة لا يمكن للإنسان فيها الجواز إلا عبر جسر حجري ضيق جداً.

* — هي إيزابل أرملة الملك جون وأم الملك هنري الثالث .

وما أن وصل الملك لويس إلى تيليورغ، ورأى الجيشان بعضهما بعضاً، حتى لم يوفر رجالنا الذين كانوا على الطرف الذي قامت عليه القلعة، جهداً للعبور إلى الطرف الآخر، وعبروا النهر بعد مخاطرة كبيرة، وجاء عبورهم بالقوارب وفوق ذلك الجسر، واستهدفوا إلقاء أنفسهم على الإنكليز، ثم نشب قتال حاد جداً، وعندما رأى الملك مجريات الأحداث وتقلباتها حمل وألقى بنفسه وسط المخاطر مع الآخرين، غير أن الإنكليز امتلكوا مقابل كل رجل عبر النهر عشرين رجلاً على الأقل، ومهما يكن من أمر، فقد قضى الرب أنه في اللحظة التي رأى فيها الإنكليز الملك يعبر، فقدوا شجاعتهم وهربوا للالتجاء في سانتس Siantes ، ولحقهم بعض رجالنا، غير أنهم حوصروا في وسطهم، ومن ثم أخذوا أسرى.

وروى رجالنا الذين وقعوا أسرى في سانتس، فيما بعد أنهم سمعوا كلاماً كان خصاماً حقيقياً بين ملك إنكلترا، وكونت التخوم، وقد اتهم ملك إنكلترا الكونت بأنه بعث إليه يعبه بأنه سيجد تأييداً كبيراً في فرنسا، وفي جميع الأحوال، قام ملك إنكلترا في الليلة، التي تراجع فيها من تيليورغ بمغادرة سانتس والعودة إلى غسكوني .

وعندما رأى كونت التخوم، أن لا أمل أمامه بالمساعدة، استسلم إلى الملك لويس وأخذ زوجته وأولاده معه إلى السجن، والآن وقد بات الكونت في قبضته، أقام الملك صلحاً معه، كان قادراً بموجبه على الحصول على جزء كبير من بلاده، لكن كم كان حجم هذا الجزء، هذا ما لا أستطيع قوله، لأنه لم يتوفر لي دور في هذه القضية، فوقتها لم أكن قد صرت فارساً بعد، وعلى كل حال لقد أخبرت أنه بالإضافة إلى الأرض التي حصل عليها الملك ونالها من كونت التخوم، توجب على هذا الكونت دفع عشرة آلاف دينار كانت له في الخزينة الملكية، ومبلغاً مماثلاً كل سنة مقبلة .

وعندما كنت مع الملك في بواتيه، قابلت واحداً من الفرسان يدعى غيوفري دي رانكون Rancon ، كان — كما أخبرت — قد تضرر كثيراً من كونت التخوم، ولهذا السبب نذر على الأناجيل المقدسة، أن لا يقوم بقص شعره، حسبما كانت العادة مع الفرسان، بل تركه يطول مثل النساء منتظراً الوقت الذي سينتقم فيه من الكونت، إما بيديه أو على يدي سواه، وما أن رأى هذا الفارس كونت التخوم، وزوجته وأولاده يركعون أمام الملك، صارخين طلباً للرحمة، حتى جلس على مقعد صغير، وأمر بقص شعره هناك، وكان ذلك بحضور الملك، وكونت التخوم، مع كل إنسان كان هناك .

وقام الملك لويس في أثناء حملته الأخيرة ضد ملك إنكلترا والبارونات، بمنح إعطيات مالية كريمة، وذلك حسبما أخبرني الذين عادوا من هذه الحملة، والملك لم يطلب قط ولم يقبل أية مساعدة مالية من بارونات، وفرسانه، ورجاله أو من أي من مدنه الجميلة بطريقة قد تنجم عنها شكوى، وذلك فيما يتعلق بالإعطيات التي منحها، أو النفقات التي تحملها أثناء تلك الحملة، أو أثناء أي حملة أخرى في الوطن أو فيما وراء البحار، وينبغي عدم التعجب من هذا، لأنه عمل هكذا بناء على نصيحة أمه الطيبة التي كانت إلى جانبه، وهو قد اتبع دوماً نصائحها، وكذلك بناء على نصيحة بعض الرجال العقلاء والجديرين بالاحترام، الذين ظلوا خداماً مخلصين للعرش منذ أيام أبيه، وأيام جده .

الفصل الثاني

استعدادات لحملة صليبية

(١٢٤٤ — ١٢٤٨)

بعد مضي عام أو عامين على الأحداث التي دونت للتو أخبارها، وإرادة من الرب، وقع الملك لويس، الذي كان آنذاك في باريس، مريضاً جداً، واقترب أخيراً من لفظ أنفاسه، حتى أن واحدة من السيدتين اللتان كانتا تتوليان العناية به أرادت أن تمد الغطاء فوق وجهه، مقدره أنه قد مات، لكن السيدة الأخرى التي وقفت على الطرف الآخر من فراشه، لم تسمح لها، وقالت بأنها متأكدة بأن روحه ما تزال في جسده .

وفي الوقت الذي تمدد فيه الملك يصغي إلى النقاش بين السيدتين، عمل ربنا معه، وأعادته بسرعة إلى وضع صحي استرد به القدرة على الكلام، مع أنه كان حتى ذلك الحين غير قادر على التلفظ بكلمة، وما أن أصبح قادراً على الكلام حتى طلب صليباً ليعطى إليه، ونفذ هذا المطلب على الفور، وعندما سمعت أمه أن القدرة على الكلام قد عادت إليه حتى امتلأت بالحبور على قدر الإمكان، ولكن عندما علمت بأنه قد طلب صليباً وأنه قد أخذه — وهو ما سمعته من شفثيه — حتى شرعت بالنواح، وكأنها تراه قد تمدد ميتاً.

وبعدما تناول الملك الصليب، حذا حذوه أخوته الثلاثة : روبرت كونت دي أرتو، وألفونسو، كونت بواتيه، وشارل، كونت أنجو، الذي صار فيما بعد ملك صقلية، وإلى هؤلاء ينبغي أن نضيف هوغو دوق دي بيرغندي، ووليم كونت فلاندرز، وهو أخو الكونت غي دي فلاندرز الذي توفي مؤخراً، والكونت هوغو الطيب، كونت دي سانت

بولص، وابن أخيه غوتير، وغوتير هذا تصرف بشجاعة في بلاد ماوراء البحر، وكان سيرهن على جدارة أعظم لوأنه عاش مدة أطول.

وينبغي أن أذكر بين الأسماء الذين حملوا الصليب كونت التخوم، وابنه هوغولي برن Brun ، وكذلك ابني عمي كونت دي ساربروك Sarbruck مع أخيه غوبرت دي أبريمونت Apremont ، وبفضل قرابتنا، قمت أنا حين لورد جوانفيل بالرحلة برفقتهم إلى بلاد ما وراء البحر، وذلك في سفينة استأجرناها معاً، وشكلنا آنذاك فئة مكونة من عشرين فارساً، تسعة منهم كانوا عائدين إلى كونت دي ساربروك ومن رجاله، وكان التسعة المتبقين تابعين لي.

وقمت في يوم عيد الفصح في سنة ١٢٤٨ لتجسيد ربنا بجمع رجالي، وجميع الذين استحوذوا على إقطاعيات مني، وحشدتهم في جوانفيل، وفي مساء يوم عيد الفصح عندما وصل جميع الناس الذين استدعيتهم، ولد ابني جين صاحب أنسرفيل Ancerville من زوجتي الأولى التي كانت أختاً لكونت دي غراندبري Grandpre ، ولقد احتفلنا ورقصنا طوال ذلك الأسبوع، فأقام أخي صاحب فوكولور Vaucouleurs، وكذلك أغنياء الناس وذوي المكانة منهم، ممن كان موجوداً وليمة وكذلك فعل الآخرون واحداً تلو الآخر، وكان ذلك في يوم الإثنين الفصح وفي الأيام الثلاثة التي تلت.

وقلت لهم في يوم الجمعة: «إنني ذاهب بالحال إلى ماوراء البحر، ولست أدري فيما إذا كنت سأعود، لذلك على الفور من له دعوى ضدي أن يتقدم بها، فإذا كنت قد أسأت إلى أحد فلاسوف أعوض ذلك لكل واحد بدوره، وذلك حسبما اعتدت أن أفعل في حالة الذين تتوفر لديهم طلبات مني، أو من أتباعي»، وتعاملت مع كل ادعاء بطريقة عدّها الناس الذين في بلادي بأنها صحيحة، ولكي لا يكون لي تأثير على قرارهم انسحبت ولم أحضر المناقشات، ثم وافقت بدون اعتراض على

كل ما أوصوا به.

وبما أنني لم أرغب في أن أحمل معي أي درهم ليس لي حق فيه، ذهبت إلى منز في اللورين، ورهنت الجزء الأعظم من أراضي، ويمكن أن أؤكد لكم، أنني في اليوم الذي تركت فيه بلادي للذهاب إلى الأرض المقدسة، لم يكن بحوذتي — بما أن سيدتي الأم كانت حية — من دخل تجاوز الألف دينار من ممتلكاتي، ومهما يكن الحال، لقد مضيت، وأخذت معي تسعة فرسان، وفارسين من حملة الأعلام إلى جانبي شخصياً، وقد عرضت هذه الأمور أمامكم ولفت انتباهكم إليها، لتعرفوا أن الرب الذي لم يتخل قط عني، لو لم يأت لمساعدتي، لما أمكنتني البقاء متماسكاً طوال الوقت الطويل، وهو الست سنوات التي مكثتها في الأرض المقدسة.

وعندما كنت قد بت جاهزاً للمغادرة، بعث إلي جين لورد أبريمونت، وكونت دي ساربروك، بوساطة زوجته، يخبرني أنه قد أعدّ كل شيء من أجل رحلته إلى ما وراء البحر، وأنه سيصطحب معه تسعة فرسان بالإضافة إلى نفسه، واقترح فيما إذا كنت أوافق وأرغب في أن نستأجر سفينة لنا في مرسليليا.

ووقتها بالذات جمع الملك جميع باروناته في باريس، وجعلهم يقسمون له أنه إذا ما حدث له حادث، بينما هو في بلاد ما وراء البحر مسافراً، أن يبقوا مخلصين وأوفياء لأبنائه، وسألني أن أفعل الشيء نفسه، فرفضت أن أقسم له، لأنني لم أكن من أتباعه الإقطاعيين.

وعندما كنت في طريقي إلى باريس، مررت بعربة فيها ثلاثة رجال أموات، وكانوا قد قتلوا من قبل رجل دين، وكانوا هناك ممددين، ولقد أخبرت أنهم كانوا مأخوذين إلى الملك، ولدى سماعي بهذا بعثت بواحد من أتباعي ليجد لي خبر ما حدث، ولدى عودته أخبرني هذا التابع، أن

الملك عندما خرج من البيعة توقف على الدرج لينظر إلى هؤلاء الرجال الأموات، وسأل عمدة باريس كيف حدث هذا الحادث.

وأخبره العمدة بأن الرجال الثلاثة كانوا ثلاثة من سيرجنديته من شاتليه Chatelet كانوا يتجولون في شوارع غير مطروقة، ويسلبون الناس، وقال للملك أيضاً: «إنهم رأوا رجل الدين هذا، الذي تراه هنا، وجردوه من ثيابه، وذهب رجل الدين عائداً إلى مقر إقامته، وليس على جسده سوى قميص، فانتزع قوسه العقار، وجعل واحداً من الأطفال يحمل سيفه، وما أن وقع نظره على اللصوص، حتى صرخ عليهم، وقال بأنه سوف يقتلهم، وأوتر قوسه، وأطلقه نحوهم، فأصاب واحداً منهم في قلبه، وهرب الآخرون، لكن رجل الدين تناول سيفه من الطفل الذي كان يحمله، وجرى خلفها تحت ضوء القمر، الذي كان مشرقاً وواضحاً».

وأضاف العمدة يقول: «وحاول واحد منهما أن يجتاز حاجز إحدى الحدائق ويدخل إليها، لكن رجل الدين ضربه بسيفه فقطع ساقه، وبقي هذا الساق داخل الحذاء، حسبما يمكنك أن تراه هنا، ثم مضى خلف الرجل الآخر، الذي حاول الدخول إلى بيت غريب، كان سكانه ما يزالون مستيقظين، لكن رجل الدين سدّد إليه ضربة بسيفه جاءت على أم رأسه فشطرته حتى أسنانه، وذلك كما يمكن لجلالتكم أن ترون أيضاً»، ثم تابع العمدة حديثه قائلاً بأن رجل الدين «قد أخبر الجيران بما فعله بالشارع، ثم جاء وسلم نفسه إلى سجن جلالتك، وقد أحضرته الآن أمامكم لتفعلوا معه الذي تريدونه، فهذا هو موجود».

فقال الملك: «أيها الشاب، أفقدت شجاعتك فرصة أن تكون كاهناً، لكن بسبب شجاعتك سوف أدخلك في خدمتي، وسوف تذهب معي إلى بلاد ماوراء البحر، وأنا فاعل هذا ليس من أجلك، لكن بسبب أنني أود أن يعلم أتباعي أنني سوف لن أحميهم في اقترافهم لأي عمل

شريف»، وعندما سمع الناس الذين كانوا هناك مجتمعين هذا، دعوا
لمخلصنا، وصلوا له ليتوسط لدى الرب، حتى يمنح الملك حياة طويلة
وسعيدة، وأن يعيده إليهم بسرور وصحة.

وعدت بعد هذا الحادث بوقت قصير إلى ديارى في شامبين، واتفقت
مع كونت ساربروك، على وجوب إرسال أمتعتنا في عربات إلى أوكسون
Auxonne لتحمل من هناك في قارب إلى آرل عبر طريق السوان
والرون.

الفصل الثالث

رحلة إلى قبرص

(١٢٤٨)

بعثت في اليوم الذي غادرت فيه جوانفيل أستدعي راعي دير شمنون Cheminon، الذي قيل بأنه أحكم رهبان أخوانية السسترشيان وأفضلهم، وعندما كنت في كليرفون في يوم عيد سيدتنا بصحبة ملكنا القديس، سمعت هذا الموقف يعبر عنه كثيراً من قبل عضو من تلك الطائفة، رشحه لي وأوصاني به، وسألني فيما إذا كنت أعرفه، ولهذا قلت له: «لماذا سألتني ذلك؟» وقد أجابني على سؤالتي: «لأنني شخصياً أعتقد أنه أكثر الرجال مقدرة في طائفتنا كلها وأعظمهم قداسة»، ثم استطرد يقول: «دعني أخبرك بالذي سمعته من راهب تقي قد نام في القلاية نفسها التي نام بها راعي دير شمنون، ففي إحدى الليالي — حسبما ذكر ذلك الرجل — بينما كانا نائمين في الفراش في القلاية، كشف راعي الدير عن صدره لأنه كان يشعر بحرّ عظيم، وقد رأى بنفسه أم ربنا تمضي نحو فراش راعي الدير وتسحب القميص فوق صدره، حتى لا تؤذيه رياح الليل».

وأعطاني راعي دير شمنون هذا نفسه عصا الحج والتفليعة، ثم غادرت جوانفيل على الفور، ولم أعد إلى قلعتي ولم أدخلها حتى عودتي من بلاد ما وراء البحر، وحين غادرت جوانفيل غادرتها عاري القدمين وأرتدي قميصي فقط، ومضيت باللباس نفسه إلى بليكورت -Ble court ، وإلى سينت أوربين Urbain ، وإلى أماكن أخرى، يوجد فيها آثار مقدسة، وطوال الطريق إلى بليكورت، وسينت أوربين، لم أدع عيني تلتفتان نحو جوانفيل، خشية أن يمتلي قلبي بالشوق لدى تفكيري

بقلعتي المحبوبة، وبولديّ اللذين تركتهما خلفي.

وفي طريقنا إلى مرسيليا، توقفت أنا وصحبي لتناول الطعام عند «نبع رئيس الأساقفة» وهو قريب على هذا الطرف من دونجو Donjeux ، وهنا أهدانا راعي دير سينت أوريين عسداً من الجواهر الثمينة لي وللفرسان التسعة الذين كانوا معي، وذهبنا من هناك إلى أوكسون، ثم انطلقنا مرة ثانية مع أمتعتنا التي كانت محملة من أجلنا على قوارب، وهكذا رحلنا معها هبوطاً في السوان إلى ليون، في حين اقتيدت خيول حربنا العظيمة على طول شاطئ النهر على محاذة القوارب.

وفي ليون ركبنا متن نهر الرون للذهاب إلى آرل — لي — بلانك Arles - Le - Blanc ، وفيها كنا هابطين ذهاباً على النهر مررنا بخرائب قلعة اسمها روشي — دي — غلن Roche - De - Glun ، كان الملك قد خربها، لأن روجر صاحب القلعة قد وجد مجرماً لسلبه التجار والحجاج.

وصعدنا إلى ظهر سفينتنا في ميناء مرسيليا في شهر آب (١٢٤٨) وفي يوم ركوبنا جرى فتح باب السفينة المصاقب لجانب الميناء، من أجل وضع جميع الخيول التي نريد أن نأخذها معنا إلى بلاد ما وراء البحر، وربطها، وما أن أصبحت الخيول في الداخل حتى جرى إغلاق الباب، وسد جوانبه بالقار بكل عناية، مثلما يصنع بالدن قبل إلقائه في الماء، لأنه ما أن تصبح السفينة في أعالي البحار، حتى يغدو الباب تحت الماء تماماً.

وعندما انتهت هذه العملية ، دعا قبطاننا بحارته الذين كانوا واقفين قرب مقدمتها وصرخ: «هل أنتم جاهزون» ؟ فصرخوا مجيبين «نعم، نعم، أيها السيد، يمكن لك استدعاء الكهنة والتسسس للتقدم نحو الأمام»، وما أن كمل اجتماع هؤلاء حتى صرخ قبطاننا لهم قائلاً: «باسم الرب، اشرعوا بالغناء»، وبناء عليه غنت المجموعة كلها بصوت واحد

«Venicreater spiritus» ولدى الانتهاء هتف القبطان ببحارته
قائلاً: «انشروا الأشرعة باسم الرب» وجرى تنفيذ هذا على الفور .

وسرعان ما هبت الرياح، وأبعدتنا عن مشهد اليابسة، ثم لم نعد نرى شيئاً سوى البحر والسماء من حولنا، وتابعت الريح دفعنا وإبعادنا أكثر فأكثر عن الأرض التي ولدنا فيها، وإنني إذ أقص عليكم هذه التفاصيل لتقدروا حمق الإنسان الذي يتجرأ على وضع نفسه في مثل هذا الوضع الخطر، وهو مغتصب لأمالك الآخرين، أو مقترف شخصياً لذنب عظيم، لأن ما من مسافر يمكنه أن يعرف عندما يمضي للنوم في الليل، هل سيكون في الصباح التالي متمدداً في قاع البحر أم لا ؟

وشاهدنا نحن أنفسنا أعجوبة غريبة جداً، عندما كنا في البحر، ففي إحدى الأمسيات وفي حوالي وقت العشاء كنا نبحر على طول السواحل المغربية، فمررنا بجبل له شكل مستدير كالتطشت تماماً، وأبحرنا طوال الليل، وبتقديري أننا قطعنا ما يزيد على الخمسين ميلاً، لكن عند الصباح وجدنا أنفسنا في الخلف نساير الجبل نفسه (*)، ولقد حدث هذا الأمر تماماً لنا مرتين أخرتين أو ثلاث مرات، واندهش بحارتنا تجاه هذه الظاهرة الغريبة، وجاءوا ليخبرونا أنهم يخشون أن سفينتنا في خطر عظيم جداً، ذلك أننا قد حبسنا على مقربة قريبة جداً من سواحل المغرب، التي هي بأيدي المسلمين.

وبيّن عند هذه النقطة واحد من الكهنة الجيدين، الذي كان عميد موروبت Maurupt أنه شخصياً عندما كان يعاني من مشكلة صعبة، سواء في قلة الماء، أو في سقوط مطر كثيف أو في أية حالة من الحالات المعاكسة، كان عليه فقط أن يقوم بثلاث مسيرات خلال ثلاثة سبوت متوالية، حول المنطقة، ووقتها سوف يبادر الرب وأمه إلى منحه تفريج سريع، ولقد قال هذا عندما حدثت الواقعة، وكان ذلك في يوم سبت، ولقد قمنا بمسيرتنا حول صاريتين من صواري سفينتنا، وكنت أشعر بالمرض الشديد آنذاك، ولهذا حملت على أذرعة بعض رجالي، ولم نر ذلك

*— لعل مرد هذا كان إلى تيار معاكس في البحر المتوسط، وليس عملاً عجائبيّاً كما تصور جوانفيل .

الجلب ثانية، ووصلنا في السبت الثالث إلى قبرص .

وفي الوقت الذي وصلنا فيه قبرص كان الملك هناك، ووجدنا كميات وافرة من العتاد موضوعة هناك لاستخدام جلالته: من ذلك على سبيل المثال كميات كبيرة من المال في خزائنه، ومخزون كبير من الخمرة ومن القمح، وصنع له رجاله نوعاً من أنواع الأقيية في وسط حقل قريب من الشاطيء، لوضع أعداد كبيرة من البراميل الضخمة من الخمرة، وكانوا قد شرعوا بشرائها منذ عامين قبل وصول الملك، وقد صفوها فوق بعضها بعضاً حتى باتت إذا ما نظرت إليها عن بعد خيل إليك أنها بيوت كبيرة.

وجرى تكديس القمح والشعير على مساحات كبيرة حول الحقول حتى باتت أشبه بالتلال العالية، وطال سقوط الأمطار على هذه الأكوام، مما سبب إنباتها حتى ظهرت الأكوام وهي مغطاة بالأعشاب، ولذلك كان بإمكانك أن تتصور هذه الأكوام عندما تلقي نظرة أولى عليها أنها كانت روابي، وعندما حان الوقت لنقل الحبوب إلى مصر، ووجدنا الوضع عندما أزحنا الطبقة الأولى الخضراء، أن القمح والشعير تحتها كان في وضع جيد وكأنه قد حصد الآن.

وسمعت فيما بعد في سورية أن الملك نفسه كان يود الذهاب مباشرة إلى مصر، دون التوقف في قبرص، لولا أن باروناته قد نصحوه بالانتظار في قبرص وصول الناس الذين لم يكونوا قد وصلوا بعد.

وعندما كان الملك مقيماً في جزيرة قبرص، بعث ملك التتار العظيم برسلاً يحملون كثيراً من الرسائل اللطيفة، وذات المشاعر الصديقة، وقد أومأت هذه الرسائل ضمن أشياء كثيرة، بأنه كان على استعداد لتقديم العون إلى ملكنا في الاستيلاء على الأرض المقدسة واستخلاص القدس من أيدي المسلمين.

واستقبل الملك هؤلاء الرسل بحفاوة كبيرة وأكرم وفادتهم بمشاعر صديقة، وبعث لدى عودتهم برسل من عنده، وقد بقي هؤلاء في سفرهم لمدة عامين، وأرسل صاحب الجلالة مع هؤلاء الرسل إلى ملك التتار بخيمة أعدت لتكون كنيسة، وكانت ثمينة وغالية حقاً، لأنها صنعت من قماش قرمزي ممتاز، فضلاً عن هذا أمر الملك أن يصنع لهذه الكنيسة مجموعة من التماثيل الصغيرة المنحوتة من الحجر، تمثل البشارة التي جاءت إلى سيدتنا مع مواضيع تتعلق بالعتيدة المسيحية، وكان هدفه من هذا جعل ديانتنا تبدو أكثر جاذبية للتتار.

وكان الرجال الذين عهد إليهم بهذه الأشياء عبارة عن رجلين أعضاء في طائفة البندكتيين، وكانا يعرفان لغة التتار، وبالتالي كان يمكنهما تعليمهم مبادئ ديانتنا، وأن يوضحوا لهم ما الذي ينبغي عليهم اعتقاده.

وعاد هذان الراهبان من بلاد التتار في الوقت الذي غادر فيه أخوي الملك عائدين إلى فرنسا، وقد وجدا الملك قد ترك عكا، وأن أخويه قد فارقه، وتوجه هو إلى قيسارية حيث كان مشغولاً بتحسينها، لأنه لم يكن آنذاك لا صلح ولا هدنة بينه وبين المسلمين، ولسوف أخبركم فيما بعد كيف جرى استقبال رسولي جلالته في بلاد التتار، وذلك حسبها أبلغاه، ووقتها سوف تسمع بأشياء كثيرة غريبة ورائعة، غير أنني لن أتعامل مع هذه القضية الآن، لأنني إذا ما أردت ذلك سوف أقطع سياق الرواية التي بدأت أحكيها وأذكرها.

وأعود الآن إلى سياق روايتي: ومع أنني امتلكت أقل من ألف دينار، وكان هذا دخلي الذي يأتيني سنوياً من بلادتي، لقد كان علي — عندما ذهبت إلى بلاد ما وراء البحر — أن أتحمّل بالإضافة إلى نفقاتي الخاصة، الإنفاق على تسعة فرسان مع فارسين من حملة الأعلام، وحدث أيضاً، أنه في الوقت الذي وصلت فيه إلى قبرص، لم يكن في يدي، بعد

الدفء لسفيتتي أكثر من مائتين وأربعين ديناراً، ولهذا أخبرني بعض فرساني أنني إذا لم أجهز نفسي بالمال سوف يتخلون عني، لكن الرب لم يخذلني قط، وجاء إلى مساعدتي في هذه الحالة الحرجة، حيث أن الملك الذي كان آنذاك في نيقوسيا، بعث إلي، ليضعني في خدمته، وأعطاني ثمانمائة دينار لإضافتهم إلى ميزانيتي، وهكذا امتلكت في النهاية من المال أكثر مما احتجته بالفعل.

وعندما كنا مقيمين في قبرص، أرسلت امبراطورة القسطنطينية رسالة إليّ، أخبرتني فيها بأنها قد وصلت إلى بافوس، وهي بلدة في تلك الجزيرة، وسألتنني التوجه لزيارتها هناك، بصحبة إيرارد دي بريين، وعندما وصلنا إلى بافوس، وجدنا أن عاصفة شديدة من الريح قد قطعت حبال المرساة التي تحبس سفينتها وتمسكها، ودفعتها إلى عكا، وبذلك لم يبق معها من جميع ثيابها شيئاً باستثناء عباءة كانت ترتديها، ومعطف خارجي من أجل وجبات طعامها، وقد أحضرناها معنا إلى لياسول، حيث استقبلها الملك والملكة وجميع بارونات الجيش الفرنسي بحفاوة عظيمة.

وبعثت إليها في اليوم التالي ببعض الأقمشة لصنع ملابس لها، وذلك مع قطعة من فراء الفاقم الثمين لتزيينها، وإلى هذا أضفت قطعاً من القماش الصوفي «الفتاه» والحرير لتستخدم بطانة، وصدف أن قابل فيليب دي نانتييل Nanteuil — وكان فارساً جيداً من فرسان حاشية الملك — تابعي وهو ذاهب، وحامل لهذه الأشياء إلى الامبراطورة، ولما رأى هذا الرجل الجيد ما هو جاري، ذهب على الفور إلى الملك وأخبره بأنني أهنت كل من الملك والنبلاء الآخرين، ببعث ملابس إلى الامبراطورة، في حين أنهم أنفسهم الذين كان عليهم التفكير بهذا الموضوع لم يفعلوا ذلك.

وقد جاءت الامبراطورة لطلب العون إلى زوجها الذي بقي في

القسطنطينية، وقد عرضت المسائل بشكل جيد وبتوفيق حتى أنها كانت قادرة على أن تحمل معها لدى عودتها أكثر من مائتي رسالة، مني ومن أصدقائها الآخرين في قبرص، فيها تعهدنا بأغلظ الأيمان، أنه بعدما يعود الملك من بلاد ما وراء البحر، إذا ما رغب هو أو النائب البابوي في إرسال كوكبة مكونة من ثلاثمائة فارس إلى القسطنطينية، سوف نكون جاهزين للذهاب بصحبتهم .

ويمكنني القول، أنه عندما حان وقت عودتنا إلى فرنسا، قمت أنا شخصياً ببحث هذه المسألة مع الملك، أي مسألة الوفاء بتعهداتي التي أقسمت عليها، وفعلت ذلك بحضور كونت دي أيو Eu ، الذي أحمل كتابه معي، وسألت الملك فيما إذا كان يرغب بإرسال ثلاثمائة فارس إلى القسطنطينية، فإذا ما رغب بذلك، فأنا سأذهب برفقتهم، وذلك حسبما تعهدت شخصياً بفعل ذلك، وعلى كل حال، أجبني الملك بأن إمكاناته المالية لا تسمح له، لأن جميع الاحتياطات المالية الكبيرة التي امتلكها فيما مضى في خزائنه، قد أنهكت الآن تماماً وتبددت.

وبعدما ذهبنا إلى مصر، مضت الامبراطورة إلى فرنسا بصحبة أخيها، مولاي جون(دي بريين) صاحب عكا، الذي هيأت له فيها بعد زواجاً من الكونتيسة دي مونتفورت.

وفي الوقت الذي وصلنا فيه إلى قبرص كان سلطان قونية هو الأغني في جميع العالم الإسلامي، وقد تصرف على سبيل المثال تصرفاً مدهشاً تماماً، فقد أمر بتذويب جزء كبير من ذهبه، وصبه في جرار فخارية كبيرة، من النوع الذي يستخدم في بلاد ما وراء البحر لحفظ النبيذ، وسعة كل منها ما بين الثلاثة إلى أربعة براميل كبار، ثم أمر بعد ذلك بكسر الجرار، وترك السبائك الذهبية الضخمة غير مغطاة في إحدى قلاعها، حيث يمكن لكل إنسان يدخل إليها رؤيتهم وإمساحهم، وكان هناك ما لا يقل عن ست أو سبع من هذه السبائك الضخمة.

ومن الممكن تكوين تصور عن الثروة الضخمة لهذا السلطان من خلال فسطاط يساوي ثمنه ما لا يقل عن خمسمائة دينار، كان ملك أرمينيا قد بعث به إلى ملك فرنسا، وأخبره بالوقت نفسه أنه هو شخصياً قد أعطي له من قبل واحد من أتباع سلطان قونية، وأريدكم الآن أن تعرفوا أن التابع هو خادم يتولى الاهتمام بسراقات السلطان، ويحفظ بيوته نظيفة.

ولكي يجرر ملك أرمينيا نفسه من الخضوع إلى سلطان قونية، ذهب إلى ملك التتار، وصار من أتباعه بهدف الحصول على مساعدته، ولدى عودته إلى أرمينيا جلب هذا الملك معه عدداً كبيراً من الرجال المسلحين، حيث صار في وضع هو فيه من القوة بمكان بحيث يستطيع شن الحرب على سلطان قونية، ولقد استمر الصراع بينهما لوقت طويل جداً، وفي النهاية قتل التتار عدداً كبيراً جداً من رجال السلطان، وهكذا فقد حاكمهم هذا مكانته، ولم يعد يسمع عنه أحد من الناس، وانتشرت في الوقت نفسه تقارير كثيرة مثيرة عن المعركة في قبرص، إلى حد أن بعض سيرجنديتنا، جذبتهم فرصة القتال وأمل الحصول على الغنائم، فعبروا إلى أرمينيا، لكن ما من واحد منهم قد عاد .

وكان سلطان مصر يتوقع وصول ملكنا إلى مصر في الربيع، لذلك ارتأى في الوقت نفسه أن ينتهز الفرصة ويذهب للإطاحة بعدوه اللدود سلطان حمص، ولهذا ذهب لمحاصرته في مدينته، ولم ير سلطان حمص من سبيل للتخلص من عدوه، ولقد أدرك أن هذا العدو إذا ما عاش طويلاً بما فيه الكفاية فليسوف يدمره بدون أدنى شك، ولهذا اتصل بواحد من خدم سلطان القاهرة، ورشاه حتى يتولى دس السم إلى مولاه.

وهاكم خبر الطريقة التي طبقها: كان الخادم يعرف أن السلطان معتاد على أن يجلس للعب بالشطرنج بعد تناول الغداء، وقد اعتاد على

الجلوس على السجاد الممدود عند طرف فراشه، لهذا عمد إلى رش السم على السجادة التي كان يعرف بأن مولاه اعتاد أن يجلس عليها كل يوم، والذي حدث هو أن السلطان كان يغير طبيعة جلوسه، وفي تلك الأثناء كان حافي القدمين، وكان في ساقه جرح، وفي هذه الأثناء دخل السم على الفور إلى الجرح المفتوح، وشل حركة الطرف الذي سرى فيه من الجسد، وهاجم السم قلبه مراراً، وهكذا بقي السلطان لمدة يومين غير قادر على الشرب، أو الأكل، أو الكلام، وهكذا ترك أصحابه سلطان حمص ينعم بالهدوء، وحملوا سيدهم عائدين إلى مصر.

الفصل الرابع النزول في مصر (١٢٤٩)

مع بدية شهر أيار، وبناء على قرار ملكي، صدرت الأوامر إلى جميع السفن العائدة إلى الملك، والبارونات ولبقية الصليبيين، بشحنها بكميات جديدة من الخمرة وبقية أنواع الميرة، وأن تكون جاهزة للابحار عندما تصدر توجيهات الملك، وما أن رأى جلالته أن كل شيء قد تمّ على مايرام، صعد هو وملكته إلى ظهر سفينتيهما يوم الجمعة قبل أحد الشعانين، وفي يوم السبت نشر الملك لويس أشرعته، وذلك بعدما أخبر باروناته بالالحاق به في سفنهم مباشرة إلى مصر، وانطلق هو وانطلق الجميع يسرون خلفه، ولقد كان بالفعل منظرًا جميلاً أن تنظر إليه، لأن البحر كله بدا بقدر امتداد البصر مغطى بقلوع السفن المبحرة، ولقد بلغ تعداد السفن المبحرة ما بين صغيرة وكبيرة ألفاً وثمانمائة .

وألقى الملك مرساة سفينته عند هضبة صغيرة تدعى باسم رأس لياسول، وتوقفت جميع السفن من حوله، وكان قد ذهب إلى الشاطئ في يوم أحد الشعانين، وبعدها سمع قداساً، هبت ريح عاصفة شديدة، جاءت عبر البحر من اتجاه مصر، وبدأت بالهبوب بشكل بلغ من العنف أن سبعمائة من الألفين وثمانمائة فارس الذين كان الملك يصحبهم معه في هذه الحملة بقيوا فقط، ولم تفصلهم الريح عن جماعته، ولم تحملهم إلى عكا وإلى مراسي أجنبية أخرى، ولم يستطع هؤلاء الالتحاق بالملك إلا بعد مضي وقت طويل.

وسكنت الريح في يوم الإثنين التالي لأحد الشعانين، وقام الملك والذين بقيوا — بإرادة الرب — معه بالابحار على الفور، والتحق بنا

على الطريق أمير المورة، ودوق بيرغندي، الذي كان مقيماً في بلاد الأمير، وفي يوم الخميس التالي وصل الملك إلى أمام دمياط، حيث وجدنا صفاً كاملاً من قوات السلطان متمركزاً على الساحل، وكان منظرًا يريح العين، لأن أسلحة السلطان كانت كلها مذهبة، وكانت إذا ما وقعت عليها أشعة الشمس يصدر عنها بريق يخطف الأبصار، وكانت الأصوات الصادرة عن طبول هذا الجيش وعن أبواق المسلمين مرعبة لسامعيها.

واستدعى الملك باروناته لسمع آراءهم حول ما يرون أن عليه القيام به، وقد نصحه عدد كبير منهم بالبقاء حتى يلتحق به بقية أتباعه، لأنه لم يكن بقي معه في تلك الساعة أكثر من ثلث قواته، لكنه لم يوافق على ذلك بأي حال من الأحوال، والسبب الذي قدمه لهم أن التأخير سوف يفيد في رفع معنويات الأعداء وتقويتها، والأكثر أهمية من ذلك أنه لم يكن في دمياط مرسى يمكنه أن ينتظر فيه رجاله، دون التعرض لمخاطر ريح أخرى تهب فتجرف المتبقي من سفنه، وتدفعها إلى بلدان أخرى، كما حدث لبقية السفن يوم أحد الشعانين.

وتقرر أن ينزل الملك إلى اليابسة يوم الجمعة قبل يوم أحد عيد التثليث، والاشتباك بالقتال مع المسلمين، ما لم يرفضوا القتال، وأمر جلالته جين دي بيمونت بأن يخصص غليوناً لايرارد دي بريين ولي شخصياً، حتى يتمكن مع فرساننا من النزول إلى اليابسة، لأن السفن الكبيرة لايمكنها الاقتراب بشكل كاف من الشاطئ، وحدث بإرادة من الرب، أنني وأنا عائد إلى سفينتي أن مررت بمركب أصغر، قد أعطي لي من قبل صاحبة بيروت، التي هي ابنة عم لي شخصياً ولكونت مونتبليارد، وقد حمل هذا المركب ثمانية من خيولي.

وعندما جاء يوم الجمعة توجهت أنا وكونت إيرارد، ونحن مسلحين تماماً إلى الملك، وطلبنا منه الغليون، وبناء عليه أخبرنا جين دي بيمونت

أننا لن نحصل على واحد، وعندما علم رجالنا بأنه لن يكون هناك غليون سيأتي لنقلنا، جعلوا أنفسهم يتساقطون من سفينتنا إلى قاربها الطويل، واحداً فوق الآخر، وذلك بقدر ما استطاعوا من سرعة، لهذا بدأ القارب بالغرق، وعندما رآه البحارة يغرق قليلاً قليلاً، هربوا عائدين إلى السفينة الكبيرة، وتركوا فرسان في القارب، وسألت وقتها ملاحي كم عدد الزيادة من الناس في القارب فوق قدرته على الحمل، فأخبرني بوجود اثنين وعشرين رجلاً مسلحاً، ثم سألته فيما إذا كان بإمكانه تدبر أخذ رجالنا إلى اليابسة، إذا ما أخذت عدداً منهم من بين يديه، وعندما أخبرني أنه يستطيع ذلك، احتفظت بعدد كافٍ من الرجال، وجعلتهم ينقلون على ثلاث دفعات إلى السفينة التي حملت خيولي.

وبينما أنا مشغول بالإشراف على نقل رجالي، قام فارس اسمه بلونكيه Plonquet، وكان من فرسان إيرارد دي بريين، بمحاولة إلقاء نفسه من السفينة الكبيرة إلى القارب الطويل، لكن القارب دفع بعيداً، لهذا سقط في البحر وغرق.

وعندما عدت إلى سفيتي وضعت زورقي الصغير في عهدة واحد من أتباعي، اسمه هوغو دي فوكولير Vaucouleurs، وقد قمت فيما بعد برسمه فارساً هناك، وقد أعطيته مرافقين له اثنين من الفرسان الشباب غير المتزوجين، وهما: فيلين دي فيرسي Vilain de Versey ووليم دي دامارتين Dammartin، وحدث أن كانا يكرهان بعضهما كراهية شديدة، حتى أنه ما من أحد استطاع حتى ذلك الحين مصالحتها، وكان سبب ذلك أن أحدهما أمسك بشعر الآخر عندما كانا في المورة، وعلى كل حال جعلتها يتخيلان عن خصومتها ويتعانقان، لأنني أقسمت لهما على الأناجيل المقدسة أننا لن ننزل إلى اليابسة ماداماً مصران على مخاصمة أحدهما للآخر.

ثم وجهنا سيرنا نحو اليابسة ووصلنا إلى محاذة القارب المربوط إلى سفينة الملك الكبيرة، حيث كان جلالته على ظهرها، وحيث كنا ماضين بسرعة أعظم من سرعة رجال الملك، وشرع الرجال الذين كانوا على ظهر السفينة يهتفون تحية لنا، وأخبروني بالرسو إلى جانب راية القديس دنس التي كانت محمولة فوق سفينة أخرى سارت أمام سفينة الملك، ولم أصغ إليهم، بل على العكس رسوت مع رجالي أمام كوكبة كبيرة من المسلمين، كان تعدادهم في ذلك المكان ستة آلاف رجل على ظهور خيولهم.

وما أن رأونا نزل حتى حملوا علينا حملة شديدة، وبالنسبة لنا عندما رأيناهم مقبلين نحونا غرسنا النهاية الحادة من ترستنا في الرمال، وثبتنا رماحنا في الأرض، بكل شدة، وجعلنا أسننتها مشرعة نحو العدو، لكن في اللحظة التي رأوا فيها أن رماحنا سوف تخرق بطونهم، نكصوا على أعقابهم وولوا هارين.

وبعث إليّ بلدوين دي رايمز، وكان فارساً جديراً له مكانته، قد وصل لتوه إلى الشاطئ، رسالة حملها إليّ تابعه، يطلب فيها مني أن أنتظره، ولقد أعلمته بأنني سوف أفعل ذلك بكل ترحيب، لأن إنساناً له سماته جدير بالانتظار في مثل هذه الساعة الحرجة، ويمكنني القول أنه بسبب جوايي هذا، كان ينظر إليّ دوماً نظرة تقدير، وقد جلب هذا الرجل الجيد معه ألف فارس للالتحاق بنا، ويمكن أن أؤكد لكم أنني عندما نزلت إلى اليابسة لم يكن معي لاتابع، ولا فارس، ولا خادم، ممن جلبته معي من مقاطعاتي، ومع هذا لم يتركني الرب غير مجهز بالرجال.

وكان كونت يافا على وشك الإرساء على يسارنا، وهذا الكونت هو ابن عم مولاي لورد أوف مونتيلارد، وأسرّة جوائفيل، وحين نزل إلى اليابسة نزل في أبي مشهد، ذلك أن غليونه كان مغطى فوق الماء وتحت بصور تحمل رنوكه، كما كانت محلاة بالذهب مع شكل صليب محفور،

وكان لديه في غليونه ما لا يقل عن ثلاثمائة مجذف، وكان إلى جانب كل مجذف ترس صغير عليه رنك الكونت، وقد ربط إلى كل ترس علم صغير عليه الرنك نفسه معمول من الذهب.

ولدى اقتراب هذا الغليون ، بدا وكأنه يطير طيراناً، فقد دفعه المجذفون بسرعة كبيرة نحو الأمام وبقوة بفضل قوة حركة مجاذيفهم، ومع سماع أصوات خفقان الرايات، وقرع الطبول، وزعقات الأبواق الإسلامية على ظهر هذه السفينة، كان يمكن أن يخيل إليك أن صواعق كانت تنزل من السماء، وما أن دفع هذا الغليون إلى طرف الرمال بقدر ما هو ممكن حتى قفز الكونت وفرسانه إلى الشاطئ، وكانوا مسلحين بشكل جيد، ومجهزين بشكل ممتاز، ومضوا لأخذ مواقعهم إلى جانبنا.

ونسيت أن أخبركم، أنه بعد النزول إلى اليابسة ، أمر كونت يافا بنصب خيمه وسرادقه على الفور، وما أن رآهم المسلمون يرفعون حتى اجتمعوا معاً في كتلة واحدة أمامنا، ثم قدموا ثانية، وقد همزوا خيولهم، وكانهم عزموا على سحقنا، لكن عندما رأوا أننا لا نريد الانهزام، نكصوا ثانية على أعقابهم وانسحبوا.

وعلى يميننا، وعلى مسافة رمية قوس عقار عنا، رست السفينة التي كانت تحمل راية القديس دنس، وحمل واحد من المسلمين، إما لأنه لم يستطع ضبط حصانه، أو لأنه ظن بأن بقية المسلمين سوف يحملون خلفه، وصار هذا المسلم في وسط الرجال الذين نزلوا إلى اليابسة لتوهم، غير أنه مزق إلى أشلاء.

وعندما سمع الملك بأن راية القديس دنس صارت على الشاطئ، اعتلى بسرعة على ظهر سفينته، وعلى الرغم من جميع ما قاله القاصد الرسولي الذي كان معه، رفض التخلي عن شعاره الملكي، وقفز إلى البحر، حيث وصل الماء إلى إبطيه، ومضى نحو الأمام، وترسه معلق

من رقبتة ورمحه بيده، وخوذته على رأسه وتابع سيره حتى التحق بجماعته على الشاطيء، وعندما وصل إلى اليابسة ولمح الأعداء، سأل من هؤلاء؟، فأخبر بأنهم من المسلمين، فوضع رمحه تحت إبطه، وحمل ترسه وجعله أمامه، وأراد أن يحمل مباشرة عليهم، لولا أن بعض الرجال الحكماء الذين كانوا من حوله لم يسمحوا له بذلك.

وأرسل المسلمون ثلاث مرات رسائل بوساطة الحمام الزاجل إلى السلطان، يخبرونه فيها بأن الملك نزل إلى اليابسة، غير أنهم لم يتلقوا أي رسالة جوابية منه، وكان سبب ذلك عجز السلطان نتيجة مرضه الذي استبد به، ولقد تصوروا لذلك أنه قد مات، وهكذا تخلى المسلمون عن دمياط، وبعث الملك بواحد من الفرسان ليتحقق فيما إذا كانوا بالفعل قد تركوا المدينة، وقد عاد ليخبر الملك بأنه قد دخل إلى قصر السلطان، وأكد بأن التقرير كان صحيحاً وأرسل جلالته على الفور القاصد الرسولي وجميع الأساقفة الذين كانوا في الجيش، وعندما تجمعوا معاً أنشدوا «Te deum Laudamus»، وامتطى الملك بعد هذا فرسه، وحذا البقية حذوه، وزحفنا جميعاً، وعسكرنا أمام مدينة دمياط .

وتصرف الترك بشكل غير حكيم بتخليهم عن دمياط، من دون قطعهم لجسر القوارب، لأنهم لو فعلوا ذلك لأعاقونا كثيراً، وهم على كل حال آذونا كثيراً بإلقاء النار بالسوق، حيث جمعت البضائع والسلع الأخرى التي كانت تباع بالوزن، وكانت نتائج هذا العمل كبيرة بالنسبة لنا، لا يعدها — لاسمح الرب — سوى أن يقوم إنسان ما غداً، بإلقاء النار على الجسر الصغير في باريس.

obeykandi.com

الفصل الخامس

احتلال دمياط

(١٢٤٩)

دعونا الآن نعلن أن الرب القدير كان كريماً جداً معنا ونحونا، عندما حفظنا من الموت ومن الخطر، الذي نزلنا فيه إلى اليابسة، ذلك أننا نزلنا مترجلين، وهاجمنا عدواً كان على ظهور الخيول، وأظهر الرب نحونا نعمة كبيرة بمنحنا دمياط ووضعها بين أيدينا، لأنه كان من الممكن الاستيلاء عليها فقط بتجويح الأعداء، ويمكن أن نعد هذا مؤكداً، لأنه بهذه الطريقة نفسها استولى عليها الملك جون (دي بريين صاحب القدس) قبل أكثر من جيل مضى بقليل.

وعلى كل حال يستطيع ربنا أن يقول عنا، مثلما قال عن بني إسرائيل: «نسوا الرب مخلصهم .. ورددوا الأرض الشهية» (المزامير : ٢١، ٢٤) ثم ماذا قال بعد ذلك ؟ لقد قال بأنهم نسوا الرب مخلصهم، وكذلك نحن نسيناه، كما سأخبركم بعد قليل.

غير أنني سوف أخبركم أولاً، كيف استدعى الملك لويس إليه باروناته، وطلب منهم مساعدته لاتخاذ قرار حول كيف يمكن توزيع الغنائم التي جرى أخذها من المدينة، وكان أول المتحدثين هو البطريرك حيث قال: «أعتقد يا صاحب الجلالة أنه سيكون مفيداً أن تبقى مشرفاً على القمح والشعير، والأرز، وكل ما هو محتاج للتقوت به، وبذلك يمكنكم الاستمرار في إمداد المدينة بالأطعمة، وأعتقد أيضاً أنه يتوجب عليكم الإعلان في جميع أرجاء الجيش أنه ينبغي جلب جميع البضائع إلى أماكن تمرکز النائب البابوي، وذلك تحت التهديد بالحرمان الكنسي»، ولاقى هذا الاقتراح موافقة عامة، وكان الذي حدث على كل حال، أن

مجملة قيمة البضائع التي جلبت إلى أماكن تركز النائب البابوي، لم يتجاوز الستة آلاف دينار.

وبعدما جرى جمع كل شيء، أرسل الملك والبارونات خلف جين دي فاليري Valery ، الذي كان معروفاً بأنه رجل حكيم ومحترم، وقال له الملك: «مولاي صاحب فاليري، لقد اتفقنا جميعاً على أن يسلمك القاصد الرسولي هذه الستة آلاف دينار، لتقوم بتوزيعها حسبما تراه هو الأفضل»، وقد أجابه هذا الرجل الجيد بقوله: «لقد منحني جلالتك شرفاً عظيماً، وأشكركم لذلك من قلبي، لكن — إنشاء الرب — لا يمكنني قبول هذا التبريد، كما لا يمكنني تنفيذ رغباتكم، لأنني لو قبلت، عليّ العمل بشكل معاكس للعادة الحسنة للأراضي المقدسة، التي قضت أنه إذا ما تم الاستيلاء على إحدى مدن العدو، يأخذ الملك ثلث جميع البضائع التي توجد فيها، ويأخذ بقية الصليبيين الثلثان، وقد جرى احترام هذه العادة ومراعاتها من قبل الملك جون، عندما استولى على دمياط، وكذلك فعل — كما يخبرنا المؤرخون — جميع ملوك القدس قبل هذا اليوم، وبناء عليه إذا كنت ترضى بإعطائي ثلثي القمح، والشعير، والأرز، وبقية أنواع الميرة، سوف أتولى بكل سرور توزيعهم بين الصليبيين»، وعلى كل حال، لم يوافق الملك على فعل هذا، وهكذا بقيت المسائل على ما هي عليه، لكن كثيراً من الناس كانوا غير راضين باختيار جلالته تجاهل مثل هذه العادة الجيدة القديمة.

وجعل رجال الملك التجار يدفعون، مع أنه كان متوجباً عليهم المحافظة على علاقات جيدة معهم، ومعاملتهم بشكل كريم، ويقال بأنهم حصلوا منهم أعلى الإيجارات التي أمكنهم فرضها عليهم مقابل الحوانيت التي باعوا فيها بضائعهم، وانتشر هذا التقرير إلى مناطق أخرى، ونتيجة لذلك، نُحلي كثير من التجار عن فكرة جلب الميرة إلى المعسكر.

أما البارونات، الذين كان من المتوقع عليهم الحفاظ على أموالهم، لإنفاقها لأفضل المنافع، في الوقت المناسب والمكان الموائم، فقد شرعوا في إقامة احتفالات وولائم عظيمة جرى خلالها استهلاك كميات كبيرة من الأطعمة، أما بالنسبة للسواد الأعظم والأساسي من القوات، فقد انصرفوا نحو معاشرة العاهرات، ولهذا قام الملك بعد عودتنا من الأسر، بصرف عدد كبير من أتباعه، وعندما سألته لماذا فعل ذلك، أخبرني أنه وجد بشكل مؤكد أن هؤلاء الذين عزلهم من جيشه، قد اجتمعوا من أجل فسوقهم في مكان لا يبعد رمية حجر عن سرادقه، وأن هذا كان منهم في الوقت الذي كان فيه الجيش كله يعاني فيه من أشد ضروب الشقاء، ومن أعظم ما عرفه قط من آلام.

ولسوف أعود الآن إلى موضوعي الأساسي، وأخبركم كيف قام فرسان السلطان بعد مضي وقت قصير على استيلائنا على دمياط بالاحتشاد أمام المعسكر، وهاجموه من ناحية البر، وقام الملك وفرسانه بتسليح أنفسهم، أما أنا فمن جانبي، قمت بعدما لبست دروعي بالذهاب للحديث مع الملك، وقد وجدته شاكي السلاح، وجالسا فوق مقعد، مع خيرة فرسانه من حوله، وهم أيضاً في سلاحهم وعدتهم الكاملة، وسألته عما إذا كان يرغب أن أذهب مع رجالي للتمركز خارج المعسكر، لأحول بذلك بين المسلمين وبين تدمير خيمنا، ولدى سماعه لسؤالي، قام جين دي بيمونت بمخاطبتي بأعلى صوته، وأمرني باسم الملك، أن لأغادر مكان تمركزي حتى تصدر إليّ أوامر الملك بفعل ذلك.

ولقد تحدثت للتو عن الفرسان المحترمين الذين كانوا مع الملك، ولقد كان عددهم ثمانية، وكانوا جميعاً رجالاً جيدين، نالوا جوائز لشجاعتهم وحسن تصرفهم في ميدان المعركة، في كل من بلادهم وفي بلاد ما وراء البحر، وأسماء هؤلاء الذين تولوا رعاية الملك بشكل

خاص كانت كمايلي: غيوفري دي سارجنس Sargines ، وماثيو دي مارلي Marly ، وفيليب دي نانطوان Nanteuil ، وإيمبرت دي بيجو، قسطلان فرنسا، ولم يكن صاحب الاسم الأخير بين هؤلاء حاضراً في تلك المناسبة، وكان في تلك الساعة خارج المعسكر، مع قائد رماة القسي العقارة التابعين للملك، وذلك مع غالبية سيرجندية الملك المسلحين للاحتراز خشية أن يهاجم الترك خيامنا أو يلحقوا أية أضرار بمعداتنا.

وقام في هذه الأثناء غوتير دي أوتريخ Autreche بتسليح نفسه في جميع أطراف سرادقه ، وبعدما امتطى حصانه، ووضع ترسه عند رقبته، وحوذته على رأسه، أمر برفع جميع سجدف سرادقه، وهمز حصانه ليحمل على الترك، وعندما كان ماضياً من سرادقه بدون مرافقه، رفع جميع رجاله أصواتهم وصرخوا «Chatillon» ، لكن الذي حدث أنه سقط قبل الوصول إلى الترك، وقفز حصانه فوق جسده، وظل ماضياً نحو الأمام، وهو حامل لأسلحة صاحبه، ودخل إلى وسط أعدائنا، وكان مرد هذا أن غالبية المسلمين كانوا يمتطون ظهور إناث الخيل، ونتيجة لذلك جذب الفحل إلى جانبهم.

وأخبرنا الذين رأوا الحادث، أن أربعة من المسلمين الترك جاءوا مندفعين نحو مولاي غوتير عندما كان ممدداً على الأرض، وسددوا نحو جسده ضربات شديدة بدبابيسهم، وهم ماضين في حملتهم، ومضى نحوه قسطلان فرنسا مع عدة من سيرجندية الملك، وأنقذوه، وحملوه عائدين على أذرعهم إلى سرادقه، وعندما وصل لم يكن باستطاعته الكلام، وتوجه لرؤيته عدد من الجرائحين والأطباء العائدين للجيش، ولأنه بدا لهم أنه ليس في وضع مميت، قاموا بفضده بذراعيه.

وفي وقت متأخر من الليل قال أوبرت دي نارسي Aubert de Nancy بأننا ينبغي أن نذهب ونلقي نظرة عليه، لأننا لم نكن قد رأيناه بعد، يضاف إلى هذا أنه كان رجلاً كان صاحب سمعة رفيعة، وعندما

دخلنا إلى سرادقه تقدم نحونا حاجبه لاستقبالنا، وسألنا أن نتحرك بهدوء، حتى لا نوقظ مولاه، وقد وجدناه ممدداً على غطاء من الفرو، وتوجهنا نحوه بهدوء كبير، ووجدناه ميتاً، وعندما أخبرنا الملك بذلك علق قائلاً: بأنه لا يرغب أن يكون لديه ألف رجل مثل غوتير، لأنهم سوف يعملون ضد أوامره، مثلما فعل هذا الفارس.

وقدم المسلمون كل ليلة إلى معسكرنا على الأقدام، وقتلوا رجالنا حيثما وجدوهم نائمين، وقتلوا بهذه الطريقة حارس مولاي صاحب كورتنى Courtenay وبعدما قطعوا رأسه وحملوه معهم، تركوا جسده ممدداً فوق منضدة، وقد تصرفوا هكذا لأن السلطان أعطى كل من جاء برأس رجل فرنجي ديناراً ذهبياً.

وتوجب علينا تحمل هذا العذاب، لأن كتابنا، عندما كانت كل منها تنفذ دورها في حراسة المعسكر كل ليلة، قام أفرادها بالدوران حول المعسكر على ظهور الخيول، وعندما كان المسلمون يودون دخول المعسكر، كانوا ينتظرون حتى تكون طوائف الجند الخيالة قد ابتعدت، ولهذا كانوا يتسللون إلى المعسكر خلف الجياد، وبناء عليه أصدر الملك أوامره، أنه بدلاً من القيام بالحراسة على ظهور الخيول، على طوائف الجند تنفيذ واجبهم في المستقبل على الأقدام، ونتيجة لهذا تمت حراسة المعسكر بأمان من قبل رجالنا، الذين انتشروا بشكل كان فيه الرجل لا يبعد عن جاره سوى ذراع واحد.

وبعد تنفيذ هذه الترتيبات، قرر الملك أن لا يغادر دمياط حتى يصل أخوه كونت بواتيه، مع احتياطات الجيش الفرنسي، ولكي يحول دون حملات المسلمين على المعسكر وهم على ظهور الخيول، أمر بحفر خندق عميق حول المعسكر، ومركز رماة القسي العقارة مع السيرجندية ليقوموا بالحراسة كل ليلة، ووضعت حراسة تماثلة عند مدخل المعسكر.

وعندما مرّ عيد القديس ريميغيوس Remigius ، ولم تصل أخبار عن كونت بواتيه — الأمر الذي أقلق الملك وجميع جيشه كثيراً، لأنهم خافوا أن يكون قد واجه مأساة ما — ذكّرت القاصد الرسولي، كيف جعلنا عميد موروبت، عندما كنا على وجه البحر، نقوم بمسيرات خلال ثلاثة سبوت متوالية، وكيف أنه قبل حلول السبت الثالث قد نزلنا في قبرص، وأولى القاصد الرسولي اهتمامه لما قلته، وأعلن في أرجاء المعسكر أنه سوف تكون هناك مسيرة في كل واحد من السبوت التالية.

وبدأت المسيرة الأولى من محلات القاصد الرسولي، وتوجهت إلى كنيسة سيدتنا في المدينة، وكان هذا المكان مسجداً إسلامياً من قبل، لكن القاصد الرسولي كرسه الآن كنيسة على شرف أم ربنا، وقام القاصد الرسولي خلال سبتين متواليتين بقيادة القداس، وكان ذلك بحضور الملك وأعيان الرجال في الجيش، الذين منحهم توبة كاملة.

وقدم كونت بواتيه قبل السبت الثالث، وفي الحقيقة لم يكن قدومه ذا فائدة أعظم كثيراً لو أنه حاول الوصول أبكر، لأن عاصفة هوجاء قد ثارت بين الأسابيع الثلاثة، وكان هيجاتها في البحر خارج دمياط مباشرة، حيث جرى تحطيم ما لا يقل عن مائة وعشرين سفينة ما بين صغيرة وكبيرة، وصارت مزقاً وفقدت كلياً، وغرق جميع الناس الذين كانوا على ظهورها، ولذلك لو وصل كونت بواتيه في وقت أبكر، هلك هو ورجاله في البحر.

وما أن وصل الكونت حتى قام الملك باستدعاء جميع بارونات الجيش، لاتخاذ قرار بشأن الاتجاه الذي سوف يقصدونه، أي الذهاب إلى القاهرة أم إلى الإسكندرية، وتوافق الكونت بيير الطيب، كونت بريتاني مع غالبية البارونات، على تقديم نصيحة له بالذهاب للقيام بحصار الإسكندرية، لأن تلك المدينة امتلكت ميناء جيداً، حيث يمكن للسفن الحاملة للميرة إلى الجيش الرسو وإنزال حمولاتها، لكن كونت دي أرتو

Artois كان مناهضاً لهذا الرأي، وأصر على أنه لن يوافق على الذهاب إلى مكان آخر غير القاهرة، لأنها كانت المدينة الرئيسة في مملكة مصر، وإذا ما أردت قتل الثعبان، عليك قبل كل شيء أن تهرس رأسه، ورفض الملك آراء البارونات لصالح رأي أخيه.

الفصل السادس عمليات فوق النيل

تشرين ثاني ١٢٤٩ — شباط ١٢٥٠

مع بداية استهلال قدوم (المسيح) انطلق الملك مع جيشه للذهاب إلى القاهرة، تماشياً مع نصيحة كونت أرتو، وأتينا إلى موقع كان ملاصقاً تماماً لدمياط، على مجرى ماء صغير، صدر عن النهر نفسه، وتقرر أن يتوقف الجيش هناك لمدة يوم ليقوم بسد هذا المجرى، حتى يمكننا الزحف عبره، وتم إنجاز هذا بسهولة مناسبة، فقد تولينا إغلاق هذا الفرع وسويناه حتى نقطة التفرع عن النهر، بطريقة جعلت الماء ينساب بدون صعوبة كبيرة عائداً إلى المجرى الأساسي، وأرسل السلطان في أثناء عبورنا خمسمائة من خيرة فرسانه الذين وجدهم في جيشه، لمضايقة رجال الملك، وتعويق زحفنا.

وفي يوم عيد القديس نيقولا أمرنا الملك أن نستعد للركوب والزحف نحو الأمام، ومنع في الوقت نفسه أي واحد أن يتجرأ ويهاجم العدو من حولنا، وحدث على كل حال أن الجيش عندما بدأ بالتقدم نحو الأمام، لاحظ المسلمون أن ما من هجنوم قد قام ضدهم — ذلك أن جواسيسهم أخبروهم أن الملك كف رجاله عن ذلك — وهنا أصبحوا أكثر جرأة، وانقضوا بأنفسهم على الداوية، الذين شكلوا المقدمة، وقام واحد من المسلمين فحمل واحداً من فرسان الداوية، وألقاه أرضاً أمام حوافر الفرس الذي كان يمتطيه الراهب رينودي فيشير Vichiers ، الذي كان آنذاك مقدم الداوية، وعندما رأى هذا المقدم هذا هتف بأخوانه الداوية قائلاً: «من أجل الرب، دعونا نقض عليهم، فأنا لا أستطيع أن أتحمل ما يجري أكثر»، ثم غمز فرسه، ولحق به الجيش كله،

وكانت خيول رجالنا آنذاك مرتاحة نشطة، بينما كانت خيول المسلمين مرهقة، وهكذا سمعت أن ما من واحد من الأعداء قد نجا، بل هلكوا جميعاً، فبعضهم سقطوا في النهر وغرقوا.

وقبل أن أستطرد أكثر، عليّ أن أخبركم عن النهر الذي يجري خلال مصر، وكذلك حول الفردوس الأرضي، وإنني إذ أفعل هذا لكي تفهموا بعض الأمور المتعلقة بروايتي.

وعلى هذا يختلف هذا النهر عما سواه من الأنهار، ففي الوقت الذي تُرشد الأنهار فيه وهي جارية نحو البحر بأنهر صغيرة وروافد من مختلف الأنواع، ليس هناك من روافد أو أنهر صغيرة من أي نوع تصب في هذا النهر، والحادث هو أن هذا النهر يجري بمجرى واحد في مصر ثم ينقسم إلى سبعة أفرع تنتشر في البلاد كلها.

وعندما يأتي وقت محدد من السنة في نطاق عيد القديس ريميغيوس (أي في الأسبوع الأول من تشرين الأول)، تفيض هذه الأنهار السبعة، وتنتشر فوق الأرض وتغمر السهول كلها بالكامل، وما أن يتراجع الفيضان حتى يخرج الفلاحون، ليقوم كل منهم بفلاحة حقله، بوساطة محراث بلا دواليب، به يقلبون الأرض من أجل بذارها بالقمح، وبالشعير، وبالكمون، وبالأرز، وكلها تعطي محاصيل عظيمة لا يمكن للإنسان أن يتأمل أحسن منها، وما من أحد يعرف كيف تتم هذه الفيضانات، اللهم إذا كانت بإرادة من الرب، لكنها إذا لم تحدث، ما من شيء جيد سوف ينبت في الأرض، لأن حرارة الشمس سوف تدبله، لأن الأمطار غير معروفة في هذه البلاد، ومياه هذا النهر دائماً موحلة، ولهذا عندما يود السكان الشرب منه، ينضحون بعض الماء منه عند المساء، ويضيفون إليه أربع حبات مسحوقة من الفول أو من اللوز، ويكون هذا الماء في الصباح التالي صالحاً للشرب دون أية شوائب فيه.

وقبل أن يدخل هذا النهر إلى مصر، يعتمد بعض الناس — جرياً على عاداتهم — على رمي شباكهم في المساء في الماء ويدعوها ممدودة طوال الليل، وعندما يأتي الصباح سوف يجدون في شباكهم أشياء تباع بالوزن، وتستورد إلى مصر، ومن هذه الأشياء : الزنجبيل، والراوند، وخشب الصبر، والدارصيني، وقد قيل بأن هذه الأشياء تأتي من الفردوس الأرضي، لأن الرياح تقتلع في هذا المكان الفردوسي الأشجار، مثلما تفعل بالأشجار الجافة في غابات بلادنا، أما بالنسبة للأخشاب الجافة من الأشجار في هذا الفردوس، التي تقع في النهر، فتباع لنا من قبل التجار في هذه البلاد، ولما هذا النهر طبيعة مذهشة، هي أننا عندما نضع بعضها في أواني فخارية مصنوعة في مصر، ونعلقها بحبال سرادقتنا، تغدو، حتى في أشد الأيام حرارة، باردة مثل المياه المنضوحة من بئر.

وقال شعب هذه البلاد: غالباً ما حاول سلطان القاهرة أن يكتشف منابع هذا النهر، ولتحقيق هذه الغاية أرسل أناساً حملوا معهم نوعاً من الخبز يعرف بالقساط، لأنه خبز مرتين، وقد عاشوا على هذا الخبز حتى عادوا إلى السلطان.

ولقد ذكروا أنهم بعدما قطعوا مسافة كبيرة صعوداً مع النهر، وصلوا إلى كتلة كبيرة من الصخور، كانت عالية جداً، وحادة لا يمكن لإنسان أن يجاوزها، ومن هذه الصخور ينبع النهر وتدفق مياهه، ويبدو أنه يوجد فوق قمة هذا الجبل وفرة هائلة من الأشجار الرائعة، وقالوا أيضاً أنهم رأوا عدداً من المخلوقات المتوحشة من مختلف الأنواع مثل الأسود، والأفاعي، والفيلة، وقد جاءت تنظر إليهم من ضفاف النهر، وهم يسرون بالاتجاه المعاكس لجريان النهر.

وسأعود الآن إلى حيث كنت من روايتي، وأكرر أنه عندما يدخل النهر إلى مصر يصنع فروعه البعيدة والعريضة، ويذهب واحد من هذه

الفروع إلى دمياط، وآخر إلى الإسكندرية، وثالث إلى تنيس، ورابع إلى رشيد، وعبر الفرع الأخير جاء ملك فرنسا مع جيشه، ونصب مخيمه بين النهر الذي يتدفق نحو دمياط والفرع الذي يمضي إلى رشيد، وعلى أقصى طرف الفرع الأخير عسكر جيش السلطان بكامل قواته في مقابل عساكرنا، حتى يمنعوا عبورنا، وهو أمر كان من السهل عليهم القيام به، لأن ما من إنسان كان يمكنه العبور للوصول إلى الأعداء، إلا سباحة.

وقرر الملك بناء جسر عبر النهر حتى يمكنه الوصول إلى المسلمين، ولكي يؤمن حماية الذين كانوا يعملون في الجسر، أمر ببناء برجين متحركين، وكان هذان من النوع الذي يعرف باسم «بيوت السنور»، لأنها يقفان أمام «السنانير» (أو يغطون الطرقات) بوساطة «بيتين» خلفهما، ويكونان بمثابة غطاء واقى للذين يقومون بالحراسة، وذلك من الحجارة التي تقذفها آلات المسلمين، التي كان عددها ست عشرة آلة قذف، كلها جاهزة للعمل.

وعند وصولنا إلى النهر، أمر الملك ببناء ثنائي عشرة آلة قذف، وعين جوسلين دي كورنوت Cornaut مسؤولاً بمشابة مهندس رئيسي، وتطائرت قذائف آلاتنا ضد الأعداء وآلاته، وقامت هذه الآلات بدورها بالرماية علينا، غير أنني لم أسمع أن آلاتنا قد سببت أذى كبيراً، وتولى أخو الملك الحراسة تحت طريق مغطى خلال النهار، وقمنا من جانبنا بالحراسة أثناء الليل، وهكذا استمر الحال حتى وصلنا إلى الأسبوع الذي جاء قبل الميلاد.

وما أن اكتمل بناء الطرق المغطاة، حتى شرع رجالنا ببناء الجسر، وليس قبل ذلك، لأن الملك لم يرغب أن تصيب رمايات المسلمين، التي كانوا يسددونها من عبر النهر، رجالنا الذين كانوا ينقلون التراب، وتجرحهم، وكانت الأمور كلها بلا فوائد، ففي بناء هذا الجسر عمل الملك وباروناته بدون ما يكفي من بصيرة فيما افترضوه، لأنهم سدوا

واحداً من فروع النهر — وهو عمل سهل القيام به، لأنهم شغلوا أنفسهم بردم هذا الفرع عند النقطة التي تفرع فيها المجرى الرئيسي — وكان بإمكانهم سدّ فرع رشيد في نقطة كان يبعد فيها نصف فرسخ عن عمود النهر.

ولكي يعيق المسلمون بناء جسر الملك حفروا طاقات في الأرض عند الطرف الذي عسكر فيه جيشهم، وكانت المياه ما أن تصل إلى الطاقات، حتى تندفع فيها مكونة مساحة كبيرة مملوءة بالمياه، وهكذا تمكنوا في يوم واحد من تخريب كل الذي صنعناه خلال عمل ثلاثة أسابيع، لأننا كنا كلما أسرعنا في سد المجرى من جانبنا، قاموا بتوسيع عرض مجراه بواسطة الفتحات التي عملوها من جانبهم.

واختار المسلمون مكان السلطان الذي مات نتيجة الإصابة التي نالها أثناء حصاره لحمص واحداً اسمه فخر الدين، الذي كان ابناً لشيخهم، وقد قيل بأن الامبراطور فردريك (الثاني) جعله فارساً، ولقد أمر كوكبة من رجاله بمهاجمة معسكرنا قرب دمياط، وقد انطلقوا على الفور وجاءوا إلى بلدة اسمها شار مساح، التي كانت قائمة على فرع رشيد من النهر.

وكنت في يوم عيد الميلاد أنا وفرساني نتناول الغداء مع بيير دي أفالون Avallon وعندما كنا جالسين إلى المائدة، انقض المسلمون باندفاع هائل على معسكرنا وقتلوا عدداً من الأشخاص المساكين الذين خرجوا يتزهون في الحقول، وخرجنا جميعاً لتسليح أنفسنا، ولكن على الرغم من إسرعنا، لم نستطع الالتحاق بالوقت المناسب بمضيفنا، ذلك أنه كان قد صار خارج المعسكر، وقد ذهب لقتال المسلمين، فأسرعنا نركض خلفه وتمكنا من إنقاذه من العدو، الذي رماه أرضاً، ثم أعدناه إلى المعسكر مع أخيه اللورد دي فال Val ، وتولى الداوية الذين جاءوا لدى سماعهم الاستغاثة، تغطية انسحابنا بشكل جيد وبفعالية،

وجاء المسلمون خلفنا، وتابعوا مضايقتنا حتى وصلنا إلى المعسكر، ونتيجة لهذا أعطى الملك الأوامر بإغلاق المعسكر من جهة دمياط، وذلك من فرع دمياط حتى فرع رشيد.

وكان فخر الدين، الذي أشرت إليه على أنه قائد المسلمين، أعظم الناس مكانة في العالم الإسلامي، وحمل على رايته التي تألفت من ثلاثة أقسام: على القسم الأول رنوك الامبراطور (فردريك الثاني) الذي جعله فارساً، وعلى القسم الثاني رنوك سلطان حلب، وعلى القسم الثالث رنوك سلطان القاهرة، وقد عرف باسم فخر الدين ابن شيخ (الشيخ) — الذي كان معناه: «الرجل العجوز»، فهو على هذا «الرجل العجوز ابن الرجل العجوز» — وكان هذا اللقب يدل على الاحترام بين المسلمين، لأن المسلمين هم الشعب الذين يجلون المتقدمين بالسن أكثر من أي شعب آخر في العالم بشرط أن يحفظهم الرب من أية وصمة عار خلال حياتهم.

وتبجح هذا المسلم الشجاع — حسبما ذكر جواسيس الملك له — بأنه سوف يتناول طعامه في سرادق جلالته في يوم عيد القديس سباستيان Sebastian (٢٠ — كانون ثاني)، ولدى سماع الملك بهذا رتب قواته حسب مقتضيات الحاجة، بحيث توجب على أخيه كونت أرتو القيام بحراسة الطرق المغطاة وآلات القذف، وقام الملك وكونت دي أنجو — الذي صار فيما بعد ملكاً لصقلية — بحراسة الجانب المتجه نحو القاهرة، وقام كونت دي بواتييه وقمنا نحن معه، أي رجال شامبين، بتولي حراسة الجانب المتجه نحو دمياط، فهذا ما طلب منه القيام به.

وفي الوقت نفسه أمر فخر الدين رجاله بالقيام بالعبور إلى الجزيرة القائمة بين فرعي دمياط ورشيد من النيل، حيث كان جيشنا معسكراً، وعباً قواته على شكل صفوف تمتد من الفرع الأول إلى الآخر، وهاجم

كونت دي أنجو هذه القوات وهزمها، وغرق الكثير في واحد من فرعي النهر أو في الآخر، ومع ذلك بقيت أعداد كبيرة، لم يتجرأ شعبنا على مهاجمتها، لأن آلات المسلمين استمرت في قذف الصخور على الأرض القائمة بين الفرعين .

وفي الوقت الذي كان كونت دي أنجو خلاله يقاتل (المسلمين)، قام الكونت غي دي فورز Forez بشق طريقه، وهو على ظهر حصانه، وسط صفوف المسلمين، واشتبك هو وفرسانه مع كتلة من المقاتلين المسلمين، فألقاه المسلمون أرضاً، وكسرت ساقه، وقام اثنان من فرسانه بحمله على أذرعتهم وأعادوه، ونجا كونت دي أنجو بصعوبة بالغة من الوضع الخطير الذي وضع نفسه فيه، لكنه ربح لنفسه سمعة عظيمة في ذلك اليوم، وفي تلك المناسبة نفسها قام المسلمون بحملة ضد كونت دي بواتيه، وقمنا نحن أنفسنا بحملة بهجوم معاكس، وطاردناهم لمسافة طويلة، وقد قتل بعض رجالهم، غير أننا عدنا بدون خسائر.

وفي إحدى الليالي عندما كنا نتولى حراسة البرجين اللذان حيا الطرق المغطاة، جلب المسلمون آلة تسمى «العراة Petrary»، ولم يكونوا قد صنعوها من قبل، ووضعوا ناراً إغريقية (نفوط) في كفتها، وعندما رأى هذا الفارس الطيب غوتير دي إيكوري الذي كان معي قال لنا: «نحن يا أصدقائي في أعظم المخاطر التي كنا فيها قط، لأنهم إذا ما ألقوا النار في أبراجنا، وبقينا هنا، سوف نحترق ونحن أحياء، ومن جهة أخرى إذا ما تخلينا عن المراكز التي أوكل إلينا حراستها سوف يلحق بنا العار، وبناء عليه ما من أحد يمكنه أن يدافع عنا في هذا الرعب غير الرب، والذي أنصح به هو لجميعنا هو أن ننبطح على مرافقنا وركبنا في كل مرة يقذفون فيها نيرانهم نحونا، وأن نصلي إلى مخلصنا أن يحفظنا في ساعة الرعب هذه».

وما أن رموا بأول قذيفة حتى رمينا بأنفسنا على مرافقنا وركبنا حسبنا

وجهننا الفارس الجيد، ومرت أول كتلة من اللهب ما بين برجينا، وسقطت على الأرض أمامنا، حيث كانت عساكرنا تقيم سداً، وكان الرجال الذين كلفوا بإطفاء النار جاهزين لإطفائها، وعندما رأى المسلمون أنه ليس بإمكانهم التسديد مباشرة نحوهم، بسبب السرادين ذوي الجناحين، اللذين أقامهما الملك، شرعوا برمي قذائفهم أفقياً نحو السحاب، وبذلك سقطت فوق رؤوس رجال الإطفاء .

وبدت النار الإغريقية وهي تمر مقذوفة من الأمام، باتجاهنا مثل برميل كبير من القار، وكان ذيل النار المشتعل خلفها مثل قناة رمح طويل، وكان الصوت الذي تثيره وهي قادمة مثل الرعد الساقط من السماء، وقد بدت مثل تنين يطير في الجو، وكان الضوء الذي نشرته هذه الكتلة النارية من حولنا مشعاً إلى حد أنه كان بإمكانك أن ترى في خلال المعسكر بوضوح وكأنك في النهار، وقذف العدو في تلك الليلة النار الإغريقية ثلاث مرات من عرادتهم، ورموها ثلاث مرات أيضاً من قسيهم العقارة المتحركة.

وكان ملكنا القديس كلما سمع المسلمون يقذفون النار الإغريقية نحونا يجلس في فراشه، ويرفع يديه بالدعاء، ويقول وهو يبكي: «أيها الرب الكريم احمي شعبي لي»، وحقاً إنني أعتقد أن أدعيته أفادتنا في وقت حاجتنا، وكان في كل مرة سقطت فيها النار، يرسل واحداً من حجاجه ليسألنا كيف تصرفنا، وفيما إذا سببت القذائف الملتهبة أي أذى لنا.

وعندما قذفوا في إحدى المرات النار الإغريقية علينا، سقطت هذه النار قرب البرج الذي تولى رجال بيير دي كورتنى حراسته، وأصابنا ضفة مجرى الماء، وبناء عليه جاء فارس إلّي يدعى لي أبيجويز AU-bigoiz وقال: «مولاي، إذا لم تأت لمساعدتنا سوف نحترق كلنا، لأن المسلمين أطلقوا نحونا عدداً كبيراً من نشابهم الحامل للنيران حتى بدا

الحال وكان هناك سياجاً عظيماً من اللهب يزحف نحو برجنا»، واندفعنا نحو المكان ووجدنا ما تكلم عنه صحيحاً، وقمنا بإطفاء النار، وعندما أكملنا عملية الإطفاء، رمى المسلمون كل واحد منا بسهام جاءت من عبر المجرى المائي.

وتابع أخوة الملك حراسة البرجين أثناء النهار، وصعدوا إلى قمتهما لحماية الشباب من قسيهم العقارة ضد معسكر المسلمين، وقرر الملك الآن أنه بعدما يتولى كونت دي أنجو الحراسة أثناء النهار، علينا أن نتولى ذلك في الليل، وفي أحد الأيام عندما كان كونت دي أنجو في مركز حراسته، وكنا على وشك المضي لتسلم الحراسة عند حلول الظلام، شعرنا جميعاً بغم عظيم، لأن المسلمين اقتربوا الآن من تحطيم برجينا، فقد جلبوا عراداتهم هذه المرة وأخرجوها في وضوح النهار، مع أنهم حتى الآن كانوا يخرجونهم في الليل فقط، وشرعوا في قذف برجينا بالنار الإغريقية.

وسحبوا آلاتهم لتلاصق الجسر الذي بناه رجالنا لسد مجرى الماء، وأخذوا يرمون عدداً كبيراً جداً من الصخور العظيمة على ظهره، إلى حد أن ما من أحد تجرأ على الاقتراب من البرجين، ونتيجة لذلك جرى إحراقها معاً، وأصيب كونت دي أنجو بانهايار عظيم، وفقد السيطرة على نفسه إلى حد أنه حاول أن يرمي بنفسه على النار حتى يتولى إطفائها، لكن لئن أصيب هو بالجنون لشدة غضبه، حمدت أنا وفرساني الرب على ما حدث، لأننا لو كنا نتولى الحراسة تلك الليلة، لاحترقنا جميعاً.

وعندما سمع الملك بهذه الكارثة، بعث واستدعى إليه جميع بارونات جيشه وتوسل إلى كل واحد منهم أن يعطيه بعض الخشب من سفنهم، لينشئ طريقاً جديداً مغطى، وبذلك تكون المساعدة على سد المجرى المائي، وشرح لهم بوضوح تام أنه ليس هناك خشب متوفر لهذه الأعمال

باستثناء ما يمكن الحصول عليه من السفن التي جلبت بضائعنا ومعداتها عبر النهر، وجلب كل رجل بقدر ما كان راغباً أن يعطي، وعندما اكتمل بناء البرج، كانت قيمة الأخشاب التي استخدمت قد وصلت إلى ما يزيد على عشرة آلاف دينار.

وقرر الملك أيضاً عدم وجوب دفع الطريق المغطى الجديد نحو الأمام فوق الجسر حتى يحين الوقت الذي يكون فيه دور كونت دي أنجو القيام بالحراسة، لعله يتمكن من نيل فرصة التعويض عن إحراق البرجين الآخرين عندما كان مسؤولاً عنهما، وحسبما كان مقرراً جرى التنفيذ، وما أن جاءت نوبة كونت دي أنجو بالحراسة حتى أمر الملك بدفع الطريق المغطى نحو الأمام فوق الجسر، وذلك إلى المكان الذي جرى إحراق البرجين فيه.

وعندما رأى المسلمون ما كان يجري، أعدوا جميع آلاتهم الست عشرة لتقذف بقذائفها فوق الجسر، إلى البقعة نفسها التي جلب إليها الطريق المغطى، ثم لدى إدراكهم أن رجالنا كانوا خائفين من الاقتراب من ذلك المكان، بسبب الحجارة التي كانت تتساقط على الجسر، عند ذلك جلبوا عرادة تولت رمي النار الإغريقية على المنشأة الجديدة، وأحرق كل شيء، وأظهر الرب نفسه أنه كريم جداً نحوي شخصياً ونحو فرساني في هذه المسألة، لأننا لو تولينا الحراسة في تلك الليلة، لكنا في خطر عظيم مثلما كان عليه الحال في تلك المناسبة التي تحدثت عنها من قبل.

ونتيجة لهذه الانتكاسة الجديدة، دعا الملك إليه جميع البارونات وطلب منهم مشورتهم، ولقد وافقوا بالإجماع على القول أنه لافائدة من محاولة بناء جسر يمكنهم عليه الزحف ضد المسلمين والاقتراب منهم، لأن رجالنا لا يمكنهم الردم من جهتهم من المجرى، بقدر ما يمكن للأعداء فتحه مجدداً من الجهة الأخرى.

وعند هذه النقطة أخبر القسطلان إمبرت دي بيجو الملك أن بدوياً قد جاء إليه وأخبره أنه يمكنه أن يرينا مخاضة جيدة، شريطة أن نعطيه خمسمائة دينار، وقال الملك بأنه موافق على دفع المال له، شرط أن ينفذ ما وعد به، وقال الرجل إنه لن يرينا المخاضة ما لم ندفع له المال سلفاً، وتمت الموافقة على وجوب دفع الدنانير له، وبالفعل دفعت إليه بدون تأخير.

وقرر الملك وجوب بقاء دوق بيرغندي وأصحاب المراتب العليا من رجال ما وراء البحر الذين كانوا في الجيش لحراسة المعسكر، حتى لا يلحق به ضرر، في حين سيقوم هو مع أخوته الثلاثة بعبور المخاضة في المكان الذي سوف يريهم البدوي إياه، ووضعت هذه الخطة قيد التنفيذ، وبات كل شيء معداً للعبور في يوم الثلاثاء المرافع (قبل أربعاء الرماد)، وهو اليوم الذي وصلنا فيه إلى مخاضة البدوي، واجتمعنا هناك مع أول علامات الفجر، من جميع الجهات، وما أن أصبحنا جاهزين حتى دخلنا إلى الماء مع خيولنا تسبح تحتنا، وعندما غدونا في وسط مجرى الماء، لامسنا الأرض، ووجدت خيولنا مكاناً آمناً تسير عليه، ورأينا على الضفة الأخرى ثلاثمائة من المسلمين مصطفين، كلهم فوق ظهور خيولهم.

ثم هتفت بفرساني وقلت: «انظروا أيها السادة إلى يساركم، واجعلوا طريقكم بهذا الاتجاه، فالضفة هنا مبللة وموحلة، والخيول تنزلق فوق ركابها وتغرقهم»، وفي الحقيقة كان بعض رجالنا قد غرقوا أثناء العبور، وكان من بينهم جين دي أورلين Orleans الذي كان يحمل علماً له خطوط متموجة، وهكذا انحرفنا نحو اتجاه حملنا نحو نهاية المجرى، حيث وجدنا مكاناً جافاً للوقوف عليه، وهكذا عبرنا — والحمد للرب — من دون أن يسقط واحد من مجموعتنا، وما أن رأنا المسلمون قد عبرنا النهر حتى شرعوا بالفرار.

وأعدت العدة، أن يشكل الداوية طليعة الجيش مع قيام كونت دي أرتو بالسير خلفهم قائداً للفرقة الثانية، لكن الذي حدث هو أنه ما أن عبر الكونت حتى انقض هو ورجاله على المسلمين الذين هربوا أمامهم، وجعله الداوية يعرف بأنه وجه إليهم إهانة كبيرة بتوليته القيادة، في الوقت الذي توجب فيه عليه السير خلفهم، ورجوه السماح لهم بالمضي في الطليعة، حسبما جرى الإعداد من قبل الملك، لكن الكونت — كما حدث — لم يقم بالاستجابة لهم، بسبب خطأ نجم من جهة فوكود دي مارل Foucaud de Merle ، الذي كان ممسكاً بلبجام فرسه، وكان هذا الرجل فارساً جيداً وبارعاً، لكنه كان أصم تماماً، ولم يسمع شيئاً مما قاله الداوية لمولاه، واستمر يهتف: «عليهم، يارجال، عليهم».

وهنا اعتقد الداوية أنه سيكون عاراً عليهم إذا ما تركوا كونت دي أرتو متقدماً أمامهم، لذلك همزوا خيولهم واندفعوا بلا توقف في مطاردة المسلمين، الذين فروا أمامهم إلى داخل مدينة المنصورة، وإلى الحقول خلفها باتجاه القاهرة، وعندما حاول رجالنا العودة، رمى المسلمون في المنصورة جذوع أشجار ضخمة وقطع أخشاب كبيرة عليهم وهم يمرون من خلال الشوارع، التي كانت ضيقة جداً، وقتل كونت دي أرتو هناك مع راؤول دي كوسي Coucy ، وعدد كبير آخر من الفرسان، حتى أن عدد القتلى جرى تقديره بثلاثمائة، أما الداوية ففقدوا — حسبما أخبرني مقدمهم الأعلى فيما بعد — مائتين وثمانين رجلاً، كانوا جميعاً من الفرسان المقاتلين.

الفصل السابع

معركة المنصورة

٨ شباط ١٢٥٠

وقررت في الوقت نفسه أنا وفرساني المضي ومهاجمة بعض المسلمين الذين كانوا يضعون بعض أمتعتهم في معسكرهم على يسارنا، وهكذا انقضضنا عليهم، وفي الوقت الذي كنا نطاردهم فيه خلال المعسكر، وقع نظري على واحد من المسلمين، كان على نية امتطاء فرسه، وقد أمسك اللجام واحد من فرسانه، وفي اللحظة التي كانت فيها يدها على السرج ليصعد، وجهت إليه طعنة تحت إبطه، فجدلته ميتاً، ولدى رؤية فارسه ما حدث ترك مولاه وترك حصانه، وطعنتي برمحه، وأنا مار به، وأصابني ما بين كتفي، مما جعلني أنبطح فوق رقبة حصاني، بطريقة لم أستطع بها سحب السيف المعلق بحزامي، ولهذا توجب عليّ سحب السيف المعلق إلى فرسي، وعندما رأني وسيفي مسلول سحب رمحه وتركني.

ولما غادرت أنا وفرساني معسكر المسلمين، وجدنا ما قدرناه بحوالي ستة آلاف من المسلمين، الذين تخلوا عن خيمهم، وانسحبوا إلى داخل الحقول، وفي اللحظة التي رأونا فيها، قدموا حاملين علينا، وقتلوا هوغودي تركتيل Trichatel صاحب كونفلان Conflans، الذي كان معي يحمل علماً، وركضت أنا وفرساني على ظهور خيولنا، ومضيا لانقاذ راؤول دي وانو Wanou وكان واحداً آخر من أصحابي قد رموه أيضاً.

ولدى عودتي، طعنتي المسلمون برماحهم، وتحت ثقل حملتهم كبا حصاني على ركبتيه، وطرت نحو الأمام وصرت فوق أذنيه، ونهضت

بقدر ما أوتيت من سرعة، وترسي في الأمام عند رقبتني وسيفي بيدي، وجاء إليّ واحد من فرساني، اسمه إيرارد دي سيفري Erard de Si-verey — منحه الرب النعمة — ونصحنا بالانسحاب نحو بيت مهدم، حيث يمكننا انتظار الملك، الذي كان على الطريق، وبينما كنا متوجهين إلى هناك، جاءت كتلة كبيرة من المسمين مندفة نحونا، بعضها رجالة وبعضها الآخر على ظهور الخيول، ولقد طرحوني أرضاً، وبذلك طار ترسي من أمام رقبتني.

وما أن عبروا حتى جاء إيرارد دي سيفري عائداً نحوي وأخذني معه إلى البيت المهدم، والتحق بنا هناك: هوغو دي ايكوت Ecot، وفردريك دي لوي Loupey، ورينودي مننكورت MenonCourt، وبينما كنا هناك هاجمنا المسلمون من جميع الجهات، ودخل بعضهم إلى البيت، وشرعوا يطعنوننا برماحهم من الأعلى، وطلب مني فرساني الامسك بلجم خيولهم، الأمر الذي فعلته خشية فرارها، ثم قاموا بعد ذلك بدفاع فعال ضد المسلمين مما جعلهم ينالون فيما بعد، كما يمكنني القول، الثناء العالي من جميع الرجال ذوي المكانة العالية في الجيش، وذلك سواء الذين شهدوا شجاعتهم، والذين سمعوا عنها فيما بعد.

وفي خلال هذا الحادث تلقى هوغو دي ايكوت ثلاث اصابات في الوجه من رمح، وكذلك راؤول دي وانو، بينما تلقى فردريك دي لوي طعنة رمح بين كتفيه، فتحت جرحاً كبيراً جعل الدم يتدفق من جسده، كأنه يتدفق من فتحة برميل، وجاءت ضربة من واحد من سيوف العدو الى وسط وجه إيرارد دي سيفري، فقطعت حتى خلال أنفه، وتركته معلق فوق شفتيه، وتذكرت في تلك اللحظة القديس جيمس، وخطر ببالي، فتوجهت بالدعاء إليه قائلاً: «أيها القديس جيمس الطيب، تعال لمساعدتي وأنقذنا في وقت حاجتنا العظيمة هذه».

وما أن تفوهت بهذا الدعاء، حتى قال لي إيرارد دي سيفري: « إذا

كنت يامولاي ترى أنني لن أوصم بالعار وكذلك ورثتي، لإقدامي على الذهاب، وجلب المساعدة إليك من كونت دي أنجو، الذي أراه في الحقول هناك، فأسفل « فقلت له: «بيدولي ياسيدي العزيز أنك ستنال شرفاً عظيماً إذا ما ذهبت لجلب المساعدة إلينا لانقاذ حياتنا، وبالمناسبة، حياتك أيضاً في خطر عظيم» (ولقد قلت الحق، لأنه مات من جرحه)، وتشاور مع بقية الفرسان الذين كانوا هناك، وقدم له الجميع النصيحة نفسها التي أعطيتها له، وبعد سماعه ما قالوه، طلب مني أن أخلي له عن حصانه، الذي كنت ممسكاً بلجامه، وهذا ما فعلته وتركته يأخذه.

ومضى إلى كونت دي أنجو ورجاه القدوم لانقاضي وانقاذ رجالي، وحاول شخص صاحب مكانة عالية أن يصرفه عن الاستجابة، غير أنه قال بأنه سوف يفعل حسبما سأله فارسي، وبناء عليه عطف رأس فرسه ليقدم إلى مساعدتنا، وقام عدد من سيرجنديته بغمز خيولهم أيضاً، وما أن رأهم المسلمون قادمون، حتى نكصوا ليتركوننا، ورأهم بيير دي أوبرايف Auberive وهم يغادرون، وكان يسوق أمام السير جندياً وسيفه في قبضة يده، فحمل على وسط المسلمين الذين كانوا ممسكين لراؤول دي وانو، واستنقذه من بين أيديهم، بعد أن أصيب بجراحه بليغة.

وبينما كنت واقفاً هناك على قدمي مع فرساني، مصاب بجراحة كما ذكرت لكم، قدم الملك لويس على رأس كتائبه، مع زعقات عالية للأبواق ولقرع الطبول، وتوقف مع عساكره فوق جسر مرتفع كان هناك، وأنا لم أرقط فارساً أجمل أو أكثر رشاقة منه، فقد بدا سامياً برأسه وكتفيه فوق شعبه، وكان على رأسه خوذة مذهبة، ويده سيف من فولاذ ألماني.

وما أن توقف، حتى قام الفرسان الجيدون الذين كانوا في فرقته، والذين سميتهم لكم من قبل مع فرسان شجعان من فرسانه،

بالانقضاض مباشرة على المسلمين، وأؤكد لكم أنه أعقب ذلك ملحمة رائعة، وامتحاناً رائعاً للسلاح، لأن ما من واحد استخدم قوساً أو زنبورك، بل كانت المعركة معركة رماح ضد السيوف بين المسلمين وبين شعبنا، وقد انخرط فيها الطرفان بشكل عنيف جداً.

وكان واحد من أتباعي، الذي كان يحمل رايتي قد هرب، غير أنه عاد الآن والتحق بي وجلب معه واحداً من خيولي الفلمنكية، فامتطيته، ومضيت لأخذ مكاني إلى جانب الملك، وعندما كنا معاً، جاء الفارس الجيد جين دي فاليري إلى الملك وقال ناصحاً له بأن ينتقل نحو اليمين باتجاه النهر، وبذلك سوف ينال دعم دوق بيرغندي، ولإعطاء الفرصة أيضاً لسيرجنديّة جلالته للشرب، لأن النهار أخذ يزداد حرارة بشكل كبير.

وأمر الملك سيرجنديته بالذهاب لإحضار الفرسان الجيدين من مستشاريه ممن كان على مقربة منه، مشيراً إلى كل واحد منهم بالاسم، وذهب السيرجنديّة وأحضروهم من وسط القتال الكثيف، حيث كانت الحرب محتدمة بين المسلمين وبين رجالنا، وجاءوا إلى الملك الذي سألهم بماذا يشيرون، فأجابوه بأنهم يعتقدون بأن نصيحة جين دي فاليري صحيحة جداً، بناء عليه أمر الملك حملة الأعلام بالسير مع راية القديس دنس العظمى باتجاه النهر، وعندما شرع الجيش بالتوجه إلى هناك، كانت هناك مرة ثانية أصوات مرتفعة جداً صدرت عن الأبواق وعن الطبول، وكذلك عن النفر الاسلاميّة.

وما كاد الملك يتقدم بضع خطوات حتى تلقى عدة رسائل من كونت بواتيه، ومن كونت دي فلاندرز، ومن رجال آخر كانوا في القيادات العليا، وكانوا هناك مع عساكرهم، وقد توسل الجميع إليه بعدم التحرك، لأنهم كانوا يتعرضون إلى ضغط شديد من المسلمين، إلى حد أنه لن يكون بإمكانهم اللحاق به، ومرة ثانية استدعى الملك ذوي

المكانة من فرسانه للتشاور معهم، وقد نصحوه بالانتظار، وجاء بعد قليل جين دي فاليري عائداً، وانتقد الملك ومستشاريه بسبب البقاء حيث هم، وبناء على ذلك نصح المستشارون الملك بالتحرك نحو النهر، حسبما أوصى جين دي فاليري.

وقدم في هذه اللحظة القسطلان ايمبرت دي بيجو ليخبر الملك بأن أخاه كونت دي أرتو كان يدافع عن نفسه في بيت في المنصورة، وليتوسل إلى جلالته للذهاب للتفريج عنه، فقال الملك: «امض أيها القسطلان أمامي، وأنا سوف أسير في إثرك»، وأخبرت القسطلان بأنني سوف أسير معه بمثابة فارسه، الأمر الذي شكرني عليه من قلبه، وهكذا شرعنا معاً نأخذ طريقنا نحو المنصورة.

وفيما نحن ماضيان إلى هناك، جاء سيرجندي مسلح برمح، وسعى نحو القسطلان في وضع مضطرب جداً من الرعب، وأخبره بأن زحف الملك قد توقف، وأن المسلمين مركزوا أنفسهم بين جلالته وبيننا، والتفتنا فرأينا هناك ما يزيد على الألف منهم بيننا وبين جيش الملك، ولم يكن تعدادنا أكثر من ستة، وبناء عليه قلت للقسطلان: «لا يمكننا يامولاي العودة إلى الملك من خلال هذا الحشد من الرجال، لذلك دعنا نسير بالاتجاه المعاكس لجريان النهر، ولندع هذا الخندق الذي تراه أمامك بين الأعداء وبيننا أنفسنا، فهذه الوسيلة يمكن أن نتدبر أمر العودة إلى الملك، وأخذ القسطلان بنصيحتي، لكن يمكن أنؤكد لكم أن المسلمين لو انتبهوا إلينا أدنى انتباه، لقتلونا بكل تأكيد، وكانوا على كل حال، في ذلك الحين لا يولون الاهتمام إلا إلى الملك ولكتائب الرجال الكبيرة، مهملين ما سوى ذلك، وهكذا افترضوا بأننا كنا بعضاً من رجالهم.

وبينما كنا عائدين نزولاً على شاطئ النهر، بين المجرى الفرعي والنهر الأساسي، شاهدنا بأن الملك بات قريباً من النهر، وكان المسلمون

يسوقون إلى الوراء كتائبه الأخرى، وهم يضربون ويطعنون فيها بالرمح وبالسيوف، ويرغمونها بالتدريج مع كتيبة الملك الخاصة على التراجع على طول النهر، وكانت الهزيمة هناك كاملة إلى حد أن كثيراً من رجالنا حاولوا السباحة عبر النهر للاتحاق بدوق بيرغندي، غير أنهم كانوا غير قادرين على فعل ذلك، لأن خيولهم كانت منهكة، والنهار صار حاراً جداً، ولهذا عندما كنا نازلين على محاذة النهر باتجاههم، رأينا النهر مغطى بالرمح وبالترسة، ومليئاً بالرجال وبالخيول الذين كانوا يغرقون في الماء.

ولدى وصولنا إلى جسر صغير قائم على المجرى، قلت للقسطلان: «دعنا نقف هنا ونتولى حراسة هذا الجسر، لأننا إذا تركناه سوف يلقي المسلمون بأنفسهم على الملك من هذا الاتجاه أيضاً، وإذا ما هوجم جندنا من الجانبين لسوف يغلبون»، وهكذا فعلنا حسبنا نصحت، وعلما فيما بعد أننا كلنا كنا سنقتل في ذلك اليوم لولا الملك، فقد أخبرني بيردي كورتني وجين سالييني Saillenay بأن ستة من المسلمين قد أمسكوا بمقود فرس الملك، وكانوا يقودونه نحو الأسر، عندما قام بإنقاذ نفسه بدون مساعدة من أحد، بتوجيه ضربات كبيرة نحوهم بسيفه، وعندئذ رأى رجاله كيف يقوم الملك بالدفاع عن نفسه استردوا شجاعتهم، وتخلّى كثير منهم عن التفكير بالنجاة عبر النهر، وتجمعوا للقيام بانقاذه.

وقدم مباشرة نحونا نحن الذين كنا نتولى حراسة الجسر الصغير الكونت بيردي بريتاني، وقد تلقى ضربة عبر وجهه، كان الدم يسيل منها إلى فمه، وكان يمتطي فرساً رشيقياً جداً، وقد ألقى بمقوده فوق قربوسه، الذي أمسك به بكلتا يديه، خشية أن يقوم رجاله الذين كانوا يسرون إلى جانبه للحصول على الطمأنينة، بقلعه من مكانه وهم يعبرون الجسر الصغير، ويبدو أن رأيه فيهم كان سيئاً، لأنه كان وهو

ينفث الدم من فمه قد تابع القول بصوت جهوري: «أيها الرب الطيب، هل رأيت قط مثل هؤلاء الأوغاد؟ وجاء بعد رجاله كونت دي سواسون وبيير دي نوفيل Neuville، الذي كان لقبه «كبير Caier»، وكان كلاهما قد تلقى ما فيه الكفاية من الضربات ذلك اليوم.

وبعد ما عبر هؤلاء الرجال الجسر، رأى المسلمون أننا نتولى حراسته ووجوهنا منصرفة نحوهم، لهذا توقفوا عن مطاردة كونت بيير وجماعته، ووقتها توجهت إلى كونت دي سواسون، الذي صدف أنه كان ابن عم (خال) زوجتي، وقلت له: «أعتقد ياسيدي أنه سيكون أمراً مفيداً، إذا وقفت هنا لحراسة هذا الجسر، لأننا إذا تركناه بدون حراسة سوف يندفع المسلمون عبره، ولسوف يتعرض الملك إلى الهجوم من كل من المقدمة ومن الخلف»، وسألني فيما إذا بقي هو، هل سأبقى معه هناك، فأجبته: «سوف أفعل ذلك بكل تأكيد»، ولدى سماع القسطلان بهذا أخبرني أن لا أتحرك من مكاني حتى يعود، وقال بأنه ذاهب للبحث عن مساعدة لنا.

وبقيت حيث كنت هناك، ممتطياً ظهر جوادي القوي، وذلك مع كونت دي سواسون من على يميني، وبيير دي نوفيل من على يساري، وفجأة قدم مسلم يركض بفرسه نحونا من جهة عساكر الملك، التي كانت خلفنا، ووجه ضربة عنيفة جداً لبيير من الخلف بدبوسه، فأرغمه على الإرتقاء فوق رقبة حصانه، ثم قفز عابراً للجسر، واندفع ليكون في وسط جماعته.

وعندما رأى المسلمون أننا لن نتخلى عن الجسر الصغير، عبروا مجرى النهر الصغير، وتمركزوا بينه وبين النهر، مثلما فعلنا عندما كنا منحدرين على محاذاة النهر، وبناء عليه زحفنا نحوهم لنكون جاهزين للحملة عليهم إذا ما حاولوا المضي باتجاه عساكر الملك أو القيام بعبور الجسر الصغير.

وكان أمامنا مباشرة اثنان من سيرجندية الملك، اسم أحدهما وليم دي بون Boon، واسم الآخر جين أوف غاماش Gamaches، وكان المسلمون الذين وقفوا بين مجرى النهر الصغير والنهر قد أحضروا معهم عدداً كبيراً من الفلاحين سيراً على الأقدام، وقد راح هؤلاء يقذفون هذين الرجلين بكدر الأرض، غير أنهم لم يستطيعوا إرغامهم على التراجع إلى حيث كنا، وأخيراً جلب المسلمون رجلاً قصيراً، تولى رمايتهما بالنار الاغريقية ثلاث مرات متوالية، وحدث أن صدّ وليم أوف بون قدر النفط بوساطة ترسه، لأن اللهب لو أمسك أي طرف من ثيابه، لاحترق بكل تأكيد وهو حي.

وتغطينا جميعاً بالنشاب الذي أطلق على السيرجنديين ولم يصبها، وصدف لحسن الحظ أن وجدت قميصاً إسلامياً محشواً بحشوتين، فقلبتة ووضعت الجانب المفتوح باتجاهي، واستخدمته بمثابة ترس لي، وقد أفادني فائدة كبيرة، لأنني كنت مجروحاً بنشاب العدو بخمسة أماكن، مع أن فرسي كان مجروحاً في خمسة عشر مكاناً، وحدث أيضاً أن شخصاً جيداً من جوانفيل جلب إليّ قصبه ثبت عليها رنوكي إلى سنان رمح، وكنا في كل وقت نرى فيه المسلمين يضغطون فيه بشدة على السيرجنديين، نقض عليهم، ونجعلهم يفرون.

واستمر في هذا الوضع الصعب كونت سواسون الطيب، وفي تلك الساعة الحرجة كان يمزح ويقول لي بانسراح وفكاهة: «بحق قلنسوة الرب— فهذه كانت صيغة يمينه المحبب إلى نفسه— دع أيها النائب هؤلاء الكلاب ينبحون كما يريدون، ولسوف نتحدث عن هذا اليوم فيما بعد، أنا وأنت، ونحن جلوس في البيت مع زوجاتنا».

وفي ذلك المساء، عندما كانت الشمس موشكة على المغيب، جاء القسطلان مع مجموعة من رماة الزنبورك الرجالة التابعين للملك، الذين انتظموا في صف أمامنا، وما أن رأهم المسلمون يوترون جروحهم

بأقدامهم، حتى تركونا وفروا، وعندها قال القسطلان لي: «حسناً ما كان أيها النائب، اذهب الآن إلى الملك، ولاتفارقه حتى يعود ثانية إلى سرادقه»، وما أن وصلت إلى الملك، حتى جاء إليه جين دي فاليري وقال له: «ياصاحب الجلالة، يسألك صاحب شاتليون أن تعطيه إمرة ساقه الجيش»، ووافق الملك عن طيب خاطر، ثم شرع يتقدم نحو الأمام، وفيما نحن سائرون جعلته يخلع خوذته وأعرته قبعتي الفولاذية، عسى أن يتخلل بعض الهواء رأسه.

وبعدما عبر الملك النهر، جاء الراهب هنري دي روني Ronnay ، مقدم الاستبارية، وقبل يده المدرعة، وسأله الملك إذا كانت لديه أية أخبار عن كونت أرتو، فأجابه المقدم، بأنه حقاً لديه أخباراً عنه، لأنه متأكد تماماً من أن أخاه كان الآن في الفردوس، وأضاف هذا المقدم يقول: «أواه ياصاحب الجلالة، كن مرتاح الضمير، فما من ملك من ملوك فرنسا قد نال من الشرف مثل الذي نلته اليوم، لأنك من أجل أن تقاتل الأعداء، اجتزت النهر سباحة، حتى تهزمهم كلياً وتطردهم من الحقل، وفضلاً عن هذا لقد استوليت على آلاتهم، وكذلك على خيمهم التي سوف تنام فيها الليلة»، وأجابه الملك قائلاً: «دعنا نصلي للرب من أجل كل ما أعطاني إياه»، ثم أخذت دموع غزيرة تنحدر من عينيه.

وعندما وصلنا إلى المعسكر وجدنا بعض الرجالة من عساكر المسلمين يشدون حبال خيمة كانت قيد الفك، في حين كان عدد من عساكرنا يشدونها من الجانب الآخر، وهنا حملت أنا ومقدم الداوية على وسطهم، وهكذا هرب العدو، وبقيت الخيمة في أيدينا.

وفي أثناء مجريات معركة ذلك اليوم كان هناك عدد كبير من الناس، ومن ذوي المظهر الجميل أيضاً، الذين جاءوا مجلنين بالعار فارين عبر الجسر الصغير الذي حدثتكم عنه، وقد هربوا والفرع قد استولى عليهم واستبد بهم، حتى أن محاولتنا لجعلهم يقيمون معنا تبددت بدون فائدة،

ويامكاني اخباركم ببعض أسمائهم، لكنني سأتمنع عن ذلك لأنهم أموات الآن.

وعلى كل حال لن أتجنب ذكر اسم غي موفوسين Mauvoisin ، لأنه عاد مجدداً من المنصورة، وسائرنا أنا والقسطلان طوال الطريق النهر، ولحق هوبنا، وعندما ضغط المسلمون بشدة على كونت دي بريتاني وعلى رجاله، وضايقوا موفوسين ورجاله، نال رجال موفوسين وهو أيضاً مجدداً عظيماً لجانبهم في قتال ذلك اليوم، وليس عجباً ما فعلوه في ذلك اليوم، لأن— كما علمت من الذين عرفوا تشكيلة قواته— جماعته تكونت— باستثناء عدد قليل— من فرسان كانوا إما من أفراد أسرته أو من أتباعه الاقطاعيين.

وبعدما هزمتنا المسلمين، وطردها من خيمهم، وفي حين ترك أصحابنا خيمهم فارغاً اندفع البداية للقيام بنهبه، لأن المسلمين الذين كانوا معسكرين هناك كانوا رجالاً من ذوي المراتب العالية وأصحاب الممتلكات العظيمة، ولم يترك اللصوص خلفهم شيئاً، بل حملوا كل شيء خلفه المسلمون، وعلى كل حال، لم أسمع بأن البداية، مع أنهم كانوا رعايا للمسلمين، قد كانوا أقل تقديراً، لاقدامهم على السرقة، ولحملهم هذه الأسلاب، لكن المعروف أن عادة هؤلاء القوم عدّ الجانب الضعيف صيداً حلالاً لهم.

وفيما يتعلق بموضوعي، سوف أخبركم أي نوع من الناس البداية هؤلاء: إنهم لايتبعون محمداً (صلى الله عليه وسلم) بل يقبلون تعاليم علي (رضي الله عنه)، الذي كان (ابن) عم محمد (صلى الله عليه وسلم) (ومثل هذا الموقف يتبناه شيخ الجبل، الذي يتزعم الحشيشية، وهذه هي قناعاته أيضاً) ويعتقد هؤلاء القوم أن الانسان عندما يموت في سبيل مولاه، أو لأي سبب آخر جيد، تذهب روحه لتحل في انسان آخر، هو أحسن حالاً وأكثر سعادة من المتقدم، ولهذا السبب لايعبأ الحشيشية

بالقتل سوى قليلاً عندما ينفذون أوامر مقدمهم، وعلى كل حال لن أتحدث الآن أكثر عن شيخ الجبل، بل سأقصر حديثي عن البدو وحدهم:

ولا يعيش هؤلاء القوم في قرى أو في مدن أو في قلاع، بل ينامون دوماً في العراء، وفي أثناء الليل، أو في أثناء النهار عندما تكون الأحوال الجوية سيئة يتخذون بيوتاً لخدمهم ولزوجاتهم ولأولادهم، مما يشبه أكواماً من البراميل مربوطة إلى أعمدة، تشبه بعض الشيء محفات السيدات، ويلقون فوق هذه الأكوام جلود الأغنام، المعالجة بالشب، والتي تعرف باسم الجلود الشامية.

وارتدى البداءة عباة كبيرة من الصوف، كانت تغطي الجسد كله، بما في ذلك الساقين والقدمين، وعندما كانت تمطر في المساء، أو عندما تكون الأحوال الجوية سيئة في الليل، كانوا يلفون أنفسهم بالعباءات، ووقتها كانوا ينزعون اللجم من أفواه خيولهم، ويتركونها تقف من الأعشاب قربهم، ويقومون في الصباح بنشر عباةاتهم في الشمس ثم يقومون بفركها واعطائها وجبة جديدة من الشب، وبعد ذلك لا يبقى فيها أدنى أثر على أنها كانت مبللة.

وهم يعتقدون أن ما من واحد يمكن أن يموت قبل اليوم المحدد له، ولهذا السبب يرفضون ارتداء أي نوع من أنواع الدروع، وكلما أرادوا شتم أولادهم كانوا يقولون لأحدهم «عليك اللعنة مثل فرنجي يلبس الدروع خوفاً من الموت»، ولا يحملون أثناء القتال شيئاً سوى السيوف أو الرماح.

ويرتدي كلهم تقريباً فرجية طويلة تشبه الرداء الخارجي الذي يرتديه الكهنة، ويلفون رؤوسهم بأقمشة تمضي حتى تحت ذقونهم، وهكذا يبدو هؤلاء بألوان شعورهم السوداء كالفتح وكذلك ألوان لحاهم، ذوي

شكل قبيح، ومن المرعب أن تنظر إليهم.

وهم يعيشون اعتماداً على ما يقتاتونه من حليب مواشيهم، ويدفعون ايجاراً إلى الرجال الأغنياء الذين يمتلكون بسائط للرعي، منها تقنات هذه الحيوانات، وما من انسان يمكنه أن يذكر تعداد هؤلاء الناس، ذلك أنهم يعيشون في مملكة مصر، وفي مملكة القدس، وفي البلدان الأخرى العائدة للمسلمين وللشعوب الكافرة الأخرى، الذين يدفعون إليهم مبالغ كبيرة من المال بمثابة جزية كل عام.

ولقد صدف في بلادنا، بعد ما عدت من بلاد ماوراء البحر، بعض المسيحيين غير المخلصين، الذين يؤمنون مثل البداية، في أن ما من انسان يمكن أن يموت إلا في اليوم المكتوب له، وفي هذا الاعتقاد إنكار لديننا، لأنه يقود إلى القول بأن الرب لا قدرة لديه على عوننا، وبالنسبة للذين يعبدون الرب منا، سوف يكونون في الحقيقة حمقى، إذا لم يعتقدوا بأن الرب لديه القدرة على إطالة أعمارنا، وعلى حفظنا من الشر، ومن سوء الحظ، ومن المؤكد تماماً وجوب إيماننا به، والاعتقاد أنه لديه القدرة على فعل كل شيء.

الفصل الثامن

نصر وعقاييله

شباط — نيسان ١٢٥٠

ولسوف أتابع الآن حديثي لأخبركم، أنه عند حلول الظلام، قام الملك، وقام المتبقي منا، بعد عودتنا من المعركة المرعبة، التي وصفتها للتو، بالاستقرار في المكان نفسه الذي اقتلعتنا الأعداء منه، وجلب لي رجالي الذين بقيوا في المعسكر، الذي انطلقنا منه أولاً، خيمة، كان الداوية قد أعطوني إياها، ونصبوها أمام الآلات، التي استولينا عليها من المسلمين، والتي وضع لها الملك من يتولى حراستها.

وعندما عدت أخيراً إلى فراشي، حيث كنت بالحقيقة بحاجة ماسة إليه، بسبب الجراح التي نلتها أثناء النهار، لم أتل طعم الراحة، فقبل بزوغ فجر النهار دوى صوت خلال المعسكر ينادي: «إلى السلاح، إلى السلاح»، فأيقظت حاجبي الذي كان نائماً عند طرف فراشي، وطلبت منه الذهاب لرؤية ما الذي كان يجري، ولقد رجع وهو يرتجف من الرعب، وصرخ: «انهض، يامولاي انهض، المسلمون هنا، لقد جاءوا حشداً على الأقدام، وخيالة، وهزموا سيرجندية الملك الذين كانوا يجرسون الآلة، وطردهم حتى حبال سرادقاتنا».

ونهضت، وألقيت قميصاً مبطناً على ظهري، ووضعت قبعة من الفولاذ فوق رأسي، وهتفت رافعاً صوتي إلى سيرجنديتنا: «بحق القديس نيقولا، لن يقبوا هنا»، وتخلق فرساني من حولي، مع أنهم كانوا جميعاً جرحى، وطردهنا الجنود المسلمين وأبعدناهم عن آلاتنا، حتى وصلوا إلى قواتهم من الخيالة، الذين كانوا قرب الآلة التي كنا قد أخذناها منهم، وبعثت إلى الملك أطلب المساعدة، لأنه لم يكن لا يماكاني ولا يماكان

فرساني لبس الدروع بسبب الجراح التي أصبنا بها، وأرسل الملك لنا غوثير دي شاتليون، الذي تمركز أمامنا بين المسلمين وبيننا أنفسنا.

وعندما رد المدافعون منا الرجالة المسلمين، تراجع هؤلاء والتحقوا بكتلة كبيرة من الخيالة المسلمين، الذين اصطفوا أمام معسكرنا، ليحولوا بيننا وبين القيام بهجوم مفاجيء على الجزء الرئيسي من جيشهم، الذي كان معسكراً خلفهم، وكان ثمانية من القادة الرئيسيين لهذه الكتلة، قد ترجلوا، وهم شاكي السلاح، وأقاموا نوعاً من أنواع السواتر الدفاعية من الحجارة المنحوتة، حتى لا يتمكن رماة جروخنا من جرحهم، وأطلق هؤلاء الرجال الثمانية سحابة إثر سحابة من النشاب إلى معسكرنا، فجرحوا عدداً من رجالنا ومن خيولنا.

وبعدما تشاورنا معاً، اتفقت أنا وفرساني، أنه ما أن يسدل الظلام، سنقوم بإزالة الحجارة التي تحصن خلفها هؤلاء الرجال، ولم يستطع كاهن تابع لي كان بيننا أثناء مناقشاتنا، أن ينتظر طويلاً، فغادر تخيماً وحده فقط، وكان يرتدي قميصاً، وقبعة فولاذية فوق رأسه، وزحف نحو المسلمين، يجر رمح خلفه، وقد وضعه تحت ذراعه، وسانه مصوب نحو الأرض حتى لا يبصره المسلمون.

واقترب من المسلمين، الذين ازدروه لأنهم رأوه أنه كان وحيداً، وسحب رمح من تحت ذراعه بسرعة وركض نحوهم، ولم يفكر واحد من الثمانية بالدفاع عن نفسه، بل الجميع نكصوا على أعقابهم وهربوا، وعندما رأى المسلمون الخيالة أن سادتهم يفرون نحوهم، بادروا مسرعين نحو الأمام لإنقاذهم، وفي الوقت نفسه قدم حوالي الخمسين من سيرجنديتنا مندفعين إلى خارج المعسكر، وتابع الخيالة المسلمون حث خيولهم على التقدم، ولكنهم لم يتجرأوا على مهاجمة رجالتنا، بل انصرفوا جانباً بشكل مفاجيء.

وكرروا هذا الذي فعلوه مرتين أو ثلاث مرات، وقام واحد من سيرجنديتنا بإمساك رمحه من وسطه وقذف به نحو واحد من المسلمون، وبذلك طعنه بين أضلاعه، ونكص الرجل المطعون على عقبيه، ورجع والرمح معلق من سنانه في جسده، ولدى رؤية المسلمين لهذا لم يعودوا يتجرأون على التقدم، وتراجعوا من أمامنا، وتولى على الفور سيرجنديتنا إزاحة الحجارة، ومنذ تلك الساعة وفي المستقبل بات كاهني معروفاً في أرجاء الجيش كله، وكان أحد الناس يقول للآخر وهو يشير إليه: «انظر ذلك هو كاهن مولاي صاحب جوانفيل، الذي هزم المسلمين الثمانية».

وجرت الأحداث التي توليت ذكرها في أول الصوم الكبير، وقام في ذلك اليوم نفسه واحد من المسلمين الشجعان — الذي انتخبه المسلمون قائداً لهم في مكان فخر الدين ابن الشيخ، الذي فقدوه في معركة يوم ثلاثاء المرافع — بحمل سابغة ودروع كونت دي أرتو، الذي قتل في المعركة نفسها، وعرضهم أمام شعبه، مخبراً إياهم بأن المعروض هو دروع الملك وسابغته، وأن الملك نفسه قد مات.

وقال لهم: «إنني أريكم هذه المغانم، لأن جسماً بلا رأس ينبغي ألا يخيف، وكذلك شعباً بلا ملك، ولذلك إذا ما أردتم وكنتم على استعداد، سوف نهاجمهم يوم الجمعة، ويبدو لي إن عليكم أن توافقوا على هذا، لأننا لن نخفق في قهرهم جميعاً، طالما أنهم فقدوا قائدهم»، ووافق الجميع على الهجوم علينا في يوم الجمعة.

وقدم بعد هذا جواسيس الملك الذين كانوا في معسكر المسلمين، إليه، وهم يحملون إليه أخبار مشروع الهجوم، وبناء عليه أمر جلالته جميع الأمراء القيايين لديه والمتولين قيادة مختلف الفرق، بأن يقوموا بتسليح رجالهم في منتصف الليل، وأن يقوموا بصفهم فيما بين الخيم، والسياج الممدود حول المعسكر، وكان هذا معمولاً من أوتاد خشبية طويلة لمنع المسلمين من الإغارة بشكل مفاجيء على معسكرنا، ومع

هذا كانت هذه الأوتاد مثبتة بالأرض بطريقة كان من الممكن المرور فيها بينها على الأقدام، وتم تنفيذ أوامر الملك حسبها كان قد أصدرها تماماً.

ومع إشراق الشمس تماماً، قام المسلم، الذي أشرت إليه على أنه القائد المنتخب للمسلمين، بقيادة أربعة آلاف من الخيالة المسلمين، الذي تولى صفهم وبثهم حول معسكرنا وحوله شخصياً، وذلك في تشكيلة امتدت من النهر الذي يأتي من القاهرة إلى النهر الذي يخرج من معسكرنا نحو بلدة تدعى رشيد(اقرأ : أشموم طناح)، وجلب بعد هذا كتلة كبيرة جداً من المسلمين الرجالة، الذين تولوا تطويق معسكرنا بالطريقة نفسها، وإلى جانب هاتين الكتلتين من العساكر اللتين أتيت على ذكرهما للتو، كانت جميع قوات سلطان القاهرة واقفة بالقرب، وجاهزة لتقديم العون للآخرين إذا ما احتاجوا إلى ذلك.

وما أن جرى تنفيذ هذه العملية، حتى قدم قائد المسلمين لوحده، وكان يمتطي على مهر صغير الحجم، وقد تقدم نحو الأمام لاستطلاع أوضاع عساكرنا، وكان كلما رأى قواتنا في أحد الأماكن كانت أقوى ممن يقابلها، كان يعود ليحلب المزيد من الرجال، ليقوم بدعم كتائبه ضدنا، وأرسل بعد هذا بالبداة، الذين كان منهم هناك ما لا يقل عن ثلاثة آلاف، ووجههم للزحف ضد المعسكر الذي كان بأيدي دوق بيرغندي، الذي كان قائماً بين النهرين، وفعل هذا لأنه اعتقد بأن الملك سوف يرسل بعضاً من رجاله لمساعدة الدوق ضد البداة، وبذلك يضعف قواته.

واحتاج هذا المسلم حتى منتصف النهار ليقوم بهذه الترتيبات، ثم أصدر أوامره بقرع الطبول، وعلى الفور قامت القوات الإسلامية جميعها من رجالة وخيالة بالحملة علينا، حملة رجل واحد، وسوف أحدثكم أولاً عن ملك صقلية(الذي كان في ذلك الوقت كونت دي أنجو)لأنه كان في طليعة جيشنا على الطرف المتجه نحو القاهرة، فقد أنشب

الأعداء القتال معه وفق طريقة اللعب بالشطرنج، حيث أرسلوا أولاً رجالاتهم نحو الأمام لقتاله، وبعثوا أيضاً الذين قذفوا النفوط (النار الاغريقية) نحو عساكره، ثم ضغط المسلمون جميعاً من خيالة ورجالة بشدة متناهية على عساكرنا، إلى حد أن ملك صقلية الذي كان مترجلاً واقفاً بين فرسانه قد قهر تماماً.

وجاء رسل إلى الملك لويس لإخباره عن الخطر العظيم الذي أحاق بأخيه، ولدى سماعه بهذا اندفع وقد غمز حصانه حتى كان وسط قوات أخيه، واندفع بين صفوف المسلمين والسيوف بيده، حتى أنهم أحرقوا حصانه وتجايفه بالنفوط (النار الاغريقية)، لكن بحملة ملكنا هذه، أنقذ ملك صقلية، وطرد المسلمين من المعسكر.

وكان التالي لعساكر ملك صقلية فرقة بارونات ماوراء البحر، بقيادة غي دي إيبيلين مع أخيه بلدوين، وتلا هذه القوات فرقة كانت بقيادة غوتير دي شاتليون، وكانت مشحونة برجال أشاوس تماماً، كلهم مشهور بشجاعته وأعمال فروسيته، ودافعت هاتان الفرقتان عن أنفسهما بفعالية، لهذا لم يتمكن المسلمون من حرق صفوفهما أو ارغامهما على التراجع نحو الخلف.

وكان التالي في تلقي حملة الأعداء الأخ الراهب وليم دي سيناك Sennac، مقدم الداوية، وذلك مع الأعضاء القلة الذين بقيوا من طائفته، بعد معركة ثلاثاء المرافع، وقد امتلك متراساً أقيم أمام رجاله، وقد صنع من الآلات التي استولينا عليها من المسلمين، وعندما زحف العدو لقتالهم قذف بالنفوط (النار الاغريقية) على السواتر الدفاعية التي أقاموها، ولقد التقطت النار بسرعة، لأن الداوية استخدموا كميات كبيرة من الألواح في انشائها، ولم ينتظر المسلمون النيران حتى تخمد بعد اكتمال الاحتراق، بل اندفعوا وقاتلوا الداوية وسط اللهب، وفقد مقدم الداوية في هذا الاشتباك احدى عينيه، وكان قد فقد العين الأخرى في

يوم الثلاثاء المرافع، ولقد نجم عن هذا الحادث موته، منحه الرب الرحمة، وكان خلف الداوية شريط من الأرض، تساوي مساحته مساحة ما يمكن لعامل أن يفلحه في يوم، وكانت هذه المنطقة مغطاة بشكل كثيف بنشاب المسلمين، إلى حد أنه لم يكن بإمكانك رؤية الأرض تحتهم.

وكان التالي لقوات الداوية العساكر التي قادها غي موفوزين -Mau- voisin، وهذه العساكر لم يستطع المسلمون هزيمتها أبداً، ومع هذا استطاعوا غمره شخصياً تماماً بالنار الاغريقية، حتى أن رجاله وجدوا صعوبة بالغة في إطفائها.

وشروعاً من المكان الذي كان غي موفوزين معسكراً فيه، امتد السياج الدفاعي الذي أحاط بمعسكرنا نحو النهر ولم يبعد إلا قرابة رمية حجر، ومرّ هذا السياج من هناك من أمام العساكر التي تولى قيادتها الكونت وليم دي فلاندرز، وامتد بعيداً حتى النهر الذي يتدفق باتجاه البحر، وواجهت فرقنا السياج الدفاعي على الجانب نفسه مثل فرقة غي موفوزين، لكن بما أن رجال كونت دي فلاندرز قد تمركزوا أمام جيش المسلمين مباشرة، لم يغامر المسلمون على القدوم ومهاجمتنا، وفي هذا المجال عاملنا الرب بنعمة عظيمة، لأنني لم أكن أنا شخصياً ولا فرساني نرتدي الدروع أو نحمل الترس، بسبب الجراحات التي أصبنا بها في معركة يوم الثلاثاء المرافع.

وقام المسلمون الرجالة منهم والخيالة بهجوم فغال وشجاع جداً على كونت دي فلاندرز، وعندما رأيت الذي يجري أمرت رماة الزنبورك من رجالي بالرمي على الخيالة، وما أن رأى هؤلاء الرجال أنهم أخذوا يتعرضون للجراحات من جانبنا، حتى بادروا إلى الفرار، ولدى رؤيتهم يفرون، غادر رجال الكونت المعسكر، وقفزوا فوق الحواجز، وركضوا بين الرجالة المسلمين وتغلبوا عليهم، وتمّ قتل عدد كبير من الأعداء، وتم الاستيلاء على كثير من ترستهم، وأبدى غوتير دي لي

هورن Horgne، الذي حمل راية صاحب أبريمونت شجاعة عظيمة، وفعالية في عملية الصد هذه.

وكانت الفرقة التالية التي اشتبكت بالأعداء الفرقة التي قادها أخو الملك كونت بواتييه، وكانت قوات هذه الفرقة من الرجال، وكان الكونت وحده هو الذي امتطى جواداً، وقد ألحق المسلمون بهذه الفرقة هزيمة ساحقة، وحملوا كونت بواتييه أسيراً، وعندما رأى الجزائريون والعاملون الآخرون في المعسكر، بما في ذلك النساء اللاتي تولين بيع المؤن، هذه الواقعة، رفعوا أصواتهم بالصراخ المنذر في أرجاء المعسكر، وبمعونة الرب جرى انقاذ الكونت، وطرده المسلمين من محلاتنا.

وجاء بعد العساكر التي قادها كونت دي بواتييه، القوات التي قادها جوسراند دي برانكيون، الذي كان قد جاء إلى مصر مع الكونت، وكان واحداً من أفضل الفرسان في الجيش، وقد عبأ قواته بأن جعل جميع فرسانه رجالاً، بينما ركب هو نفسه فرساً، ومثله فعل ابنه هنري وابن جوسراند دي نانتون Nanton، وقد وضعه أيضاً على ظهر فرس لأنها كانا مائز الان في مقتبل العمر، وكسب المسلمون الجولات القتالية عدة مرات، غير أنه كان كلما رأى رجاله في شدة، كان يغمز حصانه ويهاجم الأعداء من الخلف، وفي عدة مناسبات من هذا القبيل تخلى المسلمون عن مضايقة رجاله ليقوموا بالهجوم عليه.

إلا أن هذا كله ما كان ليحول بين المسلمين وبين قتلهم جميعاً على أرض ميدان المعركة، لولا وجود هنري دي كون Cone، الذي كان فارساً عاقلاً، وشجاعاً، وثاقب الرأي تماماً، وكان موجوداً في فرقة دوق بيرغندي، حيث كان كلما رأى المسلمين يضغطون بشدة على اللورد برانكيون وقواته، كان يجعل رماة القسي العقارة التابعين للملك يقومون بالرمية عليهم من عبر النهر، وهكذا بقي جوسراند دي برانكيون سالماً من رعب ذلك اليوم، لكن ليس بدون فقدان اثني عشر فارساً من بين

العشرين الذين كانوا معه، وذلك بصرف النظر عن الرجال الآخرين الذين كانوا من المراتب الأدنى، يضاف إلى هذا أنه هو نفسه قد أصيب إصابة بالغة، حتى لم يعد بمقدوره منذ ذلك الحين الوقوف على قدميه، وفي النهاية مات بسبب الجراحات التي تلقاها أثناء خدمته للرب.

ولسوف أخبركم الآن ببعض المزيد عن جوسراند دي برانكيون، ففي الوقت الذي توفي فيه كان قد شارك في ست وثلاثين معركة واشتباك صغير، وحمل دوماً الجائزة لشجاعته، ولقد قابلته مرة عندما كنا معا في حملة عسكرية قادها ابن عمه كونت دي شالون Chalon، وقد جاء إليّ في يوم الجمعة الحزينة وقال لي ولأخي: «تعالا يا ولدي أخي وساعداني، أنتما ورجالكم، لأن الألمان يقومون بتدمير الكنيسة»، ومضينا معه وانقضضنا على الألمان وسيوفنا مشهورة، وبعد صعوبة كبيرة، وصراع عنيف طردناهم من الكنيسة.

ولدى انتهاء هذه المعركة، ركع هذا الرجل أمام المذبح، ودعا بصوت مرتفع إلى مخلصنا قائلاً: «مولاي، أرجوك أن ترحمني، وأن تتشلني من هذه الحروب بين المسيحيين، التي أنفقت فيها شطراً كبيراً من حياتي، وامنحني امكانية الموت في خدمتك، ومن ثم التمتع بملكوتك في الجنة».

ولقد أخبرتكم بهذه الأشياء لاعتقادي بأن ربنا قد استجاب لدعائه، حسبما يمكنكم استخلاص ذلك مما قلته من قبل.

وبعد هذه المعركة، التي وقعت في الجمعة الأولى من الصوم الكبير، استدعى الملك لويس جميع باروناته للمثول أمامه، وقال لهم: «ينبغي علينا تقديم الشكر العظيم لمخلصنا، الذي أسبغ علينا فضله وشرفنا مرتين خلال هذا الاسبوع: في يوم الثلاثاء المرافع، عندما طردنا العدو من المخيم الذي نسكنه نحن أنفسنا الآن، وعلى يوم الجمعة التالي، الذي

مرّ للتو، الذي دافعنا فيه عن أنفسنا ضد أعداء هاجمونا وهم على ظهور الخيول، في حين كنا رجاله فقط»، وقال الملك أيضاً أشياء لطيفة وخيرة كثيرة لباروناته، ليواسيهم، وليبعث فيهم روح شجاعة جديدة.

وأجد وأنا أتابع سياق روايتي من الضروري ملامسة بعض القضايا المكتملة، ولهذا إنه من المفيد التوقف عند هذه النقطة لأوضح كيف احتفظ السلاطين بقواتهم بشكل حسن، وفي أحوال جيدة، ونحن نعلم بشكل مؤكد أن معظم الشخصيات القيادية في جيوشهم كانوا من الأجانب، الذين جلبهم التجار من بلدان أخرى لبيعهم، وهم الذين كان المسلمون يقبلون بسرور على شرائهم، حتى مقابل أسعار عالية جداً، وجلب هؤلاء الناس الذين أحضرهم التجار إلى مصر، بالغالب من الشرق، لأنه عندما كان واحد من الحكام الشرقيين يهزم حاكماً آخر كان يستولي على البؤساء الذين قهرهم، ويبيعهم إلى التجار، الذين كانوا يقومون بدورهم بجلبهم وبيعهم مجدداً إلى المصريين.

وإذا كان أي من هؤلاء أطفالاً، فقد كان السلطان يتولى تربيتهم في بيته الخاص حتى تبدأ لحاهم بالنمو، وكان يراعي أن يرى في أيديهم قسيماً موائمة لقواهم، وعندما كانوا يزدادون قوة كان يأمر بالقسي الضعيفة لتودع في دار الصناعة، ويجعل المعلم العام المسؤول عن النظام أن يقوم بتجهيزهم بأقوى القسي التي يمكن لهم ائثارها.

وكان هؤلاء الغلمان يعرفون باسم البحرية (أو الناس من البحر)، وكانوا يتمتعون بامتياز ارتداء دروع الرنوك نفسها — التي كانت من الذهب — مثلما يرتدي السلطان نفسه، وما أن كانت لحاهم تبدأ بالنمو، حتى كان يجعلهم فرساناً، ويستمررون في حمل رنوكه، لكن مع شيء من الخلاف، أي أن تقول أنهم كانوا يضيفون بعض الأشكال القرمزية، مثل الورود، أو الخطوط، أو الطيور، أو تصاميم أخرى، تبعاً لإختيارهم.

وهم يعرفون الآن باسم (جند) الحلقة (أو الحرس الملكي)، لأنهم ينامون في خيم السلطان، وكانوا يعطون، عندما يكون في المعسكر، أماكن مجاورة له، ويتولون حراسته شخصياً، وكان حجاب السلطان يعيشون في خيمة صغيرة عند المدخل إلى محلاته مع عازفيه، الذين كانت أدواتهم الرئيسية: الأبواق، والطبول وأنواع من الكوسات، وكانوا يحدثون جلبة عظيمة بهذه الآلات عند اشراق الشمس وعند غيابها، تجعل من المستحيل على الذين قربها سماع أحدهم حديث الآخر إليه، وكان الصوت يسمع بشكل واضح في جميع أرجاء المعسكر.

ولا يقدم العازفون مطلقاً على استخدام آلاتهم أثناء النهار، إلا بناء على أوامر مقدم الحلقة، ومتى ما رغب السلطان بقيامهم بالعزف كان يرسل هذا المقدم إليهم ويعطي الأمر من خلاله، وعندها كان مقدم الحلقة يعمد إلى اصدار الأمر للعازفين بالعزف، ووقتها يجتمع الجيش كله لسماعهم، فهكذا كانت طبيعة أوامر المقدم، وهي كانت مطاعة بشكل طبيعي.

وإثر ذهاب السلطان إلى حرب ما، كان يقوم بتأجير فرسان الحلقة الذين ميزوا أنفسهم أثناء القتال، ويعينهم قادة لمائتين أو ثلاثمائة من الفرسان، وكانوا كلما برهنوا على المزيد من شجاعتهم، كلما زاد من عدد الفرسان الموضوعين تحت قيادتهم.

وكانت المكافأة الخاصة التي تحفظ لتمييزهم في الخدمة هي كما يلي: عندما يصبحون مشهورين جداً، وأقوياء إلى درجة أن ما من أحد يتجرأ على تحديهم، والسلطان يخشى أن يقتلوه، أو أن يغتصبون محله، كان يأمر باعتقالهم واعدامهم، ومن ثم حرمان زوجاتهم من كل شيء كانوا قد امتلكوه، فعلى هذه الصورة تعامل السلطان مع الذين تولوا أسر كونت دي مونتفورت، وكونت دي بار Bar ، وكذلك تصرف أيضاً البندقداري، وفعل مع الذين هزموا ملك أرمينيا، فقد كان هؤلاء

يتوقعون نيل جائزة ما، ولذلك ترجلوا وذهبوا لتقديم احتراماتهم للبلندقداري أثناء قيامه باصطياد بعض الحيوانات الضارية، وقد ردّ عليهم بقوله: «لا تحية لكم عندي» لأنهم قطعوا عليه صيده، وأمر بقطع رؤوسهم.

ولسوف أستأنف الآن حكايتي كيف أن السلطان المتوفى كان لديه ولدًا (توران شاه) كان حكيماً، ولبقاً وداهية، وخشية من السلطان أن يقوم هذا الشاب بخلعه، أعطاه مملكة امتلكها في الشرق (قلعة كيفا)، وبعد وفاة السلطان بعث الأمراء إلى الابن، الذي ما أن عاد إلى مصر حتى انتزع الصولجان الذهبية من ذوي المراتب من أمراء أبيه، مثل الأتابك، والاسفهلار وناظر الجيش، وأعطاهم إلى رجال قدموا معه من الشرق.

وعندما وجد الأمراء الثلاثة أنفسهم هكذا محرومين من وظائفهم، غضبوا غضباً شديداً، وكذلك فعل بقية الأمراء من مستشاري السلطان المتوفى، وقد شعر الجميع بالإهانة الكبيرة من الحاكم الجديد، واقتنعوا بأن الابن سوف يعاملهم مثلما تعامل الأب مع الذين كانوا قد أسروا كونت دي بار، وكونت مونتفورت، لذلك دخلوا بمباحثات مع جند الحلقة، الذين كان واجبهم كما أخبرتكم، حراسة شخص سيدهم، ونالوا وعداً منهم أنه ما أن يطلب منهم الأمراء قتل السلطان حتى يقوموا بفعل ذلك.

وبعد انقضاء المعركتين اللتين توليت وصفهما مرّ الجيش بحقبة عصبية جداً، فبعد مضي تسعة أيام طفت جثث قتلائنا الذين فتك المسلمون بهم على سطح الماء، ويقال بأن مرد هذا إلى حقيقة تفجر الصفراء، وجاءت هذه الجثث طافية مندفة مع التيار حتى وصلت إلى الجسر الذي كان قائماً بين معسكرينا، ولم تستطع هذه الجثث المرور من تحت الجسر، لأن الماء كان عالياً قد وصل حتى القناطر، وكانت هناك

كثرة كثيرة جداً منهم إلى حد أن النهر امتلأ تماماً بالجثث بالطول وبالعرض من ضفة إلى ضفة أخرى، وكان المجرى مغطى بها مسافة رمي حجر صغير.

واكترى الملك مائة من الرجال القساة الأشداء، وقد احتاج هؤلاء مدة أسبوع حتى تمكنوا من تنظيف النهر، وقد قذفوا بجثث المسلمين عبر الطرف الآخر من الجسر، وقد تعرفوا عليهم من ختانهم، وقد تركوهم ليحملهم التيار، وجرى دفن الصليبيين جميعاً في خنادق عظيمة، وقد رأيت حاجب كونت دي أرتومع عدد كبير آخر من الناس كانوا يبحثون عن أصدقائهم بين الموتى، لكنني لم أسمع أن أيًا منهم قد عُثر عليه هناك.

وكان نوع السمك الوحيد الذي أكلناه طوال الصوم الكبير، هو أفاعي الماء، لأنها كانت مخلوقات شرهة، تتغذى على جثث الأموات، وبسبب هذه الأوضاع السيئة، ونتيجة للمناخ غير الصحي — لأنه لم يهطل في مصر ولا قطرة ماء واحدة — انتشر وباء مروع في جميع أرجاء الجيش، وكان من النوع الذي سبب جفاف جلود أرجلنا، ومن ثم أصبح الجلد مغطى ببقع سوداء، ثم كان يتحول إلى لون التراب مثل لون حذاء قديم، ومع الإصابة بهذا المرض الشديد، عانى الذين تعرضوا من مرض آخر سبب تورم اللثث وإصابتها بالغنغرينا، وما من واحد وقع ضحية لهذه العلة، كان بإمكانه بأن يأمل بالشفاء، لكنه كان متأكداً من الوفاة، وكانت العلامة المؤكدة على اقتراب الوفاة الرعاف من الأنف.

وقام المسلمون بعد مضي أسبوعين بإجراء سبب صدمة هائلة لشعبنا، فمن أجل إجاعتنا حملوا عدداً من غلايينهم التي كانت تطفو فوق سطح الماء قرب معسكرنا، وبعدها سحبوها فوق اليابسة، أعادوا إنزالها إلى النهر، على بعد فرسخ دون المكان الذي كانت خيمنا منصوبة فيه،

وسببت هذه الغلايين حدوث مجاعة بيننا، فبسببهم لم يعد أحد يتجرأ على القدوم عبر النهر من دمياط ليجلب لنا ميرة جديدة وأطعمة، وكنا نحن أنفسنا جاهلين تماماً بهذا، حتى تمكنت سفينة صغيرة، كانت عائدة إلى كونت فلاندرز، من الافادة من التيار، فأفلتت من الحاجز، وأعطتنا أخبار وضع العدو، وأعلمتنا في الوقت نفسه أن غلايين السلطان قد استولت على ما يقارب الثمانين من غلاييننا عندما كانت قادمة عبر النهر من دمياط، وقتلت كل إنسان كان على متونها.

والمحصلة كان هناك ندرة عظيمة وانعدام للمؤن في المعسكر، وبلغ الأمر حداً أنه جرى تقدير ثمن الثور في عيد الفصح بثمانين ديناراً، والشاة الواحدة أو الخنزير بثلاثين ديناراً للرأس الواحد، في حين بلغت قيمة البيضة اثني عشر درهماً، وكان عليك أن تدفع عشرة دنانير مقابل البرميل من النييد.

وعندما أجرى الملك والبارونات استعراضاً للوضع، قرروا وجوب تغيير مكان معسكره الذي كان قائماً على الطرف المتجه إلى القاهرة، ونقله إلى المكان الذي كان دوق بيرغندي معسكراً فيه، وذلك على طول النهر الذي كان يجري نحو دمياط.

ولكي يضمن الملك جمع قواته مع أكبر قدر من السلامة، أمر بتشيد برج أمام الجسر بين المعسكرين، وقد بني وفق طريقة لا يمكن فيها أحد من دخول الجسر على ظهر حصان من أي من الجانبين.

وما أن أصبح هذا البرج جاهزاً، حتى تولى الجند تسليح أنفسهم جميعاً، وانتهم المسلمون هذه الفرصة، وقاموا بهجوم على معسكرنا، ولم يتقدم على كل حال لا الملك ولا جيشه نحو الأمام حتى كانت الأثقال كلها قد نقلت عبر النهر، وبعد هذا جاز هو على رأس رجاله، وتبعه جميع البارونات، وذلك باستثناء غوتير دي شاتليون، الذي كان قائداً

لقوات الساقية، وفي الوقت الذي كانت القوات تدخل فيه إلى البرج للجواز، ذهب إيرارد دي فاليري لإنقاذ أخيه جين، الذي أسره المسلمون وكانوا على نية حمله بعيداً.

وعندما نجز عبور الجزء الأساسي من الجيش، بات الذين بقيوا في البرج عرضة لخطر عظيم، لأن جدرانهم لم تكن عالية جداً، وعلى هذا كان بإمكان الخيالة المسلمين الرمي بشكل مباشر نحوهم، في حين تولى الذين كانوا رجالة رميهم بكدر من التراب على وجوههم مباشرة، وكانوا جميعاً سيموتون لولا قيام كونت دي أنجو بالمضي إلى إنقاذهم، وجلبهم سالمين آمنين، وبين الرجال الذين كانوا في البرج قاتل غيوفري دي موسامبورك **Mussambourc**، بشجاعة فائقة، وريح أعظم أمجاد ذلك اليوم.

وسوف أحدثكم الآن عن حادث غريب كنت أنا شاهد له يوم الثلاثاء المرافع، فقد كانوا في ذلك اليوم يدفنون هوغو دي لاندريكورت **Landricourt**، وكان فارساً يحمل الراية، وكان معي في الجيش، وفيما هو مسجى على نعش في بيعتي، كان هناك ستة من الفرسان، متكئين على بعض الغرارات المليئة بالشعير، ولأنهم كانوا يتحدثون بصوت مرتفع في بيعتي، وكانوا يزعجون الكاهن، ذهبت إليهم وطلبت منهم التزام الصمت، وقلت لهم إنه من غير اللائق بهم كفرسان وسادة التكلم أثناء ترتيب القديس، وشرعوا بالضحك، وأخبروني باستخفاف بأنهم يرتبون الأمور لإعادة زواج زوجة الرجل المتوفى، وتكلمت معهم بحدّة، وبيّنت أن الحديث حول مثل هذه الأشياء لم يكن صحيحاً ولا لائقاً، وأنه يبدو لي أنهم قد نسوا رفيقهم بكل سرعة، ولقد انتقم الرب منهم، ففي اليوم التالي بالذات، وفي أثناء المعركة الكبرى ليوم الثلاثاء المرافع، كانوا جميعاً بين قتيل أو جريح لا يرتجى له شفاء، وبذلك كانت زوجات الستة جميعاً في وضع للزواج ثانية.

ونتيجة للجراحات التي تلقيتها في يوم الثلاثاء المرافع، سقطت ضحية للمرض الذي أصاب الجيش، وقد أثر ذلك على فمي وعلى رجلي، وكنت أيضاً أعاني من حمى ثلاثية مزدوجة، وقد ألمّ برد شديد برأسي حتى أن المخاط قد سال من أنفي، وأرغمت بسبب هذه الأمراض على ملازمة فراشي في منتصف الصوم الكبير، وحدث أن جاء كاهني ليرتل القداس لي إلى جانب فراشي في داخل سرادقي، وكان يعاني مما أعاني أنا نفسي منه من أمراض، وحدث في أثناء الترتيل أن اعترته غيبوبة، وعندما رأته أنه موشك على السقوط، قفزت وأنا عاري القدمين من فراشي، وليس علي سوى قميصي، وأخذته بين ذراعي، وأخبرته أن يعمل بهدوء وأن يتابع الترتيل وقت راحته، لأنني لن أدعه يذهب قبل أن ينهي القداس، واستعاد وعيه، وبعد ما أكمل الترتيل، أنشد القداس حتى النهاية، لكنه لم ينشد قداساً آخر مرة ثانية.

وبعد أمد قصير حدد مستشارو الملك والسلطان يوماً يجتمعون فيه للوصول إلى اتفاق، وكانت الشروط المقترحة هي كمايلي: كان علينا تسليم دمياط إلى السلطان، وأن يقوم هو بالمقابل بتسليم مملكة القدس إلى ملكنا، وبالإضافة إلى ذلك كان على السلطان القيام برعاية المرضى في دمياط، وأن يحفظ اللحوم المملحة في المخازن من أجلانا — بما أن المسلمين لا يأكلون لحم الخنزير — وأن يحتفظ بالآلات العائدة لجيشنا حتى يحين الوقت الذي يكون الملك فيه قادراً على إرسال من يحمل أشياءه إليه.

واستفسر مستشارو السلطان عن الضمانات التي سنعطها لإعادة دمياط إلى سلطانهم، وعرض عليهم رجائنا السماح لهم بالاحتفاظ بواحد من أخوي الملك، أي إما كونت دي أنجو، أو كونت دي بواتيه، بمثابة رهينة حتى توضع دمياط بين يدي السلطان، وقال المسلمون بأنهم لن يعقدوا معاهدة معنا، ما لم يترك الملك لديهم ضماناً، وهنا أبدى

الفارس الطيب غيوفري دي سارجين Sargines دهشته وامتعاضه
وقال بأنه بالحري يفضل أن يقتلهم المسلمون جميعاً، أو يأخذوهم أسرى
على تحمل مسبة ترك الملك رهينة بين أيديهم.

وبدأ المرض الذي أصاب الجيش الآن بالازدياد إلى درجة خطيرة،
وعانى كثير من الناس من تورم اللثث، إلى حد أنه توجب على الحلاقين
الجراثيين القيام بإزالة اللحم المصاب بالغنغرينا، قبل أن يمضغوا
أطعمتهم أو يتلعوها، وكان من المؤلم سماع الصرخات في جميع أرجاء
المعسكر، صرخات الذين كانت لحومهم الميتة تزال، وكانت هذه
الصرخات تشبه صرخات امرأة في المخاض.

الفصل التاسع الفرنسيون في الأسر نيسان ١٢٥٠

وعندما لاحظ الملك، بعد طول لأي، أنه ورجاله يمكنهم البقاء فقط ليموتوا، اتخذ قراره بالمغادرة، وأصدر أوامره إلى الجيش بتقويض المعسكر في أواخر الليل يوم الثلاثاء، وبعد ثامن أيام عيد الفصح، والعودة إلى دمياط، وأرسل يخبر الرجال الذين كانوا مسؤولين عن الغلايين أن يقوموا بجمع المرضى وحملهم إلى المدينة، وأمر كذلك جوسلين دي كورنوت Cornout مع أخوانه والمهندسين الآخرين القيام بقطع الحبال التي تمسك الجسر الذي كان قائماً بيننا وبين المسلمين، وعلى كل حال هم لم يفعلوا شيئاً من هذا القبيل.

وأقلعت في يوم الثلاثاء بعد الظهر، وبعد الغداء، وكان معي اثنين من فرساني هما اللذان بقيا معي وكذلك خدمي، وعند حلول الظلام، أخبرت بحارتي برفع المرساة والابحار نزولاً مجاراة للتيار، غير أنهم قالوا لي بأنهم لا يتجرأون على فعل ذلك، بسبب رجال غلايين السلطان، التي كانت متمركزة بيننا وبين دمياط، فهؤلاء سوف يقتلوننا بكل تأكيد، وأشعل الملاحون الذين شحنوا غلاييننا في الوقت نفسه نيراناً عظيمة للفت انتباه المرضى الذين تدبروا جر أنفسهم إلى ضفة النهر، وعندما كنت أحث بحارتي على الاقلاع والتحرك، دخل المسلمون إلى المعسكر، ورأيت بوساطة ضوء النيران أنهم كانوا يتولون قتل التعساء من الناس على ضفة النهر.

وبينما كان ملاحو سفيتتي يرفعون المرساة، قطع البحارة الذين كان واجبهم جمع المرضى، حبال مراسيهم، والحبال التي ربطت غلايينهم،

وجاءوا إلى محاذة سفيتتنا الصغيرة، واحتشدوا بكثافة من حولها وبمحاذاتنا من كل جانب حتى كادوا أن يغرقوننا، وبعدهما نجونا من ذلك الخطر، وكنا نازلين نساير التيار، كان بإمكان الملك الذي كان يعاني من المرض الذي أصاب الجيش، ومن إسهال شديد أيضاً، أن يمضي بسهولة وبتعد بوساطة الغلايين، لكنه قال بأنه لن يتخلى مطلقاً عن شعبه مرضاة للرب، وقد أغمي عليه في تلك الليلة عدة مرات، وبسبب الاسهال الشديد الذي عانى منه، وأرغمه على التردد على الكنيف بشكل متواصل، اضطروا إلى قطع الجزء الأسفل من سراويله.

وصرخ إلينا الرجال الذين كانوا على الضفة، عندما شرعنا نزل مسافرين لتيار النهر، وأخبرونا بوجود انتظار الملك، وعندما لم نتوقف لانتظاره شرعوا يرمون علينا بنشاهم من قسيهم العقارة، ولذلك اضطررنا إلى التوقف، حتى سمحوا لنا بالذهاب.

ولسوف أقطع حديثي هنا لأخبركم كيف وقع الملك بالأسر، وذلك حسبما روى لي ذلك شخصياً، فقد أخبرني بأنه ترك فرقته الخاصة، وذهب مع غيوفري دي سارجين، ليضع نفسه في الفرقة التي كانت تحت قيادة غوتير دي شاتليون، الذي كان يتولى قيادة قوات الساقية، وقال بأنه شخصياً كان يمتطي على ظهر مهر صغير، وعليه برذعة من الحرير، وأخبرني أيضاً أنه لم يبق معه من فرسانه وسيرجنديته سوى غيوفري دي سارجين، وقد أخذني إلى قرية صغيرة، كانت في الحقيقة هي القرية التي أسر فيها أخيراً، وأخبرني الملك في الرواية التي قصها عليّ حول هذه الحادثة، أن غيوفري دي سارجين قد دافع عنه ضد المسلمين دفاعاً بطولياً، مثلما يدافع الخادم المخلص الذباب عن كأس مولاه، ففي كل مرة حاول المسلمون الاقتراب منه، كان يأخذ رمح الذي كان قد وضعه بينه شخصياً وبين قوس سرجه، ويضعه على كتفه ويحمل عليهم، ويتولى طردهم عن الملك.

وبهذه الطريقة جلب الملك سلباً إلى القرية الصغيرة، حيث حمل إلى بيت ومدد فيه، وهو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، ووضعوه في حجر امرأة، صدف أنها كانت أصلاً من أهالي باريس، وساد الاعتقاد آنذاك أنه لن يظل حياً حتى المساء، وجاء إليه إلى هناك فيليب دي مونتفورت وأخبره بأنه قد رأى الأمير الذي تباحث معه حول قضية الهدنة، وإذا كان جلالته يرضى، فهو سيذهب إلى هذا الرجل ويجدد المباحثات حول شروط للهدنة ستكون مرضية للمسلمين، وتوسل الملك إليه بأن يذهب، وأضاف بأنه راغب في إنجاز ذلك كل الرغبة.

وبناء عليه عاد فيليب دي مونتفورت إلى المسلم، وقام هذا بخلع عمامته عن رأسه، وانتزع خاتمه من إصبعه دليلاً على أنه سوف يلتزم باخلاص بشروط الهدنة.

وحدث في الوقت نفسه حادث شؤم سبب كارثة لشعبنا، فقد قام سيرجندي خائن منا اسمه مارسل Marcel ، وشرع يصرخ في الجيش ويقول لأفراده: «استسلموا أيها الفرسان، لأن الملك قد أمر بذلك، ولا تكونوا سبباً في قتله!» وقد اعتقد كل إنسان بأن الملك قد أصدر بالفعل هذه الأوامر، وهكذا سلموا سيوفهم إلى المسلمين، ولدى رؤية الأمير بأن المسلمين يقومون بجلب رجالنا بمثابة أسرى، أخبر فيليب دي مونتفورت بأنه قد تحلل من شروط منح الهدنة والحفاظ عليها، بما أنه من الواضح أمام مرأى العين أن رجالنا باتوا في الأسر.

وهكذا سارت الأمور، ووقع جميع رجالنا بالأسر، إنها بما أن فيليب دي مونتفورت كان رسولاً، لم يعان من المصير نفسه، وكان هناك على كل حال عادة سيئة بين المسلمين، هي أنه إذا ما بعث الملك رسلاً إلى سلطان، أو أرسل سلطان إلى ملك، وحدث ومات واحد من هذه الملكين قبل عودة الرسل، آنذاك كان يجري اعتقال هؤلاء الرسل واسترقاقهم، بصرف النظر عن المكان الذي جاءوا منه وسواء أكانوا

مسيحيين أم مسلمين.

وفي الوقت الذي عانى فيه بعض من شعبنا من سوء المصير حيث سيقوا أسرى وهم على اليابسة، واجهت أنا ورجالي - حسبنا ساقص عليكم بعد قليل - سوء المنقلب نفسه على سطح الماء، فقد كانت الريح تهب من اتجاه دمياط، وهكذا حرمتنا من الإفادة من المنافع التي كان يمكن للتيار أن يقدمها لنا، فضلاً عن هذا كان الفرسان الذين وضعهم الملك في المراكب الخفيفة للدفاع عن المرضى قد هربوا، وهكذا لم يكن بمقدور بحارتنا التحرك نحو الأمام مع مجرى تيار الماء، فدخلوا إلى أحد الخلجان، وأرغمنا بعد هذا على النكوص عائدين نحو خطوط المسلمين.

وبينما كنا نسير وفق اتجاه التيار، وصلنا قبيل بزوغ الفجر بوقت قصير، إلى مجاز للنهر، حيث وقفت غلايين السلطان، التي تولت منع ورود الميرة من دمياط، وكانت جميع هذه الغلايين مصفوفة معبأة، وكان هناك فوضى عظيمة وجلبة كبيرة، لأن المسلمين توجهوا برماياتهم نحونا ونحو رجالنا الذين كانوا على ظهور الخيول الواقفين على الشاطئ، بالنشاب الكثيف المشبع بالنار الإغريقية، حتى بدا الأمر وكأن النجوم كانت تتساقط من السماء.

وبعدما أخرجنا ملاحونا خارج نطاق الخليج الذي كانوا قد أخذونا إليه، رأينا السفن الصغيرة التي كان الملك قد أعطانا إياها لإيواء مرضانا، تسابق الريح باتجاه دمياط، ثم بدأت الريح تهب من جهة الشمال بشدة متناهية، حتى أنه على الرغم من التيار، لم نستطع التقدم نحو الأمام.

وكان هناك على طول ضفتي النهر عدد من القوارب الصغيرة، تعود، إلى أناس من قومنا لم يستطيعوا النزول إلى الماء ومجاراة التيار، ونتيجة

لذلك توقفوا وأسروا من قبل المسلمين، وكان هؤلاء الأشقياء يتولون قتل رجالنا ورمي أجسادهم في الماء، ويجرون الصناديق والأمتعة إلى خارج المراكب التي استولوا عليها، وأطلق الخيالة المسلمون الذين كانوا على الشاطيء النشاب علينا بسبب أننا رفضنا الذهاب إليهم، وأعطاني رجالي درعاً واقياً لأرتديه، حتى أحول دون الإصابة بالجراحة بوساطة النشاب الذي استمر بالسقوط علينا في القارب.

وفجأة صرخ رجالي - الذين كانوا يقفون في الخلف - لي يقولون: مولاي، مولاي، إن بحارتك سوف يأخذوك إلى الشاطيء، لخوفهم من تهديد المسلمين، وهنا وجدت من ساعدني على الوقوف مستنداً على ذراعي، ومع أنني كنت ضعيفاً جداً، جردت سيفي على البحارة، وأخبرتهم أنني سوف أقتلهم لو أنهم أخذوني إلى اليابسة، وأخبروني أنني ينبغي أن أعمل اختياري: إما بالأخذ إلى الشاطيء، أو الرسو في وسط النهر والوقوف حتى تتوقف حركة الريح، وأخبرتهم أنني أفضل الرسو في وسط النهر على أن أحمل إلى الشاطيء، حيث ليس أمامنا غير خيار واحد هو الموت، وبناء عليه توقفوا ورسوا.

وبعد ذلك بقليل رأينا أربعة من غلايين السلطان قادمة نحونا، وعلى ظهورهم ألف رجل، وبناء عليه دعوت فرساني وبقية رجالي للاجتماع معاً، وسألتهم ما الذي يفضلون: الاستسلام إلى غلايين السلطان، أم إلى المسلمين الواقفين على الشاطيء، واتفقنا على تفضيل الاستسلام إلى غلايين السلطان، لأن تلك كانت هي الوسيلة التي تمكننا من البقاء مع بعضنا بعضاً، وذلك بدلاً من الاستسلام إلى الذين على الشاطيء، الذين سوف يفرقون فيما بيننا، ومن ثم يبيعوننا إلى البداة.

ثم قال لي واحد من أتباعي، وكان هو من مواليد دوليفانت - Dou-levant: «لا يمكنني يا مولاي الموافقة على هذا القرار»، فسألته: ما الذي يمكن أن يوافق أن علي القيام به؟ فأجاب: «إن الذي أراه وأنصح

به هو أن ندع أنفسنا نقتل، لأننا بذلك سوف نذهب إلى الجنة»، لكن ما من أحد أصغى إلى نصيحته.

والآن وقد أدركت أن علينا الاستسلام لنؤخذ أسرى، انتزعت صندوقي وجوهراي ورميتهم في النهر مع الآثار المقدسة التي كانت لدي، ثم قال لي واحد من بحارتي: «مولاي ما لم تسمح وتأذن لي بأن أقول بأنك ابن عم الملك، سوف يقتلون كل واحد منا، معك شخصياً»، فأجبت به بأنني موافق على كل ما سيقوله.

وما أن سمع رجال الغليون الأول، الذي كان قادماً نحونا ليقوم بصدمننا في وسط السفينة، الذي أعلنه هذا الرجل، حتى ألقوا مراسيهم على محاذة مركبنا، وفي هذه الساعة بعث الرب لي مسلماً كان من بلاد امبراطور ألمانيا، وقد قدم سباحة عبر النهر، وكان يرتدي سراويل من الكتان المانع لتسرب المياه، وصعد إلى ظهر سفينتنا، واحتضنني من وسطي وقال لي: «إنك ما لم تتصرف بسرعة وبشجاعة لسوف تقتل، والذي عليك القيام به هو أن تقفز من سفينتك إلى القيدوم المعلق فوق عارضة هذا الغليون، وإذا فعلت هذا ما من أحد سوف ينتبه إليك، لأنهم الآن مشغولون بالأسلاب التي يمكنهم الحصول عليها من سفينتك»، ورمى لي أحدهم حبلًا من الغليون، وبعون الرب قفزت إلى القيدوم، وبها أنني كنت غير متوازن وغير قادر على الوقوف على قدمي، ولولا أن المسلم قفز خلفي، وأمسكني، لسقطت في قلب الماء.

وسحبت إلى داخل الغليون حيث كان هناك مائتين وثمانين من الأعداء، وتابع في أثناء ذلك المسلم في وضع ذراعيه من حولي، ثم أنهم ألقوني أرضاً، وألقوا بأنفسهم فوق جسمي ليقوموا بذبحي وقطع رقبتني، لأن كل واحد منهم كان يعتقد أنه بقتله لي سوف ينال شرفاً بذلك، غير أن المسلم ما انفك يمسكني بذراعيه وصرخ: «إنه ابن عم الملك»، ومع هذا كان ذلك بلا فائدة، فقد ألقوا بي مرتين إلى الأرض،

وأرغموني مرة على الركوع على ركبتي، وعند ذلك شعرت بالسكين عند بلعومي، لكن الرب أنقذني في هذه المحنة بعون المسلم، الذي قادني إلى واحد من أبراج السفينة، حيث كان فرسان المسلمين مجتمعين.

وما أن قابلتهم حتى انتزعوا درعي، ثم إنهم عطفوا علي فرموا إلي لحافاً قرمزيّاً من لحفي كان مبطناً بفراء أبيض، كانت أمي العزيزة قد أعطتني إياه، وجلب أحدهم إلي حزاماً من الجلد الأبيض، فتمنقت به فوق اللحاف، وذلك بعد عمل فتحه في هذا اللحاف، من أجل أن أستعمله بمشابة جلاب، وجلب إليّ إنسان آخر قلنسوة وضعتها فوق رأسي، ثم إنه بسبب حالة الرعب التي كنت فيها، وكذلك بسبب مرضي الذي أضربني، أخذتني قشعريرة مرعبة واصطكت أسناني، ولهذا طلبت ما أشربه، وقد جلبوا بعض الماء في جرة، لكنني ما كدت أرفع الجرة إلى فمي حتى أخذ الماء يسيل من أنفي.

وعندما رأيت هذا يحدث، أرسلت خلف رجالي وأخبرتهم بأنني رجل يحتضر، بسبب الدمامل التي كانت في فمي، وسألوني كيف عرفت ذلك، فأريتهم إياها، وما أن شاهدوا الماء ينقذ من حلقي ومن أنفي، حتى شرعوا بالبكاء، وعندما رأى فرسان المسلمين الدموع تنهمر من أعين رجالي، سألوا الرجل الذي تولى إنقاذي: لماذا هؤلاء الرجال يبكون؟ فأجابهم بأنه عرف بوجود دمامل في حلقي، وأنه لا أمل لي بالشفاء، ثم قام واحد من الفرسان المسلمين بإخبار الرجل الذي أنقذنا بأن علينا الاطمئنان، ذلك أنه سوف يعطيني شيئاً لأشربه، وأنه سيسفينني خلال يومين، ويمكنني القول بأن هذا ما كان حسبها فعل.

وكان راؤول دي وانو، الذي كان واحداً من أتباعي، قد أقعد خلال المعركة الكبرى التي وقعت يوم ثلاثاء المرافع، ولم يكن بإمكانه الوقوف على قدمية، وبودي إعلامكم أن فارساً عجوزاً مسلماً كان في الغليون، اعتاد على أن يحمل على الظهر والكتفين إلى المرحاض عندما كان يحتاج

إلى ذلك.

وبعث إليّ القائد العام للغلايين، وسألني فيما إذا كنت بالفعل ابن عم الملك، فأجبتة: «لا»، وأخبرته كيف ولماذا قال الملاحون بأنني كذلك، وأعلمني هذا القائد بأنني تصرفت بشكل حكيم، لأنني لو تصرفت بشكل مغاير، لتعرضنا جميعاً للموت، وسأل فيما إذا كانت هناك أية قرابة لي مع الامبراطور فردريك امبراطور ألمانيا، وأجبتة أنني أعتقد مؤكداً أن سيدتي الوالدة هي ابنة عمه، وبناء عليه عقب القائد بأنه قد أحبني أكثر لهذا السبب.

وبينما كنا نتناول الطعام، استدعى رجلاً أصله من باريس ليقف أمامنا، وعندما وصل هذا الإنسان قال لي: «مولاي ما الذي تصنعه؟» فقلت: «لماذا، ما الذي يمكن أن أقوم به؟» فأجابني: «باسم الرب، إنك تأكل لحمًا في يوم جمعة»، وما أن سمعت هذا حتى وضعت الطشت خلفي، وسأل القائد المسلم لماذا تصرفت هكذا، فأخبره، فقال: إن الرب سوف لن ينظر إلى ما قمت به على أنه ذنب قد اقترفته، بسبب أنني لم أنتبه أنني كنت أقترف ذنباً.

ويمكنني أن أخبركم بأن الجواب نفسه قد أعطي لي من قبل النائب البابوي، بعدما أطلق سراحنا من الأسر، ومع هذا لم أتوقف عن الصوم على الخبز والماء كل يوم جمعة في الصوم الكبير منذ ذلك الحين فصاعداً، وجعل هذا النائب البابوي يغضب كثيراً مني، لأنني الرجل الوحيد من ذوي المراتب العليا ممن بقي مع الملك.

وفي يوم الأحد التالي، نقلت والآخرين، بناء على أوامر الأمير، بمشابة أسرى، ونزلنا على ضفة النهر، وعندما كانوا يأخذون، جين، قسيبي الطيب، من قاع الغليون، وقع مغشياً عليه، فقتله المسلمون وألقوا بجسده في النهر، وأيضاً وقع كاهنه مغشياً عليه نتيجة للمرض الذي

اعترت حمّاه الجيش، فتلقى ضربة قاتلة على رأسه، وبذلك قتلوه أيضاً، وألقوا جسده في الماء.

وفي الوقت الذي جرى فيه إنزال المرضى من الغليون الذين كانوا مسجونين فيه، كان هناك مسلمون يقفون جانباً وسيوفهم مسلولة، وهم جاهزون للتعامل مع الذين يقعون كما تعاملوا مع قيسيبي، وبعثت إليهم بمسلمي ليخبرهم أن هذا — كما أعتقد — ذنباً عظيماً لا يجوز اقترافه، وهو مضاد لتعاليم صلاح الدين، الذي قال: ينبغي عليك ألا تقتل أبداً إنساناً شاركك مرة الخبز والملح، فأجاب القائد بأن المقتولين موضوع البحث لاقيمة لهما، بسبب المرض الذي كانا يعانيان منه، فقد تركهما هذا المرض عاجزين عن القيام بأي عمل مفيد لهما.

وجلب بعد هذا وأحضر أمامي جميع بحارتي، وأخبرني بأن كل واحد منهم قد تخلى عن عقيدته، فحذرته من وضع ثقته بهم، فمثلما تخلوا بكل سرعة عنا، سوف يتخلون عنه، عندما يجدون إما الوقت أو الفرصة لفعل ذلك، وأجابني القائد بأنه يتفق معي، لأن صلاح الدين اعتاد أن يقول، بأنه لم يرق قط مسيحياً سيئاً قد صار مسلماً صالحاً، وكذلك لم يرق أبداً مسلماً سيئاً قد صار مسيحياً جيداً.

وجعلني بعد هذا بوقت قصير أمتطي ظهر حصان، وأن أسير إلى جانبه، ولقد عبرنا فوق جسر من القوارب وذهبنا إلى المنصورة، حيث كان الملك ورجاله في الأسر، ووصلنا إلى مدخل سرادق كبير كان فيه كتاب السلطان، ودونوا هناك اسمي، وعند هذه النقطة أخبرني مرافقي قائلاً: «مولاي، لن أستطيع المضي معك أبعد فهذا غير ممكن بالنسبة لي، لكن اسمح لي أن أتوسل إليك يا مولاي أن تظل ممسكاً بيدك بالطفل الذي هو معك، خشية أن يأخذه المسلمون، وكان الطفل الذي أشار إليه يدعى بارثلمي، وكان ابناً طبيعياً لصاحب مونتفوكون Mont-faucon .

وبعدما جرى تدوين اسمي أخذني القائد إلى سرادق آخر، حيث جرى حشد البارونات مع مايزيد على عشرة آلاف رجل آخر، وما أن دخلت حتى عبر البارونات عن فرحتهم بشكل مرتفع إلى حد صعب فيه على أحدهم سماع كلام الآخر، وقدموا الشكر للرب لحفظه لي، وقالوا بأنهم اعتقدوا أنني قد فقدت.

ولم يطل بنا المقام هناك قبل أن يأمر المسلمون الأعيان بيننا بالنهوض، ونقلونا إلى سرادق آخر، وبقي كثير من الفرسان مع أناس آخرين داخل ساحة مسورة بجدران من الطين، وكانت عادة أعدائنا أخذهم من هناك واحداً واحداً، حيث كانوا يسألون أحدهم: «هل أنت على استعداد للتخلي عن إيمانك»؟، وكان الذين يرفضون يوضعون جانباً، حيث جرى إعدامهم، أما الذين وافقوا فقد احتفظوا بهم في الجانب الآخر.

وفي هذه الساعة بعث السلطان مستشاريه للحديث معنا، فسألونا إلى من سيؤدون رسالة مولاهم، فأخبرناهم بأن يتوجهوا بالخطاب نحو الكونت الطيب بيير دي بريتاني، وكان معهم بعض من الناس يعرفون بالترجمة، أي أنهم كانوا أناساً عرفوا لغتنا وكذلك لغتهم، وتولى هؤلاء ترجمة رسالة السلطان إلى الفرنسية لصالح الكونت بيير.

وكان الذي جرى في هذه المقابلة كما يلي: فقد قال المسلمون: «مولاي، بعثنا السلطان إليكم لنسأل فيما إذا كنتم ترغبون في إطلاق سراحكم»؟ وأجابهم الكونت في التأكيد على الرغبة بذلك، فسألوه إثر ذلك: «ما الذي سوف تعطونه إلى السلطان مقابل الحصول على حريتكم»؟ فأجابهم الكونت بقوله: «كل ما نستطيعه، ما دام الأمر في حدود المعقول» فقالوا: «هل ستعطوننا أيّاً من القلاع العائدة للبارونات من بلاد ما وراء البحر»؟ وأجابهم الكونت بأنه لا يملك القدرة على تسليم أيّاً من هذه القلاع، لأنها ممنوحة من قبل الامبراطور الحاكم في ألمانيا، ثم سألوه عما إذا كنا على استعداد أن نسلم مقابل الحصول على حريتنا أيّاً

من القلاع العائدة إلى الداوية أو الاستتارية، فأجابهم الكونت بأن هذا من غير الممكن القيام به، لأن شحن هذه القلاع، أقسموا — لدى تسلمهم لمناصبهم — على الأناجيل المقدسة أنهم سوف لن يسلموا أيّاً من هذه القلاع مقابل الحصول على حرية أي إنسان أو إطلاق سراحه من الأسر، وعلق عند ذلك هؤلاء المستشارون بقولهم: يبدو لنا بأنكم ليست لديكم رغبة في إطلاق سراحكم، وأخبرونا بأنهم سوف يرسلون إلينا رجالاً سوف يتدربون بسيوفهم بنا، مثلما فعلوا بآخرين من جيشنا، ثم إنهم ذهبوا.

وما أن انصرفوا حتى اندفع حشد كبير من شباب المسلمين، وسيوفهم معلقة على أجنابهم، إلى داخل سرادقنا، وجلبوا معهم رجلاً متقدماً بالسن، حيث كان شعره أبيض مثل الثلج، وقد سألنا عما إذا كنا نؤمن بالرب الذي اعتقل من أجلنا، وجرح وأميت في سبيلنا، وأنه قام مجدداً في اليوم الثالث؟ فأخبرناه بأن هذا كان كذلك، ثم إنه أخبرنا بأنه ينبغي علينا عدم الخوف إذا ما عانينا من هذا العذاب والشقاء من أجله، وقال: «لأنكم لم تموتوا بعد من أجله، مثلما مات من أجلكم، وإذا كان قد امتلك القدرة على العودة إلى الحياة، عليكم الاطمئنان بأنه سوف ينقذكم، عندما يشاء أن يفعل ذلك».

ثم إنه ذهب مغادراً، ومعه جميع الفتيان المسلمين، ومن جانبي كنت مسروراً جداً تجاه هذا الذي حصل، لأنني كنت اعتقدت بشكل مؤكد تماماً بأنهم قد جاءوا لقطع رؤوسنا، ولم يمض وقت طويل بعد هذا عندما جاء رجال السلطان ليخبرونا بأن ملكنا قد عقد اتفاقيات مع سيدهم من أجل إطلاق سراحنا.

وحدث هذا بعد وقت قصير من مغادرة الرجل العجوز الذي تفوه بتلك الكلمات التي واسانا فيها، وعاد مستشارو السلطان لإخبارنا بأن الملك قد ابتاع لنا إطلاق سراحنا، وأن علينا إرسال أربعة من مجموعتنا

لسماع كيف صنع ذلك، فبعثنا جين دي فاليري الطيب، وفيليب دي مونتفورت، وبلدوين دي إيبيلين نائب قبرص، وغي دي إيبيلين قسطلان الجزيرة نفسها، وكان واحداً من أعظم الفرسان كما لا ممن رأيتهم قط وعرفته، وكان من أعظم الناس حباً لأهل الجزيرة الذين كانوا تحت رعايته وقيادته، وجلب هؤلاء الأربعة إلينا رواية بينت كيف تمكن الملك من الحصول على إطلاق سراحنا من الأسر.

الفصل العاشر

مباحثات مع المسلمين

نيسان — أيار ١٢٥٠

اتبع مستشارو السلطان الطريقة نفسها باتصالاتهم التجريبية بالملك، مثلما فعلوا معنا وفي حالتنا، وذلك من أجل معرفة، أو اكتشاف، فيما إذا كان هو نفسه على استعداد لأن يعد بتسليمهم أيّاً من القلاع التي كانت بأيدي الداوية أو الاسبتارية، أو أيّاً من القلاع التي كانت بأيدي بارونات البلاد، وبمشيئة الرب جاء جواب الملك مماثلاً تماماً لجوابنا، ونتيجة لهذا هدده المسلمون، وقالوا إنه إذا لم يستجب لرغباتهم سوف يضعونه في آلة الفلق Barnacle، التي مثلت أصعب أشكال التعذيب التي يمكن لأي إنسان أن يعاني منها.

وصنعت هذه الآلة من عارضتين خشبيتين ملتويتين، تتشابك أطرافها بأسنان متداخلة، وتربطان في النهايتين بقطع من جلد الثور القوي، وعندما كان المسلمون يريدون إخضاع أي إنسان لهذا العذاب، كانوا يمددونه على الأرض على جنبه، ويضعون رجليه بين الأسنان، ثم يطلبون من إنسان أن يجلس على رأس هذه الآلة، وتكون النتيجة عدم بقاء نصف قدم من العظم غير مهروس، زيادة على هذا — ولكي يفعلوا الأسوأ مما يمكنهم، عندما تصبح الأرجل متورمة بعد مضي ثلاثة أيام، كانوا يضعون الأطراف المتورمة ثانية في الآلة، ويقومون بسحق العظام من جديد.

ورداً على هذه التهديدات، أجابهم الملك بأنه كان أسيرهم، وبإمكانهم أن يفعلوا معه كما يرغبون.

وعندما رأى المسلمون أنهم لا يستطيعون التغلب على ملكنا الجيد بوساطة التهديد، عادوا إليه وسألوه كم من المال هو على استعداد لدفعه إلى السلطان، وفيما إذا سيسلمه دمياط أيضاً، وأجابهم الملك: إذا كان السلطان على استعداد لقبول مبلغ معقول هو سوف يرسل إلى الملكة وينصحها بدفع ذلك. المبلغ فدية لهم، وسألوه: «كيف لا نخبرنا بالتأكيد فيما إذا كنت ستفعل ذلك وتنفذه؟» وأجابهم الملك بأنه لا يعرف فيما إذا كانت الملكة ستوافق أم لا، وصحيح أنها زوجته، ولكنها هي سيدة أفعالها.

وبناء عليه ذهب المستشارون للتداول مع السلطان، وعادوا في وقت متأخر لإخبار الملك أنه إذا كانت الملكة على استعداد لدفع ألف ألف بيزنطة ذهبية، أي ما يعادل خمسمائة ألف ليرة ذهبية بنقودنا، فإن سيدهم سوف يطلق سراحه.

وبناء عليه سأهم الملك أن يحلفوا له أن الملكة إذا وافقت على دفع هذا المبلغ إلى السلطان، سيقوم السلطان بالفعل بإطلاق سراحه وسراح أتباعه، وتوجه المستشارون عائدتين ثانية للتشاور مع السلطان ولزبد من الحديث معه، ولدى عودتهم أقسموا بشكل مهيب إلى الملك، بأن سيدهم سوف يطلق سراحه بناء على هذه الشروط.

والآن بعدما أعطى الأمراء عهدهم وأقسموا عليه، قام الملك بدوره بالتأكيد لهم بأنه سوف يدفع عن طيب خاطر الخمسمائة ألف ليرة ذهبية من أجل إطلاق سراح أتباعه، وسوف يسلم دمياط لإطلاق سراح نفسه، لأنه من غير اللائق بالنسبة لإنسان من مثل مقامه العالي الإقدام على شراء حرته بالمال، وعندما نقل هذا الكلام إلى السلطان تعجب وقال: «والله، إن هذا الفرنسي رجل كريم الطباع، لأنه لم يساوم على دفع مبلغ كبير كهذا، ولهذا أذهبوا وأخبروه بأنني قد أعفيتهم من دفع مبلغ مائة ألف ليرة ذهبية من مبلغ الفدية».

وأصدر السلطان أوامره بحمل أعيان الرجال بيننا على ظهر أربعة غلايين، وأخذهم نحو دمياط، ووجد في الغليون الذي وجدت فيه، بالإضافة إليّ: صاحب المقام الكونت بيير دي بريتاني، والكونت وليم دي فلاندرز، وكونت جين دي سواسون الجيد، ومولاي اللورد إمبرت دي بيجو، القسطلان الأعلى لفرنسا، والفارس الجيد بلدوين دي إيبيلين مع أخيه غي.

ووجه الذين كانوا معنا في الغليون مركبنا للرسو أمام معسكر أقامه السلطان على طرف النهر، وكان مقاماً حسب الخطة التالية: كان يوجد في الأمام مباشرة برج صنع من أعمدة من خشب الشربين، وكان مكسواً بقماش القنب المصبوغ، وقد استخدم هذا بمثابة المدخل الرئيسي إلى المعسكر، وكان خلف هذا سرادق ترك فيه الأمراء سيوفهم وسلاحهم عندما ذهبوا للحديث مع السلطان، وجاء خلف هذا مباشرة برج آخر مثل البرج الأول تماماً، شكل دهليزاً إلى سرادق كبير جداً، وكان هو القاعة السلطانية، وتلاه برج آخر مماثل في سماته للبرجين الآخرين، وقد قاد إلى محلات السلطان الخاصة.

ومجاور لهؤلاء كانت هناك ساحة قام في وسطها برج، كان أعلى من الأبراج الأخرى، كان يمضي إليه السلطان كلما رغب بتفحص المنطقة المحيطة بالمعسكر، أو كلما أراد معرفة الذي يجري في داخل المعسكر.

وخرج من هذه الساحة عمر انتهى إلى النهر، حيث أقام السلطان خيمة كبيرة امتدت فوق الماء، وقد استخدمها مكاناً للاستحمام.

وكان هذا المعسكر كله محاطاً بسور من التكعيبات الخشبية، وكان الطرف الخارجي منه مغطى بقماش من القنب الأزرق — مثل الذي في الحقيقة استخدم في الأبراج — وبذلك كان من الممكن للذين هم خارج المعسكر رؤية ما فيه.

وكان قد وصلنا إلى هذا المكان الذي أقيم فيه المعسكر، يوم الخميس، قبل أسبوع كامل تماماً من حلول يوم عيد الصعود، وألقت المراكب الأربعة التي كنا فيها مسجونين جميعاً، مراسيها أمام محلات السلطان، وأخذ الملك إلى سرادق مجاور، ورتب السلطان الأمور على أساس أن تسلم دمياط إليه في يوم السبت قبل يوم عيد الصعود، وكان سيقوم في اليوم نفسه بإطلاق سراح الملك.

وقرر الأمراء الذين فصلهم السلطان من مجلس مستشاريه، ليعين محلهم أناساً كان قد جلبهم معه من مناطق أجنبية، عقد اجتماع، وقام مسلم داهية بالتوجه إليهم بالخطاب، وقال: «تعرفون ياسادتي كيف أهاننا السلطان وجللنا بالعار، بانتزاعه منا المناصب العالية التي كنا قد عينا فيها من قبل أبيه، وبناء عليه كونوا متأكدين أنه ما أن يستقر في مدينة دمياط الحصينة، حتى سيقوم باعتقالنا، ومن ثم إرسالنا لنموت في السجن، مثلما فعل جده مع الذين أسروا كونت دي بار، وكونت دي مونتفورت، وبناء عليه يبدو أن الأفضل بالنسبة لنا هو أن نقوم بقتله قبل أن ينجو من أيدينا».

وبناء عليه ذهب هؤلاء الأمراء إلى حرس السلطان الشخصي من جند الحلقة، وطلبوا من هؤلاء الرجال قتل السلطان فور الانتهاء من السماط الذي كانوا هم أنفسهم مدعويين إليه، وهكذا حدث أنه بعد الفراغ من تناول الطعام، وقيام السلطان بوداع أمرائه، وبينما هو مشرف على الدخول إلى سرادقه، قام واحد من فرسان الحرس الشخصي للسلطان، وهو الذي كان يحمل سيف السلطان، بتسديد ضربة بالسيف نفسه إلى منتصف يد مولاه، مباشرة بين أصابعه الأربعة، ففصمها عن الذراع، وهنا التففت السلطان نحو الأمراء الذين حرضوا على هذا العمل، وقال: «أنقذوني، ياسادتي، من حرسِي الشخصي، فأنتم ترون أنهم عازمون على قتلي»، وبناء عليه صرخ رجال الحرس هؤلاء بصوت

واحد: «نعم كما تقول نحن نرغب بقتلك، لأن ذلك خير لنا أن نفعله بدلاً من أن ندع أنفسنا أن نقتل من قبلك».

ثم أعطيت الشارة لقارعي الطبول بقرعها، واحتشد جميع جيش السلطان لمعرفة ما هي الأوامر، فأخبرهم الأمراء بأن دمياط قد أخذت، وأن السلطان ذاهب إلى هناك، وهو يأمرهم باللحاق به، وهكذا حملت العساكر أسلحتها وهمزت خيولها باتجاه دمياط، وعندما رأيناهم ذاهبين باتجاه المدينة، شعرنا بغم شديد في قلوبنا، لأننا اعتقدنا بأنها سقطت بأيدي الأعداء.

وفي الوقت نفسه هرب السلطان الذي كان شاباً فتياً، مع ثلاثة من الأئمة كانوا يتناولون الطعام معه، وصعد إلى أعلى البرج العالي الذي كان قد شيده. والذي كنت قد حدثتكم عنه، وأنه كان موجوداً إلى الخلف مباشرة من محلاته الخاصة.

وكان تعداد حرسه الشخصي خمسمائة من الخيالة، وقد قاموا بتقويض سرادقاته، واحتشدوا حول البرج الذي التجأ إليه هو وأئمته، وصرخوا له لكي ينزل، فقال إنه سيفعل ذلك شريطة أن يضمنوا له حياته وسلامته، فأخبروه أنهم سوف يرغمونه على النزول، وذكروه أنه ليس في دمياط، وقاموا بعد هذا برمي البرج بالنفوط، وكان البرج كما تعلمون مصنوعاً من ألواح خشب الصنوبر والقنب، فاشتعل على الفور، والتهم بسرعة، وأنا لم أر قط بحياتي لهباً أقوى وأجمل وأكثر فاعلية من هذا اللهب.

وما أن رأى السلطان النار تستبد بالبرج حتى بادر بالنزول منه مسرعاً وسعى يركض طيراناً نحو النهر، وذلك على طول الممر الذي ذكرته لكم من قبل، وكان حرسه الشخصي قد أغلقوا وسكروا جميع المنافذ بسيوفهم، وبينما كان السلطان يركض نحو الماء، سدد نحوه واحد

من هؤلاء الرجال طعنة رمح خرقت أضلعه، وتابع فراره وهو يجر جر الرمح من الجرح، ولاحقه مطاردوه، حتى أنهم فعلوا ذلك سباحة، وأخيراً أخذوه وقتلوه في النهر، بعيداً عن المكان الذي وقف فيه غليوننا، وقام واحد من الفرسان، واسمه فارس الدين أقطاي، بشطره بسيفه، واستخرج قلبه من جسده، ثم جاء وهو بيده تتقاطر منه الدماء إلى ملكنا وقال: «ما الذي سوف تعطيني إياه، وقد قتلت عدوك الآن، لأنه لو عاش لكان من المؤكد أنه سيقدم على قتلك»، ولم يجبه الملك ولا بكلمة.

وصعد الآن على ظهر سفينتنا ثلاثون رجلاً من المسلمين، وسيوفهم مشهورة في أيديهم، وعلقوا في أعناقهم الفؤوس الدانماركية، وسألت بلديون دي إيبيلين، الذي كان يعرف لغتهم معرفة جيدة، ما الذي يقوله هؤلاء الناس، فأخبرني بأنهم كانوا يقولون بأنهم جاءوا لقطع رؤوسنا، وعلى هذا احتشد عدد كبير من الناس للاعتراف بذنوبهم إلى راهب من الثالوث المقدس، اسمه جين، وكان في خدمة الكونت وليم دي فلاندرز، ومن جهتي أنا، لم أستطع تذكر أية ذنوب اقترفتها، وأمضيت الوقت أفكر أنني كلما حاولت الدفاع عن نفسي، أو الخروج من هذه المحنة، كلما ازدادت الأمور سوءاً بالنسبة لي، وبناء عليه رسمت علامة الصليب على نفسي، وركعت عند قدمي واحد من المسلمين، كان يحمل فأساً دانماركية، مثلما يفعل النجارون، وقلت لنفسي: «هكذا مات القديس أغنس»، وركع غي دي إيبيلين قسطلان قبرص إلى جانبي، واعترف لي، فقلت له: «إنني أحلك بكل القوة التي منحني الرب إياها»، وكان على كل حال عندما نهضت واقفاً على قدمي لم أستطع تذكر كلمة مما أخبرني به.

وجعلنا المسلمون ننتقل من حيث كنا، وألقوا بنا في سجن في قاع الغليون، واعتقد عدد كبير من شعبنا بأنهم فعلوا ذلك لأنهم لم يرغبوا

في الحملة علينا كلنا معاً، بل ليقتلونا واحداً واحداً، ومكثنا في ذلك الحبس طوال ذلك المساء، وخلال الليل كله في عذاب وشقاء عظيم، وملتصقين ببعضنا بعضاً حتى أن قدمي جاءتا في وجه الكونت بيير دي بريتاني الطيب، ولا مست قدماه وجهي.

وأصدر الأمراء في اليوم التالي أوامر إلينا بالخروج من سجننا في قاع السفينة، وبعثوا رسائل لإخبارنا بأن علينا الذهاب إليهم، للحدث معهم حول موضوع تجديد المعاهدة التي عقدها السلطان المتوفى معنا، وأخبرنا هؤلاء الرجال بأن يجب أن نكون متأكدين أن السلطان لو ظل حياً لتولى إعدام الملك ونحن جميعاً معه.

وذهب الذين كان بإمكانهم السير لرؤية الأمراء، وبقي كونت دي بريتاني، والقسطلان وأنا حيث كنا لأننا كنا نعاني من المرض الشديد، لكن كونت دي فلاندرز، والكونت جين دي سواسون، والأخوان الإيبليينيان، والذين كانوا في حالة صحية مواتمة ذهبوا لحضور المؤتمر.

وتوصل الذين كانوا من جانبنا إلى اتفاق وترتيبات مع الأمراء، قضت أنه ما أن يتم تسليم دمياط إلى المسلمين، فإن هؤلاء سوف يطلقون سراح الملك والرجال الآخرين من ذوي المراتب الذين كانوا في السجن، أما بالنسبة للأناس الذين كانوا أدنى مكانة، فقد كان السلطان قد بعث بهم إلى القاهرة، وطبعاً باستثناء الذين كانوا قد أعدموا، وقد فعل هذا مراعاة للاتفاقية التي كان قد عقدها مع الملك، ولهذا بدا لنا كبير الاحتمال أنه كان ما أن يحصل على دمياط، حتى كان سيتولى إعدامنا أيضاً.

وأضافوا شرطاً آخر هو أن على الملك إقسام يمين يلبي به مطلب المسلمين بدفع مائتي ألف ليرة ذهبية إليهم قبل مغادرته النهر، ومبلغ مماثل لدى وصوله إلى عكا، وتوجب على المسلمين من جانبهم، القيام

— وفقاً لشروط هذه المعاهدة — بتولي رعاية شؤون المرضى في دمياط، وأن يبقوا لديهم القسي العقارة، والدروع، واللحوم المملحة والآلات، والحفاظ عليها في المدينة حتى يحين الوقت الذي سوف يرسل الملك فيأخذهم.

أما الأيمان التي كان الأمراء سيقسمونها للملك، فقد دونت كتابة، وقد نصت على أنهم إذا لم يراعوا ميثاقهم مع الملك، فسيعدّون بمثابة الرجل الذي فقد سمعته والذي عليه بسبب ما اقترفه من ذنب أن يحج إلى مكة، وهو عاري الرأس، أو إنساناً جديراً بالعار، مثل الذي طلق زوجته وأراد بعد ذلك إعادتها ثانية (لأنه في تلك الحالة، لا يمكن لرجل طلق زوجته أن يعيدها ثانية، ما لم تكن قد تزوجت من إنسان آخر وذلك حسب ما قضت به شريعة محمد) (ﷺ)، وكان القسم الثالث حسبما يلي: أنهم إذا ما خرقوا عهدهم مع الملك، فسوف يتلطفون بمثل العار الذي يتلطف به المسلم الذي يأكل لحم الخنزير، وكان الملك راضياً بهذه الأيمان التي ذكرتها للتو، لأن نيقولا العكاوي، وهو كاهن عرف لغتهم، قد أكد له، أنه بالنسبة لشريعتهم لا يمكنهم أداء أيمان أقوى وأكثر توثيقاً.

وبعدما أقسم الأمراء، وضعوا صيغة اليمين الذي أرادوا أن يقسمه الملك كتابة، وقد صيغ هذا القسم بناء على مشورة كهنة مرتدين، كانوا قد التحقوا بجانب المسلمين، وبدأت هذه الصيغة كما يلي: إنه إذا لم يلتزم الملك بشروط معاهدته مع الأمراء، سوف تتلطف سمعته كمسيحي أنكر ربنا وأمه، وأصبح خارجاً عن تبعية حواريبه الإثني عشر وجميع القديسين، ووافق الملك على هذه الصيغة عن طيب خاطر.

وكانت الفقرة الأخيرة من القسم تقول: إذا لم يكن الملك وفيّاً مع الأمراء سوف تتلطف سمعته كمسيحي وسيكون مثله مثل من أنكر الرب وأنكر شريعته، وازدراه، ويصق على الصليب، ووضعه تحت

قدميه وداسه، وعندما قرأ الملك ذلك قال: إن شاء الرب هو سوف لن يقسم مثل ذلك اليمين.

وبما أن نيقولا العكاوي، كان يعرف لغتهم، فقد أعطاه الأمراء رسالة ليحملها إلى الملك، وقد قال له: «يا صاحب الجلالة، الأمراء حانقين جداً، ففي الوقت الذي أقسموا لك فيه على كل ما طلبته منهم، قمت من جانبك، برفض القسم على ما طلبوه منك، وكن متأكداً أنك إذا لم تقسم اليمين سوف يأمرؤن بقطع رأسك ورؤوس جميع بني قومك أيضاً»، وأجاب الملك بأن الأمراء في وضع يمكنهم فيه أن يفعلوا الذي يريدونه بالنسبة لهذه القضية، أما بالنسبة لما يتعلق به شخصياً، إنه يؤثر أن يموت مسيحياً جيداً، على أن يعيش معادياً لربنا ولأمه.

وقام بطريك القدس، وكان رجلاً عجوزاً ووقوراً في الثمانين من عمره، بالحصول على أمان من المسلمين، وقدم ليساعد الملك في تأمين إطلاق سراحه، وحدث أن العادة كانت بين المسيحيين والمسلمين، أنه إذا ما مات ملك أو سلطان، فإن الذين كانوا يعملون رسلاً في تلك الأثناء، سواء أكانوا في أرض مسيحية أو غير مسيحية، يتخذون أسرى، ويسترقون، وبما أن السلطان الذي أعطى الأمان إلى البطريرك هو الآن ميت، فإن هذا الرجل الوقور غداً أسيراً مثلها كنا.

وبعدما أعطى الملك جوابه إلى الأمراء، أعلن واحد منهم بأن هذا قد صنع بناء على نصيحة البطريرك، وقال للمسلمين الآخرين: «إذا كنتم تثقون بي، سوف أجعل الملك يقسم، أو أنني سوف أرسل رأس البطريرك طائراً إلى حضن جلالته».

ولم يصغ إليه بقية الأمراء، وبعد ذلك أبعدوا البطريرك عن جانب الملك، وربطوه إلى عمود السرادق الملكي، ويديه مشدودتان بقوة وراء ظهره، حتى أنهما تورمتا وصارتا بحجم رأسه، وأخذ الدم يتدفق من

بين أظافره، فصرخ إلى الملك قائلاً: «احلف يا صاحب الجلالة، بدون خوف ، لأنك بالفعل عازم على الوفاء بيمينك، أو لسوف أحمل على نفسي كل ذنب قد يكون موجوداً، فيما طلب منك أن تقسمه»، ولا أعرف كيف تمت تسوية القضية، لكن في النهاية كان الأمراء راضين عن الطريقة التي جرى إقسام اليمين بها، من قبل كل من الملك والرجال الآخرين من ذوي المراتب من الذين كانوا معه.

وبعد وفاة السلطان بوقت قصير جداً، وضعت شارات السلطنة أمام خيمة الملك، وقد أعلم بأن الأمراء، اجتمعوا للتشاور، وقد عبروا عن رغبتهم العظيمة في جعله سلطان مصر، وسألني عما إذا كنت أَرْضَى بأن يقبل بأخذ هذه المملكة إذا ما عرضت عليه، فأخبرته أنه إذا ما فعل ذلك فسوف يتصرف بحماقة عظيمة، بعدما رأينا قيام هؤلاء الأمراء بقتل سيدهم السالف ، وعلى كل حال لقد أخبرني بأنه لن يرفض ذلك.

ويمكنني القول أن ما من شيء حدث بعد هذا، وتوقفت المسألة عند هذا الحد، لأنه بسبب أن المسلمين قالوا بأن الملك كان أكثر المسيحيين المتصلين، ولا يمكن أن يوجد مثله، وأقاموا دليلاً على هذا بواقعة أنه كان في كل مرة يترك فيها خيمته، كان يتمدد على الأرض على شكل صليب، ويرسم علامة الصليب فوق جسده كله، وقالوا لو أن محمداً (ﷺ) سمح لهم بالتعرض للعذاب مثلما تعرض الملك، ما كانوا ليحافظوا على إيمانهم به، وزيادة على هذا قالوا لو أن المسلمين جعلوا الملك سلطاناً عليهم، كانوا سيصبحون جميعاً مسيحيين، أو أنه كان سيقتلهم جميعاً.

وبعدما جرى إقرار المعاهدة بين الملك وبين الأمراء، وتأكدت باليمين، تم الاتفاق على إطلاق سراحنا غداة يوم عيد الصعود، وأنه ما أن يفرغ من تسليم دمياط إلى الأمراء، حتى سيقومون بفك أسار الملك

وجميع الناس المهمين معه، وفي مساء يوم الثلاثاء قام المسؤولون عن غلاييننا الأربعة بالرسو بهم في وسط النهر، عبر جسر دمياط، ونصبوا سرادقاً تجاه الجسر، في المكان الذي كان سينزل الملك منه إلى اليابسة.

وعند شروق الشمس دخل غيوفري دي سارجين إلى دمياط، وتولى مسؤولية تسليمها إلى الأمراء، ورفعت أعلام السلطان فوق جميع الأبراج، وتدفق الفرسان المسلمون على المدينة، وشرعوا يشربون الخمر، ولهذا أصبحوا جميعاً في وقت قصير جداً سكارى مخمورين، وصعد واحد من هؤلاء الرجال ظهر مركبنا، وسيفه مسلول وكله ملطخ بالدم، وأعلن أنه من جانبه قد قتل سبعة من شعبنا.

وقبل استسلام دمياط، جرى استقبال الملكة على متن سفننا، هي وجميع بني قومننا الذين كانوا في المدينة، وذلك باستثناء المرضى، فهؤلاء كان المسلمون قد تعهدوا بالحفاظ عليهم، لكنهم قتلوا كل واحد منهم، أما آلات الملك، التي توجب عليهم الحفاظ عليها فقد حطموها إلى قطع، وأما فيما يتعلق باللحوم المملحة، التي كان عليهم حفظها لنا لأنهم لا يأكلون لحم الخنزير، فقد دمروها، فقد جمعوا الآلات كلها في كومة واحدة، ولحوم الخنزير المملحة في كومة أخرى، والأموات في كومة ثالثة، وألقوا النار فيهم جميعاً، وكانت ناراً عظيمة استمرت جميع يوم الجمعة، ثم السبت، والأحد.

وكان المتوجب إطلاق سراح الملك وجميع الذين كانوا هناك عند إشراق الشمس لكن المسلمين احتفظوا بهم حتى غياب الشمس، ولم يكن لدينا طوال ذلك الوقت شيئاً نأكله، ولا الأمراء أيضاً، وأمضوا ذلك النهار كله في الخلاف فيما بينهم، وقد تحدث واحد منهم إلى الذين وقفوا إلى جانبه وأيدوه، وقال للبقية: «أيها الأصدقاء إذا أصغيتم إليّ وإلى الذين يرون رأيي، اقتلوا الملك، وكل الأعيان الذين معه، ووقتها ستكونون للأربعين سنة المقبلة بدون مخاطر، لأن أولادهم مازالوا

صغاراً، ولقد أخذنا دمياط ولذلك يمكننا أن نفعل ذلك في ظل الأمان الأعظم».

وعارض مسلم آخر، اسمه صبر الدين، وكان من أهل المغرب، هذا الاقتراح، وقال: «إذا ما قتلنا الملك، بعد قتلنا لسلطاننا، سيقول كل إنسان: إن المصريين هم أكثر الناس سوءاً وأعظمهم خيانة في الدنيا»، أما الذين رغبوا في قتلنا فردوا قائلين: «صحيح تماماً أننا تصرفنا بشكل شرير تماماً في التخلص من سلطاننا بقتله، لأننا بفعلنا هذا خالفنا شريعة محمد (ﷺ) الذي أمرنا بالمحافظة على مولانا محافظتنا على بؤبؤ أعيننا، ودونكم ما جاء في هذا الكتاب من وصايا مكتوبة» ثم استطرد يقول: «لكن أصغوا إلى هذه الوصية التي جاءت بعد ذلك»، ومع قوله هذا قلب صفحة الكتاب الذي كان يمسكه بيده وأراهم وصية أخرى، جاء فيها: «حتى تصونوا إيمانكم، اقتلوا أعداء الشريعة»، وقال: «ويمكنكم الآن أن تروا كيف عصينا إحدى وصايا محمد (ﷺ) بقتلنا مولانا، غير أننا سوف نكون أعظم عصياناً إذا لم نقتل الملك، بما أنه أقوى أعداء شريعتنا الإسلامية».

وتم الاتفاق تقريباً على موتنا، وحدث أن قدم واحد من الأمراء، الذين كانوا ضدنا، وكان يرى وجوب قتلنا جميعاً، قدم إلى شاطئ النهر، وبدأ يصرخ بلسان المسلمين إلى الرجال الذين كانوا مسؤولين عن غلابينا، وانتزع في الوقت نفسه عمامته، وأخذ يلوح بها كإشارة خاصة، وقام البحارة على الفور برفع المراسي، وأبحروا بنا إلى الخلف مسافة فرسخ باتجاه القاهرة، واعتقدنا هنا بأننا لا بد مقتولون، فذرفنا الكثير من الدموع.

غير أن الرب الذي لم ينس شعبه، قضى أن تم الاتفاق عند غروب الشمس، على وجوب إطلاق سراحنا، وهكذا أعدنا، وجرى سحب مراكبنا وصفها على طرف الشاطئ وهنا طلبنا أن يسمح لنا بالذهاب،

لكن المسلمين قالوا بأنهم لن يدعونا نذهب، حتى نتناول طعامنا، ذلك أنهم قالوا: «سوف يلحق العار بأمرائنا إذا تركنا أسرانا جياً»، وبناء عليه طلبنا منهم إحضار بعض الطعام، وأخبرناهم أننا سوف نأكل، وتآلف الطعام الذي أعطوه لنا من الجبن المجفف في الشمس حتى لا تتوالد فيه اليرقات، وكذلك بيض مسلوق، جرى سلقه قبل ثلاثة أيام أو أربعة، وإكراماً لنا صبغوا قشور هذا البيض بألوان مختلفة.

وبعدما أنزلونا إلى الياسة، ذهبنا إلى مقابلة الملك الذي كانوا يرافقونه من السراق الذي حبس فيه إلى شاطئ النهر، وسار خلفه عشرون ألفاً من المسلمين على الأقدام وقد تمنطقوا بسيوفهم، ورسى في النهر، في مواجهة الملك مباشرة غليون جنوي، بدا أن على ظهره رجل واحد فقط، وما أن رأى هذا الرجل الملك على شاطئ النهر حتى نفخ بصفارة، ولدى سماع صوتها تدفق ثمانون من حملة القسي العقارة وخرجوا من قاع السفينة، وكانوا جميعاً في سلاح كامل، وقسيهم العقارة مفوقة، وبلحظة واحدة وضعوا سهامهم في تجاويف إطلاقها، ولدى رؤية المسلمين للرجال الذين ظهروا هربوا مثل الأنعام، ولم يبق منهم أكثر من اثنين أو ثلاثة إلى جانب الملك.

وجرى إلقاء لوح من الخشب من الغليون إلى الشاطئ، ليتمكن جلالته من الصعود إلى ظهر السفينة، وذهب معه أخوه كونت دي أنجو، وغيوفري دي سارجين، وفيليب دي نيمور Nemours، وهنري دي متز Mez، مارشال فرنسا، ومقدم الثالوث المقدس، وأنا، وبقي كونت دي بواتيه سجيناً حتى الوقت الذي دفع فيه الملك مبلغ المائتي ألف ليرة ذهبية، الذي كان عليه دفعه كمال فدية قبل تركه النهر.

وفي يوم السبت التالي ليوم عيد الصعود — أي أن تقول اليوم التالي لإطلاق سراحنا — جاء كونت دي فلاندرز، وكونت دي سواسون، وعدد آخر من الرجال ذوي المراتب، ممن كانوا محبوسين في الغلايين،

جاءوا لوداع الملك، وقال لهم الملك بأنه يرى من المفيد لو أنهم انتظروا حتى يتم إطلاق سراح أخيه كونت دي بواتيه، وعلى كل حال، لقد أخبروه أنه ليس بإمكانهم الانتظار، بما أن غلايينهم جاهزة للبحار، وهكذا أقبلوا وانطلقوا نحو فرنسا، وأخذوا معهم كونت بيير دي بريتاني الجيد، الذي كان مريضاً جداً، حتى أنه عاش ثلاثة أسابيع فقط ومات في البحر.

وجرت استعدادات لدفع الفدية إلى المسلمين، وقد بدأت في صباح يوم السبت، واستغرق الأمر طوال ذلك اليوم واليوم التالي حتى الليل لتعداد المال، وتمت أعمال التعداد بوساطة الوزن بالميزان، وساوت كل وزنة ما قيمته عشرة آلاف ليرة ذهبية، وفي حوالي الساعة السادسة من مساء يوم الأحد، بعث رجال الملك الذين كانوا يتولون وزن المال، إليه يخبرونه أنهم مازالوا يحتاجون إلى ثلاثين ألف ليرة ذهبية هي النقص في المبلغ المطلوب، وكان الملك في ذلك الوقت معه فقط كونت دي أنجو، ومارشال فرنسا ومقدم الثالوث المقدس، وأنا شخصياً، فقد انشغل البقية بتعداد مال الفدية. وأخبرت الملك أنه سوف يكون عملاً مفيداً أن يبعث فيستدعي قائد الداوية ومارشاهم، ذلك أن المقدم كان متوفى، ويطلب منها إقراضه ثلاثين ألف ليرة ذهبية، وهو المبلغ الذي ما يزال يحتاجه لفدية أخيه، وبناء عليه بعث الملك واستدعى الداويين، ووجه تعليماته إليّ لإخبارهما بالذي نريده.

وبعدما كلمتهما التفت إليّ الراهب إيتين دي أوتريكورت Etienne d'otricourt قائد الداوية، مجيباً، حيث قال: «مولاي صاحب جوانفيل، إن هذه المشورة التي أسديتها إلى الملك ليست جيدة وغير معقولة، لأنك تعلم أن جميع المال الموضوع بعهدتنا، قد ترك معنا على شرط أقسمنا عليه، بأن لانسلم هذا المال إلى أحد إلا إلى الذين عهدوا به إلينا»، وإثر هذا تبادلنا أنا وهو كلمات كثيرة قاسية وشتائم فيما بيننا.

وبينما كنا نتجادل هكذا تدخل الراهب رينو دي فيشير Vichiers الذي كان مارشال الداوية ليقول: «دعنا يا صاحب الجلالة نوقف هذا الخصام بين القائد وبين مولاي صاحب جوانفيل، لأن قائدنا يقول: لا يمكننا أن نسلف أياً من هذا المال دون أن نحث بأياننا، أما بالنسبة لما أشار به نائبك، بأن تأخذ المال إذا لم يقرض لك، إنني لا أجد شيئاً مدهشاً كثيراً في مثل هذا الاقتراح، وعليك أن تفعل الذي تراه هو الأفضل، وفي جميع الأحوال إذا ما أخذت ما هو عائد إلينا هنا في مصر، لدينا الكثير مما هو عائد إليك وموجود في عكا، يمكنك من أن تقدم لنا التعويض بكل سهولة».

وقلت للملك بأنني ذاهب لأخذ المال إذا كان موافقاً، فأمرني بالذهاب، وبناء عليه ذهبت إلى واحد من الغلايين العائدين للداوية، وكان بالواقع هو الغليون الرئيسي، وعندما كنت على وشك النزول إلى المخزن، حيث حفظت الخزانة، طلبت من قائد الداوية القدوم ورؤية الذي سوف آخذه، غير أنه لم يتنازل بفعل ذلك، وعلى كل حال قال المارشال بأنه سوف يقدم ويكون شاهداً على العنف الذي سأمارسه ضده.

وما أن نزلت إلى الأسفل حيث كانت الخزانة، حتى طلبت من خازن الداوية، الذي كان هناك أن يعطيني مفاتيح الصندوق الذي كان أمامي، ولكنه وقد رأي مهزولاً، قد أنهكني المرض، ردّ عليّ بأنه لن يعطيني مفاتيحه، ورأيت فأساً ملقاة هناك، فالتقطتها وقلت بأنني سأجعلها تعمل بمثابة مفتاح لجلالته، وعند هذا أمسك المارشال بمقبض يدي وقال: «بما أنك عازم على استخدام العنف ضدنا، سندعك تأخذ المفاتيح»، وهكذا أمر الخازن بإعطائي إياهم، ففعل ذلك عندما أخبره المارشال من أنا، وهو أبكم تماماً لدهشته.

ولدى فتحي لواحد من الصناديق وجدته ملكاً لنيقولا دي شوسي

Choisi، وكان من سيرجنديّة الملك، وأخرجت ما وجدت فيه من مال، ثم ذهبت عائداً إلى المركب الذي جلبني، وجلست على قوسه، وأحضرت مارشال فرنسا وتركته مع مقدم الثالث المقدس مسؤولين عن المال الموجود في الغليون، وسلم المارشال المال هناك إلى المقدم، وناولني المقدم إياه على القارب الذي كنت جالساً فيه، وعندما كنا قادمين نحو غليون الملك شرعت أصرخ له قائلاً: «مولاي، مولاي، انظر كيف أنا مجهز بشكل جيد»، وكان الرجل القديس مسروراً جداً برؤيتي، ورحب بي بهجة بالغة، وناولنا المال الذي جلبته إلى الرجال الذين كانوا يتعاملون مع مال الفدية.

وبعدما أكمل مستشارو الملك الذين كانوا مسؤولين عن هذه المهمة، عملية تعدادهم جاءوا إلى الملك وقالوا بأن المسلمين لن يوافقوا على إطلاق سراح أخيه حتى يكون المال بالفعل في حوزتهم، وارتأى بعض أعضاء مجلس مستشاريه أن على الملك عدم تسليم المال حتى يكون أخوه عنده بالفعل، ورد الملك بأنه سوف يسلمهم المال، بما أنه وعد المسلمين بفعل ذلك، وبالنسبة إليهم، إنهم إذا ما أرادوا التعامل بأمانة، فسوف يحافظون على عهودهم معه .

وبعدما تمت أعمال الدفع قال فيليب دي نيمور Nemours للملك أنهم اقتطعوا أثناء تعدادهم للمال عشرة آلاف ليرة ذهبية على المسلمين، ولدى سماع الملك بذلك صار غاضباً كثيراً، وقال بأنه وعد المسلمين بدفع مبلغ مائتي ألف ليرة ذهبية بشكل كامل قبل مغادرته للنهر، وأصر على إعادة العشرة آلاف ليرة ذهبية لهم، ووقتها ضغطت على قدم اللورد فيليب، وأخبرت الملك أن لا يصدق ما سمعه منه، لأن المسلمين كانوا أذكى وأبرع من هو معروف في العالم، وأقر مولاي فيليب أن ما قلته أنا كان صحيحاً، وأضاف أنه كان يتحدث مزاحاً، وأخبره الملك أن هذا المزاح غير مقبول ويدل على ذوق سيء جداً، وقال لمولاي

فيليب: «إنني أمرك، بحق طاعتك لي، بسبب أنك تابع لي، إذا لم تكن قد دفعت هذا المبلغ، أي العشرة آلاف ليرة ذهبية إلى المسلمين، أن تقوم بدفعهم دون تلكؤ».

ونصح كثير من أتباع الملك، الملك بالانسحاب إلى سفينته التي كانت تنتظره في البحر، وذلك حتى يكون بعيداً عن متناول أيدي المسلمين، لكنه رفض الإصغاء إليهم.

وأعلن أنه سوف يبقى عند النهر، حسبما كان قد وعد المسلمين، وذلك حتى ينقضي الوقت الذي يكون قد دفع فيه المائتي ألف ليرة ذهبية، وعلى كل حال، ما أن كمل الدفع، حتى أخبرنا، دون أن يجرضه أحد، أنه يعد نفسه من تلك اللحظة قد تحلل من يمينه، وأنه بات علينا مغادرة النهر والذهاب إلى السفينة التي كانت في البحر.

وما لبث غليوننا أن انطلق نحو الأمام، وقطعنا مرحلة كاملة قبل أن يتلفظ أي منا بكلمة لرفاقه، وكنا منزعجين لأننا تركنا كونت دي بواتيه ما يزال في الأسر، وفي تلك الساعة صعد فيليب دي مونتفورت إلينا في الغليون، وحيًا الملك هاتفاً: «مولاي، مولاي، تحدث إلى أخيك، كونت بواتيه، الذي هو في هذه السفينة الأخرى»، وهتف الملك في تلك اللحظة: «تمهلوا، تمهلوا»، ونفذ هذا بسرعة، وكانت البهجة التي شعرنا فيها في تلك اللحظة عظيمة، لابل أعظم من أية بهجة كانت، وذهب الملك إلى سفينة الكونت، وكذلك فعلنا نحن، وتلقى صائد سمك فقير، ذهب لإخبار كونتسة دي بواتيه، بأنه قد رأى زوجها قد أطلق سراحه، عشرين ليرة ذهبية بباريسية منها.

وقبل أن أمضي أبعد، علي أن لا أنسى إخباركم ببعض الأشياء التي حدثت ونحن ما نزال في مصر، وسأتكلم أولاً عن غوتير دي شاتليون، وكان واحد من فرساننا، اسمه جين مونسون Monson قد

أخبرني بأنه قد رآه في شوارع القرية التي أخذ الملك فيها أسيراً، وكان هذا الشارع يشق القرية بشكل مباشر، وبذلك كان يمكنك رؤية الحقول المفتوحة على كلا الطرفين، وكان غوتير في هذا الشارع وسيفه مجرداً في يده، ولدى رؤيته أن المسلمين داخلون إلى الشارع، اندفع نحوهم وسيفه بيده، وتولى طردهم إلى خارج القرية، غير أنهم كانوا قادرين وهم فارين على الرماية بسهولة نحو الأمام ونحو الخلف، وقد غطوه من رأسه إلى قدميه بنشابهم، وما أن فرغ من طردهم إلى خارج القرية، حتى أخذ ينزع النشاب من دروعه، ثم لبس دروعه وامتطى فرسه، ووضع رجليه في ركاباته وسيفه مرفوع بذراعه، وصرخ بصوت مرتفع: «شاتليون يافارس، شاتليون، أين هم رجالي الموثوقين؟» وعندما التفت نحو الخلف، ورأى المسلمين قد دخلوا الشارع من النهاية الثانية، اندفع نحوهم ثانية، وسيفه بيده، وطردهم وأبعدهم، وقد فعل ذلك ثلاث مرات، مع النتيجة نفسها.

وبعدما أخذني قائد الغلايين للالتحاق برفاقنا الذين أسروا فوق اليابسة، سألت عن أخبار غوتير دي شاتليون، وتقصيت من الناس الذين كانوا يعيشون معه، فلم أستطع العثور على أحد يمكنه أن يخبرني كيف أسر، لكنني سمعت من الفارس الجيد جين فونون **Fouinon** ، أنه عندما أسر شخصياً، وحمل أسيراً إلى المنصورة، رأى مسلماً يمتطي فرس غوتير دي شاتليون، وكان سرجه مغطى بالدم، وسأل الفارس الجيد هذا المسلم: ما الذي فعله للرجل الذي عاد الفرس إليه، وأجابه بأنه قطع عنقه وهو على ظهر ذلك الفرس، حسبما يمكن رؤية آثار ذلك بكل سهولة من الدم الذي يغطي سرجه.

وكان هناك رجل آخر شجاع جداً في جيشنا، هو أسقف سواسون، الذي كان اسمه جاك دي كاسل **Jacques de Castel** ، فعندما رأى عساكرنا وهي تتراجع نحو دمياط، وبما أن أعظم رغباته كانت في

أن يكون مع الرب، فقد شعر أنه ليس لديه رغبة بالعودة إلى البلاد التي ولد فيها، ولهذا بادر مسرعاً ليكون مع الرب، بغمز حصانه، والاندفاع لقتال المسلمين وحيداً، وقد تناوشه هؤلاء وقطعوه بسيوفهم، وبذلك بعثوا به ليكون برفقة الرب، بين أعداد الشهداء.

وعندما كان الملك ينتظر من أجل إتمام إجراءات الدفع لإطلاق سراح أخيه، كونت دي بواتيه، جاء مسلم ملابسه جيدة، وبهي الطلعة ووسيم جداً، إلى جلالته ليقدم له هدية، تكونت من جرار فيها حليب، وورود من مختلف الألوان والأنواع، وقدمها له باسم أبناء الناصر، الذي كان سلطان القاهرة، وعندما قدم هذه الهدايا تحدث إلى الملك بالفرنسية.

وعندما سأله الملك أين تعلم الفرنسية، أجابه هذا الرجل، بأنه كان من قبل مسيحياً، وبناء عليه قال الملك له: «انصرف، لأريد الحديث إليك»، وسحبت الرجل جانباً وسألته أن يخبرني عن ظروفه، فأخبرني بأنه قد ولد في بروفانس، وأنه قدم إلى مصر، وتزوج من مصرية، وأنه الآن شخصية لها أهمية عظيمة، فقلت له: «ألا تدرك أنك إذا ما مت في هذا الوضع سوف تدان، وتذهب إلى جهنم»، فأجاب بأنه يعرف ذلك، وفضلاً عن هذا هو متأكد أن ما من ديانة جيدة مثل الديانة المسيحية» ثم أضاف: «لكنني أخاف من أن أواجه الفقر، وأن أعاني من العار إذا ما عدت إليكم، فكل يوم سوف يقول واحد ما أو آخر لي: «اغرب، أنت جرد»، ولهذا إنني أؤثر أن أعيش هنا غنياً وبيسر، على أن أضع نفسي في وضع يمكنني تصويره»، وقد بينت له، أنه في يوم الحساب، عندما تكون ذنوبه واضحة أمام الجميع، سوف يعاني من عار أعظم مما تحدث عنه في تلك الساعة، وقدمت له كثيراً من النصائح المسيحية الجيدة، لكن ذلك كله كان بلا نفع وبلا تأثير، وهكذا انصرف عني ولم أره ثانية.

ولقد سمعتم حتى الآن عن العذاب العظيم الذي عانى الملك منه

وعانى منه بقيتنا أيضاً، ولم تنج الملكة (التي كانت آنذاك في دمياط)، كما سأخبركم، من الآلام شخصياً، فقبل ولادتها بثلاثة أيام بولد، جاءت الأخبار بأن الملك قد وقع بالأسر، وقد أخافها هذا كثيراً جداً إلى حد أنها كانت كلما أوت إلى فراشها، خيل إليها أن الحجرة كانت مليئة بالمسلمين، فكانت تصرخ بصوت مرتفع: «النجدة، النجدة»، وخشية منها أن يلد الولد الذي كانت تحمله ميتاً، جعلت فارساً عجوزاً ينام قرب فراشها، ويمسك يدها في كل مرة كانت تصرخ فيها ويقول لها: «لا تكوني خائفة، ياسيدي، فأنا هنا».

وأمرت قبل أن تلد كل إنسان بمغادرة غرفتها، باستثناء ذلك الفارس، ثم إنها ركعت أمام ذلك الرجل العجوز، وترجته أن يؤدي لها خدمة، وقد وافق، وأقسم أنه سوف يفعل الذي تطلبه منه، وبناء عليه قالت له: «أطلب منك بموجب القسم الذي أقسمته لي، أنه إذا ما استولى المسلمون على هذه المدينة، أن تقطع رأسي قبل أن يأسروني»، وأجابها الفارس: «كوني واثقة، أنني سأفعل ذلك بدون تردد، لأنني صممت في فكري، بأن أقتلك قبل أسرنا معاً».

وولدت الملكة ولداً ذكراً أطلق عليه اسم جين، وسماه قومها ترسترام Tristram، (الحزين) بسبب الحزن العظيم الذي رافق ولادته، ففي اليوم نفسه الذي ولدت فيه أخبرت بأن رجال بيتزا، وجنوى والمدن الأخرى الحرة، عازمون على الهرب من دمياط فقامت في اليوم التالي بإحضارهم، فوقفوا إلى جانبي فراشها، وكانت الحجرة مليئة بهم، وقد قالت لهم: «أيها السادة، من أجل الرب، لاتغادروا هذه المدينة، حيث لا بد أن يكون واضحاً لكم أننا سوف نخسر بذلك الملك مع جميع الذين أخذوا أسرى معه أيضاً، وإذا كان هذا الالتباس لم يترككم، اعطفوا على المخلوقة الضعيفة المسجاة هنا، وانتظروا حتى أتعافى».

وقد أجابوها: «ما الذي يمكننا فعله ياسيدي؟ إننا نموت جوعاً في

هذه المدينة»، فأخبرتهم الملكة أنهم لا يحتاجون إلى مغادرة المدينة خوفاً من المجاعة، «لأنني — كما قالت — سوف أمر بشراء جميع الأطعمة الموجودة بالمدينة باسمي، ومن الآن فصاعداً سوف تعيشون على حساب الملك»، وبعدما تداولوا الأمر فيما بينهم، عادوا إلى الملكة وأخبروها بأنهم سوف يبقون عن طيب خاطر، ثم قامت — منحها الرب النعمة — بتدبير شراء جميع الأطعمة التي كانت بالمدينة بمبلغ ثلاثمائة وستين ألف ليرة ذهبية، لكن قبل أن يحين الوقت الذي كان عليها فيه مغادرة فراشها، اضطرت إلى تركه، لأن المدينة كانت ستسلم إلى المسلمين، وهكذا توجب عليها الذهاب إلى عكا لتتظر وصول الملك.

وبينما كان جلالته ينتظر إطلاق سراح كونت دي بواتييه، أرسل الراهب راؤول — وكان من الرهبان المبشرين — إلى أمير يدعى فارس الدين أقطاي، الذي كان من أكثر المسلمين أمانة ممن رأته قط، وقد أخبره هذا الراهب بأن الملك مندهش كثيراً، كيف أنه مع الأمراء الآخرين قد سمحوا بهذا الخرق الفاضح للمعاهدة، لأنهم قتلوا المرضى، الذين توجب عليهم بموجب اليمين العناية بهم، وحطموا جميع آلاته إلى قطع، وأحرقوا أجساد المرضى، وكذلك لحوم الخنزير المملحة، التي كان من المتوجب عليهم حفظها.

وقال فارس الدين أقطاي في جوابه للراهب: «إذهب وأخبر ملكك، أنني بسبب شريعتي لا أستطيع فعل شيء لإرضائه، بل إنني حزين جداً لما حصل، وحذر جلالته أيضاً باسمي، بعدم إبداء أية علائم تدل على أن هذه القضية قد أزعجته، ما دام باقياً في أيدينا، لأن معنى ذلك سيكون موته»، وعبر هذا الأمير عن رأيه، أنه ما أن يصبح الملك في عكا سالماً، يمكنه أن يحرك هذه المسألة من جديد.

الفصل الحادي عشر

الملك في عكا

أيار ١٢٥٠ — آذار ١٢٥١

عندما وصل الملك إلى ظهر سفينته، وجد أن جماعته لم يعدوا له شيئاً
لا من الأثاث والفراش، ولا من الثياب، لذلك توجب عليه أن ينام
على حشايا أعطيت له من قبل السلطان، وذلك حتى وصولنا إلى عكا،
وأن يرتدي الملابس التي أمر السلطان بتجهيزه بها وإعدادها له، وكانت
هذه الملابس من الساتان الأسود، المبطن بالفراء الأبيض وبفراء
السنباب الأغبر، ومزينة بأعداد كبيرة جداً من الأزرار، المصنوعة من
الذهب الخالص.

وبسبب وضعي الصحي وضعفي أمضيت الأيام الستة، التي
قضيناها في البحر إلى جانب الملك، وأخبرني في أثناء ذلك الوقت كيف
وقع بالأسر، وكيف تمكن بعون الرب، من إجراء مباحثات من أجل
إطلاق سراحه وسراحنا، ومن أجل الفدية أيضاً.

وجعلني أخبره بدوري كيف أنني أسرت وأنا على سطح الماء، وبعدما
استمع إلى روايتي، أخبرني أنني مدان بالشكر العظيم لمولانا، لأنه
خلصني من مثل هذا الخطر الجسيم، وحزن حزناً عظيماً لوفاة أخيه،
كونت دي أرتو، وقال لو أنه كان حياً ما كان ليتجنب مرافقته مثلما فعل
كونت دي بواتيه، بل كان سيأتي لرؤيته على ظهر غليونه.

واشكى الملك لي من أخيه الآخر، كونت دي أنجو، فمع أنها كانا
على ظهر المركب نفسه، فإنه اهتم قليلاً بمرافقته، وسأل الملك في أحد
الأيام عن الذي كان يفعله كونت دي أنجو، فأخبر بأنه كان يلعب لعبة

حظ مع غوتير دي نيمور Nemours ، ومع أنه كان ضعيفاً من مرضه، تحامل الملك على نفسه حتى وصل إلى اللاعبين، والتقط النرد والألواح، وألقى بالجميع في البحر، ووجه النقد إلى أخيه بصوت مرتفع لإقدامه على لعب الميسر بمثل هذه السرعة، وتخلص مولاي غوتير من ذلك، بخير وسيلة، لأنه ألقى جميع المال الذي كان على المائدة — وكان هناك منه الشيء الكثير — في حضنه، وحمله معه وابتعد.

وأريد الآن أن أحدثكم بعض الشيء عن المحن والمشاكل التي عانيت منها أثناء إقامتي في عكا، والتي خلصني الرب منها في النهاية، ذلك أنني وضعت ثقتي فيه، ومازلت أضعها فيه، وهدفي من تدوين هذه الأمور، أن يقوم الذين يسمعون بهم بوضع ثقتهم بالرب، في أوقاتهم العصبية ، فوقيتها سوف يجدونه جاهزاً لمساعدتهم مثلما ساعدني.

ودعوني أخبركم أولاً كيف أنه عندما وصل الملك إلى عكا، خرج جميع رجال الدين وأهل المدينة في موكب، ونزلوا في مسيرة إلى شاطئ البحر للترحيب به ببهجة عظيمة جداً، وجلب لي أحدهم جواداً صغيراً، لكن عندما امتطيته شعرت بغيبوبة فطلبت من الذي جلبه لي أن يمسكني، خشية أن أسقط، وصعدت بصعوبة بالغة درجات السلم إلى قاعة الملك، حيث ذهبت وجلست إلى جانب نافذة، ووقف إلى جانبي طفل صغير له من العمر عشر سنوات، وكان هذا هو بارثلمي الابن الطبيعي لآمي دي مونتبليارد، صاحب موننفوكون.

وبينا كنت جالساً هناك، غير لافت لانتباه أحد، اقترب مني خادم يرتدي مئزراً أحمر له خطين أصفرين، وانحنى أمامي، وسألني فيما إذا كنت أعرفه، فقلت: لا إنني لا أعرفه، فعندها أخبرني بأنه جاء من قلعة عمي في أويسلي Oiselay، فسألته: خادم من هو؟ فقال بأنه غير مرتبط بأحد، لكنه سيبقى معي إذا ما رغبت، وهكذا أخبرته أنني سأكون مسروراً جداً لأن أستخدمه، وبناء عليه ذهب وأحضر لي بعض

الأغطية البيضاء لتغطية رأسي، ومشط شعري لي بدقة متناهية.

وبعد هذا بوقت قصير بعث الملك يستدعيني لتناول الطعام معه، وذهبت إليه مرتدياً المئزر القصير الذي كان قد صنع لي من أثمان من اللحاف الذي ارتديته عندما كنت أسيراً، وقد أعطيت بقية اللحاف إلى الطفل بارثلمي، مع أربعة أذرعة من الموهير، قد أعطيت لي، في سبيل حبة الرب، وذلك قبل أن يطلق المسلمون سراحي، وجاء رجلي الجديد، أي وليم، وقطع لحمي لي، وحصل على بعض الطعام للطفل، بينما كنا نأكل.

وجاء جوليمين ليخبرني بأنه حصل على بعض الحجر لي قرب الحمامات، حيث يمكنني إزالة القذارة والتعرق وما علق بي وجلبته معي من السجن، وعند إقبال الليل، ووقتها كنت بالحمام شعرت فجأة بفتور وأغمي علي، ووجد تابعي صعوبة كبيرة في إخراجي من الحمام وحملني إلى فراشي، وجاء في اليوم التالي فارس عجوز اسمه بيير دي بوربون لرؤيتي، وقد أبقيته في خدمتي، وصار كفيلاً لي في المدينة بشأن ما احتجت إليه من باب الملابس والتجهيزات.

وما أن لبست بشكل لائق، وكان ذلك بعد أربعة أيام من وصولنا إلى عكا، ذهبت حتى أرى الملك، فلامني، وقال إنني لم أحسن صنعاً بالتأخر كل هذه المدة الطويلة للقدوم لرؤيته، وقد أمرني — لتقديري لمحبهته — بالقدوم لتناول الطعام معه كل يوم، في الصباح وفي المساء، حتى يأتي الوقت الذي يقرر فيه، هل سنعود إلى فرنسا، أم إننا سنبقى في بلاد ماوراء البحر.

وأخبرت الملك بأن بيير دي كورتني مدين لي بأربعمائة ليرة ذهبية من عطائي، وقد رفض دفع هذا المبلغ لي، فأجابني جلالته بأنه هو نفسه سيدفع هذا المال لي، وسيقتطعه مما هو مدان به لبيير دي كورتني، وهذا

ما فعله، وقمت بناء على نصيحة بيير دي بوربون بإبقاء مبلغ أربعين ليرة ذهبية للنفقات الجارية، وأعطينا المتبقي للحفظ لدى قائد قصر الداوية، وعندما أنفقت هذه الأربعين ليرة ذهبية كلها، بعثت الأب جين كايم Caym دي سينت ميني هولد Menehould الذي ألحقته بخدمتي في بلاد ما وراء البحر، لي جلب مبلغاً مماثلاً، فأخبره القائد أن لآمال لي عنده، وأنه لا يعرفني.

وبناء عليه ذهبت إلى الراهب رينودي فيشييه Vichiers، الذي ساعده الملك ليكون مقدماً للداوية، وذلك تقديراً منه للموقف الذي أبداه الداوية نحوه عندما كان أسيراً، وشكوت إليه قائده، الذي يرفض إعطائي المال الذي أودعته إتياءه، ولدى سماع المقدم لهذا غضب غضباً عظيماً وقال لي: «يامولاي صاحب جوانفيل، إنني معجب بك كثيراً، لكن يمكن أن أؤكد أنك إذا لم تتوقف عن إثارة هذا الادعاء لن أتابع النظر إليك كصديق، لأن الذي تحاول القيام به هو أن تجعل الناس يعتقدون بأن أعضاء طائفتنا هم لصوص»، فقلت له: بمشيئة الرب لن أسحب دعواي.

وعانيت لمدة أربعة أيام كاملة، معاناة إنسان لا بد أن يشعر بها عندما يجد نفسه بلا مال لمواجهة النفقات، ومع نهاية تلك الأيام، جاء إليّ مقدم الداوية وأخبرني بوجه مبتسم بأنه استرد لي مالي، وحول الطريقة التي استرد بها المبلغ، يمكنني أن أقول فقط بأنه نقل قائد القصر إلى قرية الصفورية، وقام الرجل الذي حل محله بإعطائي مالي وردّه إليّ.

ومكنني أسقف عكا — الذي بالمناسبة كان من أهل بروفانس — من استخدام بيت، كان يعود بملكيته إلى جين كايم Caym كاهن سينت ميشيل من طائفة سينت ميني هولد Menehould، الذي خدمني بشكل جيد في الستين الماضيتين، وكان واحداً ممن احتفظت به في خدمتي، مع عدد كبير من الآخرين.

وحدث أن كان عند رأس فراشي غرفة خلفية، يمكن من خلالها المضي لدخول الكنيسة، وصدف أن أصبت بحمى طويلة استبدت بي وبرجالي، ولهذا التزمنا جميعاً أسرتنا، وخلال ذلك الوقت كله لم يوجد في أي يوم أحد من الناس يقدم لي المساعدة، أو يساعدي على النهوض، فضلاً عن هذا، لم أتطلع إلى شيء سوى الموت، وذلك من الأصوات المنذرة التي كانت ترن في أذني، ذلك أنه لم يكن يمر يوم واحد، دون أن يجلبوا عشرين إنساناً ميتاً أو أكثر إلى الكنيسة، وكان بإمكانني أن أسمع وأنا في فراشي أنشودة "Libera me, DoMINE" وكان كلما حدث هذا أنفجر باكياً، وأقدم الشكر للرب، وأخاطبه هكذا: «أيها الرب، إنني أعبدك، وأشكرك، من أجل هذه الآلام التي بعثتها إليّ، ذلك أنني تكبرت كثيراً وتجبرت، وأنا الآن أتمدد نائماً في فراشي، وأنفض منه في الصباح، وأصلي لك يامولاي حتى تخلصني من هذا المرض».

وحالما تعافيت، طلبت جوليمين تابعي الجديد، ليقدّم لي كشفاً بحساب المال الذي أنفقه، وعندما أراني إياه، وجدت أنه غشني بمبلغ زاد عن عشرة Livres Tournois، وعندما طالبتّه برد هذا المبلغ، أخبرني أنه سيسدد هذا المبلغ حالما يستطيع، فصرفته من خدمتي، وأخبرته أنني سأمحتّه بما هو مدان به إليّ، لأنه بالفعل يستحق أن يحتفظ بهذا المبلغ، وعلمت فيما بعد من بعض الفرسان البيرغنديين، الذي أطلق سراحهم حديثاً، وهم الذين جلبوا هذا الرجل معهم إلى بلاد ما وراء البحر، أنه كان من أبرع اللصوص وأحسنهم خلقاً، ولم يوجد مثله قط، لأنه كلما كان هناك فارس بحاجة إلى سكنين، أو حزام، أو قفازات، أو مهاميز، أو أي شيء آخر، كان يمضي ويسرق المطلوب، ويعطيه إلى الفارس.

وفي الوقت الذي كان الملك فيه في عكا، شغل أخواه نفسيهما في

اللعب بالنرد، وكان كونت بواتيه لاعباً صاحب أخلاق كريمة، فقد كان في بعض المناسبات عندما يربح، كان يفتح أبواب غرفته تماماً، ويدعو أي واحد من السادة أو السيدات، إذا كان هناك أي واحد منهم — أو منهن — في الخارج، إلى الدخول، ثم كان يوزع المال عليهم بملىء يديه، من جيبيه، وكذلك من المال الذي ربحه باللعب، وعندما كان يخسر، كان يشتري أموال الذين كان يلاعبهم، وذلك بعد تقدير قيمتها، سواء أكانت الأموال أموال أخيه كونت دي أنجو، أو أموال أي إنسان آخر، ثم كان يعطي كل شيء ويبدده سواء أكان ماله أو المال الذي حصل عليه من الآخرين.

وفي يوم من أيام الأحد، أثناء إقامتنا في عكا، بعث الملك واستدعى إليه كل من أخويه، مع كونت دي فلاندرز، ورجال آخرين من ذوي المراتب الذين كانوا هناك، وقال الملك لهم: «سادتي، لقد بعثت إليّ صاحبة السمو الملكي، الملكة الأم رسالة ترجوني فيها بإلحاح شديد، بالعودة إلى فرنسا، لأن مملكتي في خطر عظيم، لأنه حتى الآن لم يبرم بيني وبين ملك إنكلترا لا هدنة ولا سلام، وأخبرني شعب هذه المناطق الذين تشاورت معهم، أنني إذا ما غادرت فإن هذه البلاد سوف تضيع، لأن جميع الرجال الموجودين الآن في عكا، سوف يلحقون بي، وما من أحد سيجرؤ على البقاء، حيث الناس قلة، لذلك أرجوكم أن تفكروا بهذه المسألة تفكيراً جدياً، ولأنها مسألة هامة جداً، سوف أمنحكم الوقت لتقليب أوجه الرأي حولها، ولسوف تعطونني جوابكم، تبعاً لما ترونه صحيحاً، تماماً بعد أسبوع من هذا اليوم».

وفي أثناء الأسبوع جاء إليّ نائب البابا، وقال لي بأنه لم يجد كيف يمكن للملك البقاء في ما وراء البحر، ورجاني بكل إخلاص أن أعود معه إلى فرنسا في سفينته، فأخبرته أنني لا يمكنني فعل ذلك، لأنني لا أمتلك مالاً البتة، ذلك أنني — كما يعرف جيداً — قد خسرت كل

شيء كنت أملكه، عندما أخذت أسيراً على سطح الماء.

وحين أجبته على هذه الصورة، فعلت ذلك لا عن كراهية ولا عن عدم رغبة في مرافقته، بل بسبب شيء آخر كان ابن خالتي لورد بوليانكورت Bouliancourt — ربي امنحه الرحمة — قد قاله لي وأنا على وشك الذهاب بالحملة الصليبية، لقد قال لي: «إنك ذاهب إلى بلاد ما وراء البحر، إنته كيف ستعود، لأن ما من فارس — سواء أكان غنياً أم فقيراً — يمكنه أن يعود من دون أن يدنس شرفه، إذا ما ترك عبيد الرب المتواضعين، الذين انطلق برفقتهم، تحت رحمة المسلمين»، وغضب النائب البابوي غضباً عظيماً مني، وأخبرني أنه ما كان يجوز لي أن أرفض عرضه.

ومثلنا ثانية في حضرة الملك في يوم الأحد التالي، وقد سأل أخويه، وكونت دي فلاندرز، وبقية البارونات هل يشيرون عليه بالذهاب أم بالبقاء؟ وأجابوه جميعاً بأنهم عهدوا إلى غي موفوزين أن يتولى إعلام جلالته بما رغبوا أن يشيروه عليه، وبناء عليه أمره الملك بأن ينفذ مهمته، وقد تكلم هذا كمايلي وقال: «لقد قام، يا صاحب الجلالة، أخواك وبقية النبلاء الحاضرون هنا بتفحص وضعك، وتوصلوا إلى محصلة أنك لا يمكنك البقاء في هذه البلاد من دون أن تسيء إلى مقامك وكذلك إلى مملكتك، فمن جميع الفرسان الذين جاءوا برفقتك، وعددهم ألفان وثمانمائة ممن أحضرته معك إلى قبرص، يوجد الآن في هذه المدينة ممن تبقى أقل من مائة فارس، ولهذا نشير على جلالتك بالعودة إلى فرنسا، وأن تقوم بتجنيد الرجال، وتحصيل المال، ومن ثم تعود بكل سرعة لتتقم من أعداء الرب الذين وضعوك بالأسر.

ولم يكن الملك — على كل حال — راضياً بالموافقة على ما قاله موفوزين، وتوجه بالسؤال إلى كونت دي أنجو، وإلى كونت دي بواتيه، وإلى كونت دي فلاندرز وإلى آخرين من ذوي المراتب العليا الذين

جلسوا إلى جانبهم، وقد وافقوا جميعاً على ما قاله غي موفوزين، وسأل النائب البابوي كونت دي يافا، الذي كان جالساً خلفه، ما الذي يراه، ورجا الكونت الجماعة إعفائه من الإجابة على هذا السؤال، وقال: «لأن قلعتي قائمة على الحدود، وإذا ما نصحت الملك بالبقاء، سيظن بعض الناس أنني فعلت ذلك لمصلحتي الذاتية ومنافعي» وضغط الملك عليه بشدة متناهية حتى يقدم رأيه، وبناء عليه أجابه الكونت أنه إذا كان ممكناً لجلالته تدبر تمديد حملته لمدة سنة أخرى، فسينال بذلك شرفاً عظيماً، وبناء عليه سأل النائب البابوي الذين جلسوا إلى جانب كونت يافا، فوافقوا جميعاً على ما أبداه غي موفوزين.

وكنت جالساً في الصف القائم أمام النائب البابوي، على بعد حوالي أربعة عشر مقعداً عنه، وسألني ما الذي أراه، فأجبتته بأنني موافق على ما قاله كونت يافا، وعندها سألني وهو غاضب جداً، كيف أتصور أن بإمكان الملك متابعة الحملة، مع العدد الضئيل من الرجال المتوفر لديه، وشعرت بغضب شديد شخصياً، لأنني اعتقدت أنه ما قال هذا إلا ليغضبني فأجبتته قائلاً: «سوف أخبرك ياسيدي، طالما أنك طلبت لتعرف، يقول الناس — علماً بأنني لا أعرف فيما إذا كان ذلك صحيحاً — بأن الملك لم يصرف حتى الآن أيّاً من أمواله، بل صرف من مداخيل الكنيسة، وبناء عليه لندع الملك ينفق بعضاً من موارده للحصول على الفرسان من المورة ومن أماكن أخرى من بلاد ما وراء البحر، فعندما يعرفون بأنه يدفع بشكل جيد وبكرم، سوف يتدفق الفرسان علينا من كل مكان، وبذلك سيكون — إن شاء الرب — قادراً على الصمود في الميدان لمدة سنة، وسوف يكون، بالوقت نفسه، ببقائه هنا قادراً على تحرير الأسرى المساكين، الذين أخذوا أسرى، وهم في خدمة الرب وخدمته شخصياً، وهؤلاء طبعاً لن يطلق سراحهم إذا ما سافر وابتعد»، ولم يكن هناك في ذلك المكان أحد لم يكن لديه صديق قريب في الأسر،

ولذلك ما من أحد انتقدي، بل بدأ الجميع يبكون.

وبعدما أجمت النائب البابوي، إلتفت إلى الفارس الجيد وليم دي ييمونت، الذي كان آنذاك مارشال فرنسا، وسأله عن رأيه، فأجابه بأنه يعتقد بأنني تكلمت بشكل معقول تماماً، وأضاف: «سوف أخبرك لماذا أعتقد ذلك»، وعلى كل حال في تلك اللحظة، شرع عمه، الفارس الجيد جين دي ييمونت، الذي كان متشوقاً جداً للعودة إلى فرنسا، بمخاطبته بطريقة مهينة جداً، فقد صرخ قائلاً: «أيها الوغد القذر، ما الذي تقصده؟ اجلس وأمسك لسانك»، وبناء عليه قال الملك لجين دي ييمونت: «أيها السيد، هذا خطأ عظيم منك، دعه يقول الذي يريد أن يقوله» ورد عليه الفارس قائلاً: «حقاً ياسيدي، لن أسمح له»، وشعر المارشال بأنه مرغم على الصمت، ولم يقم أحد بعد ذلك بالوقوف معي، باستثناء صاحب شاتني Chatenay ، وقال الملك أخيراً: «أيها السادة استمعت لما قلتموه، ولسوف أخبركم في حدود أسبوع من الزمان بالذي أنوي القيام به».

وما أن غادرنا الاجتماع حتى بدأ الناس يهزأون بي من كل الجوانب ويقولون: «لاشك سيكون الملك بالفعل أحمقاً، إذا ما أصغى إليك مفضلاً إياك ورأيك على رأي مستشاري جميع مملكة فرنسا».

وبعدما نصبت الموائد، جعلني الملك أجلس إلى جانبه أثناء تناول طعام الغداء، مثلما كان يفعل دوماً عندما يكون أخواه غياب، ولم يقل لي شيئاً طوال وقت تناول الطعام، وذلك على عكس معتاد عاداته، لأنه اعتاد أن يوليني بعض الاهتمام في أثناء تناول الطعام، فخيّل إليّ بالحقيقة أنه غاضب علي، لأنني قلت بأنه لم ينفق بعد أيّاً من أمواله، وينبغي عليه إنفاق أمواله بكرم.

وبينما كان الملك يصغي إلى صلاة النعمة، مضيت إلى نافذة مغلقة

بقضبان حديد عند رأس فراشه، وأممرت ذراعي من خلال قضبان النافذة، ووقفت هناك أفكر أنه إذا ما عاد الملك إلى فرنسا، سوف أذهب إلى أمير أنطاكية، الذي كان من أقربائي، وكان قد طلب مني القدوم والالتحاق به، وسوف أبقى هناك حتى يحين وقت قدوم حملة أخرى إلى بلاد ما وراء البحر، يمكن بوساطتها تحرير الأسرى، وذلك توافقاً مع ما أشار به صاحب بوليانكورت.

وفيا أنا واقف هناك، جاء الملك إليّ، واتكأ على كتفي، ووضع يديه على رأسي، فخيل إليّ أنه كان فيليب دي نيمور الذي أزعجني في ذلك اليوم كثيراً، بسبب المشورة التي أبديتها، ولهذا قلت متبرماً: «توقف عن مضايقتي يا فيليبي الجيد»، وصدف أن أدت رأسي، فانزلت يد الملك فوق وجهي، وهنا أدركت يد من كانت من خلال خاتم حجره زمرد كان في إصبعه، وقال لي: «اهدأ وابقى كما أنت، لأنني أريد أن أسألك كيف يمكن لشاب مثلك أن يكون جريئاً ليشير عليّ بالبقاء هنا، وذلك ضد نصيحة جميع عظماء عقلاء فرنسا الذين نصحوني بالذهاب»؟.

فقلت: «ياصاحب الجلالة، حتى وإن دخلت هذه الفكرة السيئة إلى عقلي، فإنني لن أنصحك بالذهاب مطلقاً»، فسأل: «هل تريد أن تقول بأنني أقترف خطأ، إذا ما رحلت»؟ فقلت: «نعم ياسيدي، بعون الرب»، ثم إنه قال: «إذا بقيت هنا، هل ستبقى أنت أيضاً»؟ فأجبت: «أكيد، إذا ما استطعت، إما على حسابي أو على حساب واحد آخر»، فقال: «يمكنك الاطمئنان من هذه الجهة، لأنني مسرور جداً منك، للنصيحة التي قدمتها، لكن لاتتحدث عن هذا إلى أحد حتى ينتهي الأسبوع».

وشعرت براحة كبيرة لدى سماعي هذا، ودافعت عن نفسي بجرأة أعظم ضد الذين هاجموني، وحدث أن الفلاحين في تلك المنطقة كانوا يعرفون باسم «كولت Colts»، وكان الأخ بيير دي أفالون Avallon،

الذي كان يعيش في صور قد سمع بهذه الأقاويل، وبأنني دعيت كولت (مهر فتى غرير)، بسبب أنني نصحت الملك بالبقاء في بلادهم، ولهذا بعث إليّ يخبرني بهذا، وحشني على الدفاع عن نفسي ضد الذين وصفوني بذلك، بالقول بأنني أفضل أن أكون «كولت» على أن أكون فرساً هراماً محطماً مثل أي واحد منهم.

وعدنا في يوم الأحد التالي جميعاً لرؤية الملك، وما أن شاهدنا الملك قد اجتمعنا كلنا حتى رسم علامة الصليب على فمه قبل القيام بمخاطبتنا، (ويخيل لي أن قيامه بذلك فيه توجيه للدعوة للروح القدس، لأنه كما قالت لي أمي العزيزة في إحدى المرات، يتوجب عليّ كل مرة أود أن أقول فيها شيئاً أن أنشد العون من الروح القدس، ورسم علامة الصليب حول فمي).

وقال الملك: «سادتي، إنني أشكر بإخلاص جميع الذين أشاروا عليّ بالعودة إلى فرنسا، وكذلك أخص بالشكر الذين نصحوني بالبقاء هنا، ولقد توصلت إلى رأي أنني إذا ما بقيت هنا لن أواجه خطر فقدان مملكتي، بسبب أن الملكة الأم لديها ما يكفي من الرجال للدفاع عنها، وأقمت أيضاً تقديراً لما أخبرني به البارونات السكان في هذه البلاد، من أنني إذا ما غادرت سوف تضيع مملكة القدس، لأن ما من واحد سوف يتجرأ على المكوث بعدما أغادر، وبناء عليه قررت أنني لن أهجر مملكة القدس مهما كانت المعطيات، فقد قدمت أنا إلى هنا لإعادة الاستيلاء على أراضيها والدفاع عنها، ولهذا قررت أخيراً وعزمت على البقاء هنا في الوقت الحاضر، وأقول لكم الآن جميعاً، لكل من النبلاء الذين هم الآن هنا في هذه اللحظة، وإلى جميع الفرسان الآخرين الذين يودون البقاء معي، أقول تعالوا وتحذثوا إلي بجرأة وصراحة كما ترغبون، ولسوف أمنحكم شروطاً مغرية، حتى لا يكون الخطأ خطأي بل خطأكم إذا لم تختاروا الإقامة»، وقد امتلأ عدد كبير ممن سمع هذه

الكلمات بالدهشة، وبكى كثير ممن كان هناك.

وقد قيل بأن الملك أمر أخويه بالعودة إلى فرنسا، لكن أكان ذلك بناء على رغبتها وطلبها أم بناء على رغبته، فهذا ما لا يمكنني قوله فعلياً، وحدث إعلان الملك عن نيته بالبقاء في بلاد ما وراء البحر في يوم عيد القديس يوحنا، وبعد مضي شهر، أي في يوم عيد القديس جيمس توجهت للحج إلى مزاره، وقد أضفى عليّ منافع عظيمة، وكان الملك قد عاد إلى غرفته إثر الفراغ من سماع القداس، واستدعى إليه الذين بقوا معه من مستشاريه، وكان هؤلاء: حاجبه بيير، وكان أكثر من رأيته وقابلته في الحاشية الملكية إخلاصاً، وغيوفري دي سارجين، وكان فارساً جيداً وجديراً بالتقدير، وجايل لى برن، الذي كان يساويه قدراً ومكانة، وهو الذي جعل الملك منه القسطلان لفرنسا بعد وفاة إمبرت دي بيجو الطيب.

وتحدث الملك بلهجة صوت مرتفع، وبطريقة أبدى فيها عدم رضاه، حيث قال: «ياسادتي، لقد مضى شهر منذ بات معروفاً أنني مقيم هنا، ولم أسمع بعد أنكم استبقيتم أياً من الفرسان في خدمتي»، فأجابوه: «ياصاحب الجلالة، لقد فعلنا كل ما نستطيعه نحوهم، لكنهم جميعاً — لرغبتهم بالعودة إلى بلادهم — طلبوا أسعاراً عالية جداً مقابل خدماتهم، ونحن لم نتجرأ على إعطائهم الذي سألوه»، وسألهم الملك: «وأيهم يمكنكم الحصول عليهم بشكل أرخص كثيراً؟ فأجابوه: «في الحقيقة ياصاحب الجلالة، سيكون ذلك نائب شامبين، لكننا لم نعطه القدر الذي طلبه».

وصدف أن كنت في غرفة الملك في ذلك الوقت وسمعت ما كانوا يقولونه، فقال الملك: «ليأت النائب إلى هنا»، وبناء عليه ذهبت وركعت أمامه، وطلب مني الجلوس وقال لي: «أنت تعلم أيها النائب أنني كنت دوماً محباً لك، غير أن أتباعي أخبروني أنهم يجدون صعوبة في التعامل

معك، لماذا ذلك؟ فأجبت: «يا صاحب الجلالة، ليس الأمر بيدي، فأنتم تعلمون، أنني عندما أخذت أسيراً فوق الماء، ما من شيء من ممتلكاتي قد ترك معي، بل فقدت كل ما كان لدي»، فسأل عن الذي أطلبه، فأخبرته أنني أحتاج إلى مائتي ألف ليرة ذهبية، فهذا ما يكفيني حتى عيد الفصح، أي أن ذلك سوف يغطي ثلثي السنة.

فقال: «أخبرني الآن، هل حاولت عقد صفقة مع أي من الفرسان؟» فقلت: «نعم، مع بيير دي بونتمولين pontmolain ، وهو واحد من ثلاثة فرسان حملة للأعلام، سوف يكلفني كل واحد منهم أربعمائة ليرة ذهبية حتى عيد الفصح»، ثم قال الملك بعد ما عدّ على أصابعه: «على هذا سوف يكلفك فرسانك الجدد ألفاً ومائتي ليرة ذهبية»، فقلت: «لكن أرجوك يا سيدي أن تقدر أنني لن أتكلف أقل من ثمانمائة ليرة ذهبية للحصول على حصان وعدة وسلاح لي شخصياً، وكذلك للحصول على طعام لفرساني، لأنني — كما أفترض — لن ترغب في أن نتناول أطعمتنا معك»، وهنا قال الملك لمستشاريه: «أنا لا أرى شيئاً مبالغاً فيه في هذه الحالة»، ثم التفت إليّ وقال: «إنني محتفظ بك في خدمتي».

وبعد هذا بأمد قصير أمر أخوا الملك والنبلاء الآخرون في عكا بإعداد سفنهم، وقبل أن يقوم كونت بواتييه بالمغادرة استقرض بعض الجواهر، ممن كان عائداً إلى فرنسا، ووزعهم بكرم وأريحية على المتبقين منا وغير المغادرين، ورجاني كل من أخوي الملك بخرارة بأن أنتبه للملك وأرعى شؤونه، وأخبراني بأنه لا يوجد واحد من بين جميع الذين بقيوا معه يمكنهما الاعتماد عليه سواي، وعندما رأى كونت دي أنجو أن وقت المغادرة قد اقترب، أظهر حزناً عظيماً أدهش كل إنسان ومع ذلك مضى عائداً إلى فرنسا.

وبعد وقت وجيز من مغادرة أخوي الملك، وصل رسل من عند

امبراطور ألمانيا وجلبوا معهم رسائل ثقة واعتماد لجلالته، وأن سيدهم قد أرسلهم ليعملوا على إطلاق سراحنا، وعرض هؤلاء الرجال على الملك رسالة كتبها الامبراطور، ووجهها إلى السلطان المتوفى — دون أن يعرف أنه مات — يخبره بها أن يعتمد كل ما سيقوله الرسل له، فيما يتعلق بإطلاق سراح الملك، وقال كثير من الناس إنه كان من المفيد لنا أن وجدنا الرسل، وقد تحررنا من الأسر، فقد اعتقدوا بأن الامبراطور، قد أرسل الرسل لمضايقتنا وليس لإطلاق سراحنا، وعلى كل حال لقد وجدنا الرسل محررين، ولذلك ذهبوا عائدين.

وعندما كان الملك في عكا، أرسل إليه سلطان دمشق رسلاً لرؤيته وللشكاية إليه بمرارة ضد الأمراء المصريين الذين قتلوا ابن عمه، وقد وعد الملك أنه إذا ما رغب بمساعدته سوف يقوم من جانبه بتسليمه مملكة القدس، الذي كانت بحوزته في تلك الآونة.

وقرر الملك أن يرسل جواباً إلى سلطان مصر بوساطة رسل من عنده، وبعث معهم الراهب إيف (البريطاني) لى بريتون Yves le Breton، وكان راهباً من طائفة الأخوان المبشرين، وكان يعرف لسان المسلمين.

وبينما هم على طريقهم من أماكن إقامتهم إلى قصر السلطان، أبصر الراهب إيف امرأة عجوزاً تمشي عبر الطريق، ومعها طشتاً مملوءاً بفحم يحترق كانت تحمله في يمينها، وفي يسراها قارورة مليئة بالماء، فسألها: «ما أنت عازمة على العمل بهذين؟»، فأجابته المرأة العجوز، بأنها عازمة على أن تحرق الجنة وتدمرها تماماً بتلك النار، ولسوف تطفئ بالماء جهنم، وبذلك تزول إلى الأبد، فسألها الراهب إيف: «لماذا تريدان فعل ذلك؟» فقالت: «لأنني لا أريد أي واحد أن يفعل خيراً من أجل الحصول على الجنة، أو خوفاً من النار، بل أن يفعل ذلك حباً لله، الذي يستحق الكثير منا، والذي سوف يعمل لنا من الخيرات بقدر ما

يستطيع».

وفي حوالي الوقت نفسه، ذهب جون الأرمني، الذي كان معلم صناعة أسلحة الملك، إلى دمشق لشراء مادة قرنية وغراء من أجل صناعة القسي العقارة، ورأى وهو هناك رجلاً متقدماً جداً في السن، جالساً في السوق، واستدعاه ذلك الشيخ العجوز وسأله عما إذا كان مسيحياً، وأجابه جون بأنه كذلك، فقال الرجل العجوز له: «لا بد أنكم أيها النصارى تكرهون بعضكم بعضاً كثيراً، لأنني زأيت منذ زمن قديم مضى الملك بلدوين ملك القدس الذي كان مجذوماً، يهزم صلاح الدين، مع أنه كان لديه ثلاثمائة مقاتل، بينما كان مع صلاح الدين ثلاثة آلاف، غير أنكم الآن بسبب ذنوبكم، تدنيتم كثيراً إلى حد أننا بتنا نتناولكم في ميادين القتال وكأنكم من الأنعام.

وبناء عليه أخبره جون أنه سوف يصنع خيراً إذا ما سكت عن ذنوب المسيحيين، التي نرى أنها لاتعد شيئاً أمام ما نراه يقترف من قبل المسلمين، ورد عليه الرجل المسلم بأنه أجابه بحماقة عظمى، وهكذا سأله جون: لماذا؟ فقال له الرجل العجوز: إنه سوف يجبره لماذا، لكنه سيسأله أولاً سؤالاً، وهكذا سأل جون: هل لديك أولاداً؟ فقال جون: نعم لدي ولد، فسأله العجوز: أيها سوف يغضبه أكثر، أن يتلقى ضربة منه، وهو رجل مسلم، أم من ابنه؟ فرد عليه جون، بأن ذلك سوف يكون مغضباً أكثر مع ابنه، لو أنه فعل مثل هذا الشيء، مما لو الفاعل هو المسلم.

وقال الرجل العجوز: «سوف أعطيك جواباً بالطريقة التالية: أنتم أيها المسيحيون تعدون أنفسكم أبناء الرب، وأخذتم كنيستكم من اسم المسيح، وقد أبدى الرب نحوكم الكثير من النعمة، بأن منحكم معلمين مثقفين، يمكن لكم أن تعرفوا منهم متى تصنعون الصواب، أو متى تقترفون الخطأ، ولهذا نشهد لماذا يغضب هو منكم أكثر بسبب اقترافكم

لبعض الذنوب الصغيرة، مما يغضبسه منا لاقتراف بعض الذنوب العظيمة، إنه يفعل ذلك لأننا نحن تماماً جهلة، وكذلك عميان، لأن محمداً (ﷺ) قد أخبرنا أننا سوف ننقذ بالماء لدى موتنا، ونحن نعتقد أننا سوف نتحرر من جميع ذنوبنا إذا ما غسلنا أنفسنا بالماء قبل أن نموت».

وفي إحدى المرات، كنت بعد عودتي من بلاد ما وراء البحر، في طريقي إلى باريس، وكان جون الأرمني بصحبتني، وبينما كنا نتناول الطعام في سرادق كبير، جاء حشد كبير من الناس يستجدون ويطلبون الصدقة من أجل خاطر الرب، وقد أحدثوا جلبة، وقام واحد من رجالنا الذين كانوا حضوراً، باستدعاء أحد الخدم وقال له: «اذهب على الفور، وإطرد هؤلاء الناس وأبعدهم»، فقال جون: «أواه، إنه لخطأ عظيم قد اقترفته بقولك ذلك، فلو أن ملك فرنسا قد أرسل رسله مع مائة مارك لكل واحد منا، ما كنا طردناهم وأبعدناهم، ومع ذلك إنكم تطردون هؤلاء الرسل الذي يمنحونكم أعظم ما يمكن أن يُمنح، وبكلمات أخرى إنهم يطلبون منكم أن تعطوهم من أجل خاطر الرب، مما يعني أنكم سوف تعطونهم من بعض ما لديكم، وهم سوف يعطونكم الرب نفسه، لأننا نعلم من كلمات الرب نفسه أن الذين هم في حاجة لديهم القدرة على تقديم مثل هذه العطية، وفضلاً عن هذا لقد أخبرنا القديسون أن الفقراء يمكنهم مساعدتنا على إقامة سلم مع الرب، لأنه مثلما تطفئ الماء النار، تتولى الصدقة إزالة الذنب ومحوه»، ثم قال جون: «ولهذا خذوا حذرکم من أن تقوموا بطرد الفقراء وإبعادهم، بل عليكم إعطاءهم والرب يعطيكم».

الفصل الثاني عشر

شيخ الجبل

وصل في أثناء إقامة الملك في عكا رسل بعثوا إليه من قبل شيخ الجبل لرؤيته، وقام بعد عودته من سماع القداس، بالأمر بإحضارهم أمامه، وقد أمر بإجلاسهم بحيث جلس في الأمام أمير ارتدى ثياباً أنيقة جداً، وكان مظهره الخارجي بديعاً، وجلس خلفه شاب من الواضح أنه كان من أسرة جيدة، وهذا ارتدى بدوره ثياباً فائقة، وقد حمل بمقبض يده ثلاثة خناجر، دخلت شفرة كل واحد منها في مقبض الآخر، وكان الغرض من هذه الخناجر تقديمها إلى الملك بمثابة شارة للتحدي، وذلك إذا ما أقدم على رفض مقترحات الأمير، وجلس خلف هذا الشاب شاب آخر، هو الذي لف حول ذراعه قطعة من قماش الكتان، ليقدمها إلى الملك لتكون كفنًا إذا ما رفض مطالب شيخ الجبل.

وبعدما سأل الملك هذا الأمير أن يخبره لماذا جاء، قدم هذا الأمير رسائل اعتماده وقال: «لقد بعث بي مولاي ليسألك عما إذا كنت تعرفه؟» فأجابه الملك بأنه لم يعرفه، لأنه لم يره قط، لكنه غالباً ما سمع الناس يتحدثون عنه، فقال الأمير: «بها أنك سمعت الناس يتحدثون عن مولاي، فأنا مندهش كثيراً لأنك لم ترسل إليه مبلغاً من مالك حتى تستبقيه صديقاً لك، مثلما يفعل امبراطور ألمانيا، وملك هنغاريا، وسلطان القاهرة مع آخرين، سنة إثر سنة، لأنهم يعرفون بشكل مؤكد أنهم يمكنهم البقاء أحياء طالما مولانا راضٍ بذلك»، واستطرد الأمير يقول: «وإذا كان هذا لا يوافقك فعله، عندها يتوجب عليك أن ترتب إعفائه من دفع الجزية التي يؤديها إلى الاستبارة وإلى الداوية، ووقتها سوف يعدكم قد أدبتم واجبكم».

ويمكنني أن أقول بأن شيخ الجبل كان يدفع في ذلك الوقت جزية لكل من هاتين الطائفتين، لأنه لا الداوية ولا الاستبارية كانوا يخشون مطلقاً من الحشيشية، لأن قائدهم كان يعرف تماماً أنه إذا ما جرى قتل أي من مقدمي الاستبارية أو الداوية، سيحل محل المقتول واحد بالجودة نفسها، وعلى هذا ما كان ليكسب شيئاً من موتها، ونتيجة لهذا لم يرغب بالتضحية بحشيشيته في مشروع لن يجلب أية منافع.

وأخبر الملك الأمير بأنه سوف يراه مرة ثانية بعد الظهر، ولدى عودة الرسول وجد الملك جالساً، وعلى يمينه قعد مقدم الاستبارية، وعلى يساره مقدم الداوية، وطلب الملك من الأمير أن يعيد الرسالة التي كان قد قدمها في ذلك الصباح، فرد عليه هذا الرجل بأنه لا يمتلك الرغبة بإعادة ما تقدم وقاله، إلا بحضور الذين كانوا مع الملك في اللقاء الأول، وبناء عليه قال له المقدمان: «نحن نأمرك بإعادة رسالتك»، وأجاب الأمير بما أنهما قد أمراه بذلك فهو سيفعل ذلك، وبعد هذا أمره المقدمان، باللغة العربية بأن يأتي للحديث معهما في مقر الاستبارية في اليوم التالي.

وعندما جاء الأمير في اليوم التالي، وأظهر طاعته لأوامرهما، قاما بإخباره، من خلال مترجم، بأن مولاه قد تصرف بتهور كبير حين تجرأ على إرسال هذه الرسالة الوقحة إلى الملك، وزيادة على هذا أخبراه، لولا أن الأمور مرتبطة بشرف الملك الذي أرسل إليه مع رفيقيه بمثابة رسل، لقاما بإغراقهم في بحر عكا القذر، وذلك على الرغم من شيخ الجبل، ثم قالوا له: «ولهذا نحن نأمرك بأن تذهب إلى مولاك، وأن تعود خلال أربعة عشر يوماً، جالباً معك من عند مولاك رسالة وجواهر يمكن بها الحصول على رضا الملك، وأن تجعله كريماً في سلوكه معكم».

وقبل مضي أربعة عشر يوماً، عاد رسل شيخ الجبل إلى عكا، وجلبوا معهم قميص مولاهم إلى الملك، وقد أخبروه باسم شيخ الجبل، بأن

ينظر إلى معنى ذلك، أنه كما القميص هو الأقرب إلى الجسد من بقية الملابس، هكذا ينظر مولانا إلى الملك ويقدره على أنه الأقرب إلى نفسه في الحب من أي ملك آخر، كما أنه أرسل إلى الملك خاتمه الشخصي، المصنع من أفضل أنواع الذهب، وقد حفر اسمه عليه، ومع هذا الخاتم رسالة قال فيها أنه ربط بهذا الخاتم بتحالف وثيق مع الملك، راجياً بأن يتحدا منذ ذلك الوقت فصاعداً، وكأنهما قد خطبا إلى بعضهما بعضاً.

وكان بين الهدايا التي بعث بها شيخ الجبل إلى الملك تمثال فيل جميل الصنع، وتمثال حيوان آخر يُدعى الزرافة، وتفاح من مختلف الأنواع، كلهم كانوا من الكرستال، وأرسل مع هذه الأشياء ألواحاً للعب وطواقم شطرنج، وكانت هذه الأشياء مطعمة بورود صغيرة مصنعة من العنبر، وقد ربطت بالكرستال بوساطة خيوط دقيقة من الذهب الممتاز.

ويمكنني أن أضيف، أنه عندما فتح الرسل الصناديق الحاوية لهذه الهدايا، صدرت عنهم رائحة طيبة ملأت الغرفة كلها بالعطر.

وأعاد الملك الرسل ومعهم كمية كبيرة من الجواهر، وقطع من الأقمشة القرمزية، وكؤوس من الذهب، وخيول، وقطع من الفضة، وأوكل أيضاً إلى الراهب إيف (البريطاني) لي بريتون أن يذهب معهم، بحكم أنه كان خبيراً بلغة المسلمين، وقد وجد هذا الراهب أن شيخ الجبل لم يكن من أتباع محمد (ﷺ)، بل كان خاضعاً لشريعة علي (رضي الله عنه) الذي كان (ابن) عم محمد (ﷺ).

وكان علي (رضي الله عنه) هو الذي رفع محمد (ﷺ) إلى مكانة الشرف التي تبوأها، لكن ما أن تمكن محمد (ﷺ) من تثبيت نفسه بأن أصبح سيداً على الناس حتى بدأ يحتقر (ابن) عمه، وصار بعيداً عنه، ولدى ملاحظة علي (رضي الله عنه) لهذا، جمع أكبر عدد من الناس من حوله استطاع جمعهم، وعلمهم عقيدة تختلف عن عقيدة محمد (ﷺ)،

وهكذا ما زال قائماً حتى الآن أن جميع الذين يأخذون بالشرعة التي أرسى علي قواعدها، يؤكدون أن أتباع محمد (ﷺ) ضالون في إيمانهم، في حين أن الذين يؤمنون بتعاليم محمد (ﷺ) يؤكدون من جانبهم أن أتباع علي إيمانهم غير صحيح.

وهناك نقطة أخرى قررها علي (رضي الله عنه) أنه إذا ما قتل إنسان وهو في طاعة أوامر مولاه، سوف تذهب روحه إلى جسد إنسان آخر أفضل من المتقدم، وهذا هو السبب في أن الحشيشية لا يتجنبون التعرض للقتل بأي حال من الأحوال، عندما يأمرهم سيدهم بذلك، لأنهم يعتقدون أنهم سوف يكونون أكثر سعادة بعد الموت منهم وهم أحياء.

وهناك عقيدة أخرى يأخذون بها، وهي أن ما من إنسان يمكن أن يموت قبل اليوم المعين لموته، وهذا الاعتقاد لا يجوز لإنسان أن يتمسك به، ممن يرى أن الرب لديه القدرة على إطالة أعمارنا وتقصيرها حسبما يرغب.

ويتبع البدو علياً (رضي الله عنه) في هذه النقطة، ولهذا السبب يرفضون لبس الدروع قبل الذهاب إلى القتال، لأنهم لو فعلوا ذلك، اعتقدوا أنهم سيتصرفون ضد ما أمرت به شريعتهم، ولهذا عندما يلعنون أولادهم يقولون لأحدهم: «عليك اللعنة مثل فرنجي يلبس الدروع لخوفه من الموت».

ووجد الراهب إيف كتاباً قرب رأس سرير شيخ الجبل، مكتوب فيه أشياء كثيرة مما قاله ربنا إلى القديس بطرس، عندما كان على الأرض، وقد قال الراهب له: «آه يا مولاي، من أجل الرب، اقرأ هذا الكتاب مراراً وتكراراً، لأن هذه كلمات جيدة»، وأجابه شيخ الجبل أنه غالباً ما فعل ذلك، وقال: «لأن القديس بطرس عزيز جداً علي، لأنه في بداية خلق الدنيا دخلت روح هايبيل بعد قتله، في جسد نوح (عليه السلام)،

وعادت بعد وفاة نوح فدخلت في جسد إبراهيم (عليه السلام) وعندما مات إبراهيم (عليه السلام) انتقلت من جسده إلى جسد القديس بطرس، وذلك في الزمان الذي جاء فيه مولانا إلى الأرض».

ولدى سماع الراهب إيف بهذا بين لشيخ الجبل أنه قد أخطأ في هذا المعتقد، وشرح له كثيراً من العقيدة الصحيحة، لكن شيخ الجبل لم يعر ما قاله الاهتمام، ولدى عودة هذا الراهب الجيد روى هذه الأشياء جميعاً إلى الملك.

وكان كلما ركب شيخ الجبل وسار، مشى أمامه منادي، يحمل بيده بلطة دانهاركية لها حد طويل مغلف بالفضة، وقد ثبت عليها عدد من الخناجر، وكان الرجل ينادي طوال سيره: «ابتعدوا عن طريق الذي يحمل في يديه موت الملوك».

الفصل الثالث عشر

التتار

لقد نسيت أن أخبركم عن الجواب الذي صنعه الملك لويس إلى سلطان دمشق، وقد بين له أن لانية لديه في التحالف معه حتى يعرف فيما إذا كان الأمراء المصريون سيقدمون له ترضيات عن المعاهدة التي خرقوها، وبناء عليه هو مقبل على مراسلة الأمراء، وإذا ما رفضوا القيام بترضيته، وقتها سيقوم عن طيب خاطر بتقديم العون إلى السلطان من أجل الانتقام لابن عمه، سلطان القاهرة، الذي قتله هؤلاء الرجال.

وأرسل الملك جين دي فالنسيان Valenciennes من عكا إلى مصر مع تعليمات بأن يطلب من الأمراء أن يعرضوا للملك على ما اقترفوه بحقه من مساوئ وأضرار، وقد أجابوه أنهم على استعداد لفعل ذلك، شريطة أن يدخل الملك بتحالف معهم ضد سلطان دمشق.

ووجه جين دي فالنسيان إليهم اللوم بمرارة للإثم العظيم الذي اقترفوه بحق الملك، ونصحهم أيضاً، أنه سوف يكون مفيداً لهم، إذا ما رغبوا في أن يجعلوا جلالته يشعر مشاعر طيبة نحوهم، بأن يرسلوا إليه جميع الفرسان الذين ما زالوا أسرى لديهم، وعمل الأمراء كما نصحهم، وبالإضافة إلى ذلك أرسلوا إليه جميع عظام كونت دي بريين، حتى يمكن دفنهم في بقعة طاهرة.

وبعدما جاء جين دي فالنسيان إلى عكا، وجلب معه مائتي فارس أطلق سراحهم من الأسر إلى جانب رجال من مراتب أدنى، قامت صاحبة صيدا، التي كانت ابنة عم الكونت غوتير، وأخت غوتير دي رينل Reynl — التي تزوجت أنا من ابنتها بعد عودتي من بلاد ماوراء البحر — فأخذت بقايا الكونت الجيد، وتولت أمر دفنهم في كنيسة

الاستبارية في عكا، وأجرت القداس بحيث يقوم كل فارس بتقديم شمعة ودرهم فضة، بينما قدم الملك شمعة ودينار ذهبي، وكان كل الذي جرى تقديمه على حسابها الخاص، وعلت الدهشة الناس كثيراً عندما وافق الملك على هذا، لأنه لم يعرف حتى ذلك الحين أنه منح مالاً إلا من ماله الخاص، وهو حين فعل ذلك في هذه المناسبة كان صدوراً عن لطفه نحو السيدة.

ووجدت بين الفرسان الذين جلبهم معه جين دي فانسيان أربعين فارساً كانوا من فرسان كونت دي شامبين، وقد أمرت بإعداد قمصان ومعاطف من قماش أخضر لهم ليلبسوها، وأخذتهم إلى الملك، فمثلوا أمامه، ورجوته أن يمنحهم عروضاً جيدة حتى يبقوا في خدمته، وأصغى الملك لما طلبوه، لكنه لم يقل شيئاً جواباً لهم.

وأخبرني واحد من الفرسان من مستشاري الملك أنني لم أتصرف بشكل جيد بتقديمي مثل تلك الاقتراحات، بما أنه كان مداناً بسبعة آلاف ليرة ذهبية، وأخبرته أن عليه أن يكون أسفاً لتعليقه هذا، وأضفت بأننا رجال شامبين قد خسرنا خمساً وثلاثين ألف فارس، كلهم من حملة الأعلام، وذلك من بين الفرسان الذي انضموا إلى بلاطنا، ومضيت أقول: «والملك لن يصنع حميداً إذا ما أصغى إليك، وهو يرى مدى حاجته إلى الفرسان»، وعندما أنهيت كلامي انفجرت باكياً، وبناء عليه طلب الملك مني الهدوء، وبين أنه سوف يعطي هؤلاء الفرسان كل ما سألته، وهكذا استخدمهم الملك حسبما رغبت، وألحقهم بفرقتي.

وأعطى الملك الآن جوابه إلى الرسل الذين قدموا من مصر، وأخبرهم أنه لن يبرم معاهدة مع الأمراء ما لم يقوموا أولاً بإرسال رؤوس جميع المسيحيين التي علقت حول أسوار القاهرة منذ الأيام التي أخذ بها كونت دي بار، وكونت مونتفورت أسيرين، وثانياً: ما لم يقوموا بتسليم جميع الأطفال الذي أخذوا وهم صغار السن وقاموا بالتخلي عن

عقيدتهم، وثالثاً : ما لم يعفوه من دفع مائتي ألف ليرة ذهبية، مازال مدان بها إليهم.

وأعاد الملك الرسل المصريين إلى بلادهم يرافقه الرجل الشجاع والحكيم جين دي فالنسيان.

ومع بداية الصوم الكبير استعد الملك مع جميع القوات التي توفرت لديه للذهاب والقيام بتحصين قيسارية، وهي بلدة قائمة على بعد أربعين فرسخاً عن عكا على الطريق إلى القدس، وكان المسلمون قد دمروها، وقد رافق راؤول دي سواسون — الذي كان قد بقي في عكا بسبب مرضه — جلالتة في هذه الحملة، ولا أستطيع أن أبين كيف أن المسلمين لم يلحقوا بنا الأذى طوال ذلك العام، ما لم تكن تلك إرادة الرب، وبينما كان الملك مشغولاً في تحصين قيسارية، عاد الرسل الذين كان قد أرسلهم إلى بلاد التتار، وسأروني لكم الآن الأخبار التي جلبوها.

وكنت قد حدثتكم، أنه عندما كان الملك مقيماً في قبرص، قدم إليه رسل من عند التتار وأعطوه شعوراً وفهماً أنهم سوف يساعدونه في الاستيلاء على مملكة القدس، وانتزاعها من المسلمين، وعندما أعاد الرسل إلى الملك بعث معهم، بوساطة رسله، كنيسة صنعت بناء على أوامره من قماش قرمزي، ولكي يجذب التتار إلى عقيدتنا أمر بصنع مجموعة من التماثيل حتى توضع في هذه الكنيسة ممثلة لكل نقطة من ديننا أي: بشارة الملاك، والولادة، واحتفال تعميد الرب، ومراحل الآلام، وقدوم الروح القدس، وأرسل مع الكنيسة أيضاً كؤوساً، وكتباً، وكل ما هو ضروري للاحتفال بالقداس، مع اثنين من الرهبان المبشرين ليقوما بتراويل القداس أمام التتار.

ووصل رسل الملك إلى ميناء أنطاكية، واحتاجوا من هناك مدة سفر

سنة كاملة، وكانوا يقطعون كل يوم مسافة عشرة فراسخ، وكان هدفهم الوصول إلى ملك التتار العظيم، وقد وجدوا كل البلاد التي مروا خلالها خاضعة لهذا الملك، ورأوا كثيراً من المدن هدمها التتار، وأكواها من عظام الرجال الموتى.

وقد سألوا كيف استطاع التتار الحصول على مثل هذه السلطة، وقتلوا ودمروا أعداداً كبيرة من البشر، وقد أخبر الرسل الملك بأن التتار تمكنوا من بلوغ ذلك وفق مايلي:

لقد جاء التتار بالأصل من سهل رملي واسع، لا يثبت فيه شيء نافع، وكان يوجد في النهاية القصوى لهذا السهل صخوراً ضخمة ومخيفة، وكان ذلك على طرف العالم باتجاه الشرق، وقد أكد التتار أن ما من إنسان تمكن قط من اجتيازهم، وقد قيل إنه في داخل هذه الصخور محبوس عرق العمالقة من يأجوج ومأجوج، الذين سوف يظهرون قبيل قيام القيامة، عندما يأتي المسيح الدجال لتدمير كل شيء.

ولقد عاش شعب التتار على هذا السهل، وكانوا خاضعين لبرسترجون ولشاه فارس (خوارزم شاه) الذي تاخمت بلاده بلاده، وكذلك بلاد عدد من الملوك الكفار، وقد دفعوا (التتار) إلى هؤلاء الجزية، وأدوا لهم خدمات كل سنة مقابل السماح لمواشيهم بالرعي، ولم يكن لديهم وسيلة أخرى للعيش، وازدرى برسترجون، وشاه فارس والملوك الآخرون التتار، حتى أنهم عندما كانوا يجلبون إليهم إيجاراتهم، لم يستقبلوهم قط وجهاً لوجه، بل أداروا ظهورهم لهم.

وكان بين التتار رجل عاقل، ارتحل في جميع أرجاء السهل، وتحدث إلى الرجال الحكماء الذين عاشوا هناك في عدد من المناطق المختلفة، وقد بين لهم حالة العبودية التي كانوا يعانون منها، وحثهم على إيجاد السبل التي يمكنهم بها تحرير أنفسهم من القيود.

ونشط بشكل مؤثر حتى تمكن من حشد التتار كلهم في النهاية القصبوى للسهل، وذلك قرب بلاد برسترجون، وشرح القضايا لهم، وطلبوا منه أن يبين لهم ما الذي يريده، وهم سوف يتولون التنفيذ، وأخبرهم الرجل الحكيم أنهم لن ينالوا النجاح ما لم يكن لهم ملك يتولى حكمهم، ثم أوضح لهم كيف يمكنهم العمل على اختيار ملك، وقد وافقوا على الأخذ بنصيحته.

وكانت الطريقة التي تبناها هي التالية: لقد توجب على كل قبيلة من القبائل الاثنتين والخمسين قبيلة التي تكونت منها أمتهم، جلب سهم كتب عليه اسم القبيلة، ووافق الشعب جميعاً على وضع هذه الأسهم أمام طفل عمره خمس سنوات، والسهم الذي كان الطفل سيلتقطه أولاً، سيعني تعيين القبيلة التي يتوجب اختيار الملك منها، وبعدها التقط الطفل أحد السهام، أمر الرجال الحكماء بقية القبائل بالانسحاب إلى الخلف، وجرى الاتفاق على أن تقوم القبيلة التي سيتم اختيار الملك منها، بانتخاب اثنين وخمسين رجلاً من أفضل رجال القبيلة وأكثرهم حكمة، وبعدها جرى انتخاب هؤلاء الرجال ، أحضر كل واحد منهم سهماً نقش عليه اسمه، ثم تم الاتفاق على أن سهم الرجل الذي سوف يلتقطه الطفل ، سوف يتخذ ملكاً.

والتقط الطفل واحداً من الأسهم، وكان السهم هو الذي امتلكه الرجل العاقل الذي تولى إرشاد التتار، وفرح الشعب كله، وأطلق كل واحد منهم لنفسه العنان في التعبير عن بهجته، وطلب الرجل الحكيم منهم جميعاً التزام الصمت، وهنا خاطبهم قائلاً: «أيها السادة، إذا ما رغبتم في أن أكون ملككم، أقسموا لي بالذي صنع الأرض والسماء أنكم ستنفذون دوماً ما أمركم به» وأقسم الناس جميعاً أن يفعلوا كذلك.

وكانت شرائع الرجل العاقل التي أصدرها لهم تستهدف الحفاظ على

السلام بين شعبه، وقد ذهبت إلى: أنه لا يجوز لأحد الاستيلاء على حوائج إنسان آخر، وأن لا يضرب إنساناً آخر أو ابنته، وإذا فعل ذلك تعرض لقطع يده، كما لا يجوز للإنسان معاشرته زوجة إنسان آخر أو ابنته، وإذا فعل ذلك يفقد يده، أو يفقد حتى حياته، كما أصدر شرائع أخرى جيدة، من أجل الحفاظ على السلام بين رعاياه.

وبعدما أرسى قواعد الشريعة والنظام بين التتار قال الملك لهم: «أيها السادة، إن أعظم أعدائنا هو برسترجون، لذلك إنني أمركم جميعاً أن تستعدوا للاقلاع بحملة عسكرية عليه غداً، وإذا حدث وهزمتنا — لاسمح الرب بذلك — ليناضل كل إنسان عن نفسه بقدر ما يستطيع، وإذا حدث من جانب آخر وهزمتنا، أمر بأن يستمر القتل برجاله لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليال، ولا يجوز لأي إنسان خلال تلك الأيام أن يبادر نحو الاستيلاء على أي أسلاب أو وضع يده عليها، بل المتوجب إنشغال كل إنسان بقتل أعدائه، وبعدما نضمن انتصارنا، سوف أوزع الغنائم فيما بينكم بعدل وبإخلاص بحيث يبقى كل واحد فيكم راضياً»، ولاقى هذا الاقتراح قبولاً عاماً.

وهاجم التتار في اليوم التالي أعداءهم، وقضى الرب لهم بهزيمتهم، وأعملوا السيف بكل الذين وجدوهم حاملين للسلاح وقادرين على الدفاع عن أنفسهم وقتلوهم، غير أنهم وفروا حياة الذين وجدوهم يعيشون في البيوت الدينية، والكهنة والرهبان سواء، ووضع الناس الذين هم من بلاد برسترجون، ولم يشاركوا بالحرب، أنفسهم تحت حكم التتار، وصاروا رعايا لهم.

واختفى أمير من القبائل التي قدمت ذكرها لمدة ثلاثة أشهر، وما من أحد سمع أية أخبار عنه، ولدى رجعته لم يشعر لا بالجوع ولا بالعطش، واعتقد أنه مكث بعيداً لمدة لا تزيد عن ليلة واحدة إلى أبعد الحدود، وكانت الأخبار التي جلبها معه أنه مضى إلى قمة رابطة عالية جداً،

حيث وصل إلى عدد كبير جداً من الناس، وكانوا من أجمل المخلوقات التي رآها قط، وقد ارتدوا ثياباً ثمينة، وتزينوا بأهبي زينة، ورأى الطرف الأقصى من الرابية ملكاً، وكان رجلاً وسيماً جداً، وأهبي من البقية، وقد ارتدى ثياباً أئمن وأعلى زينة، وجلس هذا الملك فوق عرش من ذهب، وجلس على يمينه ستة ملوك آخرين، وكلهم ارتدوا تيجاناً تتلألاً بشعاع الأحجار الكريمة، وجلس عن يساره العدد نفسه من الملوك، وركعت على مقربة منه، وقليلاً باتجاه اليمين، ملكة عزمت على التوسل له ليعطف على شعبها، وركع على يساره رجل متفوق الجمال، له جناحان يتألقان مثل الشمس، ووقف حول الملك جمع من الناس الجميلي الطلعة وكانوا كلهم مجنحين.

واستدعى الملك الأمير إليه وقال: «لقد قدمت من جيش التتار؟»، فأجابه الأمير: «هذا صحيح، يا صاحب الجلالة»، ثم قال الملك له: «عليك أن تذهب إلى ملكك وأن تخبره كيف رأيتني، أنا الذي مولى السموات والأرض، وعليك أن تخبره أن عليه تقديم الشكر لي، لأنني منحته النصر على برسترجون وعلى شعبه، وقل له على لساني، بأنني قد أعطيته القدرة على أن يجعل الأرض خاضعة له»، وسأل الأمير: «لكن يا صاحب الجلالة، كيف يمكنني أن أجعله يصدقني؟»

فأجابه: «سوف تجعله يصدقك بهذه العلامات: إنك ستذهب وستقاتل شاه فارس بوساطة ثلاثمائة رجل، بدون زيادة، وبذلك سوف يؤمن ملكك العظيم بأنني أمتلك القدرة على فعل كل شيء، فلسوف أمنحك النصر على هذا الملك، الذي سوف يزحف ضدك مع أكثر من ثلاثة آلاف مقاتل، لكن عليك قبل أن تذهب إلى حرب الشاه أن تطلب من ملكك أن يمنحك السلطة على جميع الكهنة والرهبان الذين أسرهم في المعركة الأخيرة، ويتوجب عليك وعلى شعبك الإصغاء إليهم، وأن تتمسكوا بشدة وأن تؤمنوا بما سيعلموكم إياه»، فقال الأمير: «يا صاحب

الجلالة، لا يمكنني أن أجد طريق العودة ما لم تعطيني دليلاً».

والتفت الملك نحو حشد كبير من الفرسان، وكانوا جميعاً مسلحين ومجهزين بشكل رائع، واستدعى واحداً منهم بقوله: «تعال إلى هنا يا جورج»، وتقدم الفارس وركع أمامه، ثم قال الملك له: «انهض، وقد هذا الرجل سليماً ومعافى إلى خيمته»، فنفذ هذا الفارس الأمر في صباح يوم عند انبلاج الفجر.

وما أن رأى شعب الأمير أميرهم حتى شعروا هم وبقية الجيش بالسرور وأظهروا بهجة عظيمة لا يمكن وصفها بالكلام، وطلب من الملك العظيم أن يعطيه الكهنة، واستجاب الملك لطلبه، وتأثر هو وشعبه كثيراً بتعاليم الكهنة، حتى أنهم تعمدوا جميعاً، واختار الأمير بعد هذا ثلاثمائة رجل مسلح، وأمرهم بأن يقوموا بالاعتراف، وأن يستعدوا للقتال، ثم مضى وحارب ضد شاه فارس، ولقد هزموه، وطرده من مملكته، ولهذا هرب، وتابع فراره حتى لجأ إلى القدس (فهذا الشاه نفسه كان الرجل الذي هزم شعبنا، وأسر الكونت غوتير دي برين، وذلك حسبما سأخبركم فيما بعد).

وكان تعداد الشعب الذي خضع لحكم هذا الأمير المسيحي كثيراً جداً، فقد أخبرنا الرسل بوجود ثمانمائة بيعة موضوعة فوق عربات في معسكره.

وكانت طريقة التتار بالعيش أنهم لم يأكلوا خبزاً قط، بل كانوا يتقوتون على اللحم والحليب فقط، وكانت أفضل أنواع اللحوم لديهم هي لحوم الخيل التي كانوا ينقعونها بالملح، ثم يدعوها بعد ذلك تجف إلى درجة يمكنهم بها تقطيعها مثلما يقطع الإنسان الخبز الأسود، وكان شراهم المفضل، وهو بالوقت نفسه الشراب الأقوى، هو حليب إناث الخيل، وجاء في إحدى المناسبات فرس محمل بحمل من الطحين من

مسافة رحلة ثلاثة أشهر، وقد قدم هدية إلى ملك التتار العظيم، وقد أعطى بدوره هذه البضاعة إلى رسل الملك.

وبالإضافة إلى المسيحيين الذين أتيت على ذكرهم، هناك أيضاً أناس يتبعون ديانة أخرى، فهناك بين التتار عدد كبير من الناس المرتبطين بالكنيسة الإغريقية، وكان كلما رغب التتار في شن الحرب ضد المسلمين، كانوا يبعثون بهؤلاء المسيحيين للقتال ضدهم، وكانوا من جانب آخر يستخدمون المسلمين في أي حرب ضد المسيحيين، وكان من عادتهم اصطحاب النساء اللاتي بلا أولاد من جميع الطبقات مع الجيش في أثناء الحملات، وكانوا يدفعون لهن الأجر نفسه الذي يدفعونه إلى الرجال، وذلك حسب قواهن وشجاعتهن.

وأخبرنا رسل الملك أن النساء والرجال من الجند كانوا يتناولون وجبات أطعمتهم معاً في محلات قادتهم الذين عملوا تحت خدمتهم، ولم يتجرأ الرجال — طاعة منهم للشيعة التي أصدرها ملكهم الأول — على المغامرة بإقامة اتصالات مع النساء.

وأكل الناس لحوم كل أنواع البهائم التي كانت تموت في معسكرهم، وكانت النسوة اللاتي لديهن أطفال يقمن برعاية الأولاد وحفظهم من الأذى، وتجهيز الطعام للرجال الذين يذهبون إلى القتال، وكان الجند يضعون اللحوم غير المطبوخة بين سروج خيولهم وأطراف معاطفهم، وعندما يكون الدم قد خرج تماماً من اللحم يأكلون هذا اللحم كما هو نيئاً، والذي لا يمكنهم أكله في تلك الساعة، كانوا يرمونه في حقائب من الجلد، وعندما كانوا يشعرون بالجوع كانوا يفتحون حقائبهم، ويأكلون القطع الأقدم دوماً، وأنا رأيت شخصياً واحداً من الخوارزمية، وكان من رجال شاه فارس، كان يتولى حراستنا في أثناء أسرنا، رأيت يفتح حقيبته، وعندما كان يفعل ذلك كنا نمسك أنوفنا بأيدينا لنسدها، لأننا كنا غير قادرين على شم رائحة التتن التي صدرت عنها.

ودعوني أعود الآن إلى سياق الرواية التي أنا بصدددها، كيف أن ملك التتار العظيم، قام بعدما استقبل سفراء ملكنا، وتلقى هداياه، فجمع عدداً من الحكام الذين لم يكونوا قد دخلوا في طاعته، وذلك بعدما أعطاهم الأمان، وعندما قدموا أمر بنصب البيعة الجديدة ليراها الجميع، وخاطبهم بمايلي: «أيها السادة، لقد بعث ملك فرنسا يلتمس عطفنا، ووضع نفسه تحت طاعتنا، ويمكنكم أن تروا هنا الجزية التي أرسلها لنا، وإذا لم تخضعوا بأنفسكم لنا سوف أرسل إليه ليقوم بتدميركم»، وهنا قام عدد كبير منهم لخوفهم من ملك فرنسا بالخضوع إلى ملك التتار.

وعندما عاد سفراء الملك، جاء بصحبتهم سفراء آخر من عند ملك التتار، وقد جلبوا معهم رسالة إلى ملكنا جاء فيها: «السلام أفضل شيء، لأن أرضاً تعيش بسلام يمكن لمن يدب فيها على الأربعة المضي إلى الحقول للرعي، دون أن يزعجهم أحد، ويمكن في الوقت نفسه للذين يسرون على اثنتين أن يتولوا فلاحه الأرض — التي تخرج منها جميع الأشياء الجيدة — بأمان كامل، ونحن إذ نخبركم بهذا، نفعل ذلك عن طريق التحذير والإنذار، لأنك لن تعرف السلم ما لم تكن بسلام معنا، فقد ثار برستر جون ضدنا، وكذلك فعل كذا وكذا من الملوك — وقام هنا بذكر أسماء عدد كبير — وقد جعلناهم جميعاً طعمة للسيف، ولهذا ننصحك بأن تبعث إلينا بكمية كافية من أموالك سنوياً، لتدفع إلينا حتى نبقى أصدقاء لك، وإذا ما رفضت فعل هذا سوف ندمرك، مثلما دمرنا الملوك الذين أتينا على ذكر أسمائهم»، ويمكن أنؤكد لكم بأن ملكنا قد أسف بمرارة لأنه قام بإرسال رسله إلى ملك التتار العظيم.

الفصل الرابع عشر

إقامة في قيسارية

آذار ١٢٥١ — أيار ١٢٥٢

ولسوف ألتقط الآن المسار الأساسي لروايتي ثانية، ومن ثم أخبركم، أنه عندما كان الملك يقوم بتحسين قيسارية، جاء رجل اسمه ألينارد Alenard، وكان نبيلاً من سننغان Senaingan إلى معسكرنا، وأخبرنا بأنه بنى سفينته في مملكة النروج القائمة في نهاية الدنيا، باتجاه الغرب، وقام في أثناء رحلته من أجل رؤية الملك بالإبحار حول ساحل إسبانيا، ومرّ من خلال مضائق المغرب، وواجه مخاوف عظيمة قبل ان يصل إلى قيسارية، وقد احتفظ به الملك وأدخله في خدمته وذلك مع تسعة من فرسانه، وأخبرنا ألينارد، بأن الليل في بلاد النروج قصير جداً في الصيف إلى حد أنك ترى كل مساء ضوء النهار الراحل يتداخل مع فجر النهار المقبل.

وانطلق هو ورجاله لاصطياد الأسود، وقد أمسكوا عدداً منها بعد ما خاطروا بأنفسهم مخاطرة عظيمة، لأنهم عندما كانوا يتقدمون لرمي هذه الحيوانات، كانوا يهززون خيولهم لتعدو بأقصى سرعة ممكنة، وما أن يفقدوا نشابهم حتى كانت الأسود تثب عليهم، وتمسك بأحدهم وتفترسه لولا أن يلقي من يده قطعة من القماش البالي، بحيث يقفز الأسد عليها ويمزقها ويلتهمها، ظاناً أنه قد أمسك بانسان، وفيما الأسد يتولى تمزيق قطعة القماش، يقوم صياد آخر بالتقدم نحوه والرمية عليه، وهنا يقوم الأسد بترك عملية تمزيق قطعة القماش، ويمضي ضد عدوه الجديد، ويبادر هذا بدوره إلى إلقاء قطعة أخرى من القماش، فيقوم الأسد بالقفز عليها بدون تأخير، ويتمكنون بهذه الطريقة من قتل

الحيوان بأسهمهم.

وبينما كان الملك لويس مايزال مشغولاً في قيسارية، قدم فيليب دي توسي Toucy للالتحاق به، ودعاه الملك بابن العم، لأنه انحدر من أخت للملك فيليب ملك فرنسا، كانت قد تزوجت من امبراطور القسطنطينية، وقد استبقاه الملك في خدمته لمدة سنة مع تسعة من فرسانه، فقد غادر بعد ذلك وعاد إلى القسطنطينية، التي كان قد جاء منها.

وقد أخبر الملك بأن امبراطور القسطنطينية والنبلاء في تلك المدينة قد تحالفوا مع شعب يعرف باسم الكومان، وذلك لكي ينالوا دعم هذا الشعب ضد فاتاسيز Vataces، امبراطور الاغريق.

ولكي يتوثقوا من أن كل فئة سوف تساعد الفئة الأخرى باخلاص، خضع امبراطور القسطنطينية والنبلاء الذين كانوا برفقته إلى عملية استخراج بعض الدم من كل منهم، ووضعوا دماءهم في طشت كبير من الفضة، وفعل ملك الكومان والنبلاء الذين كانوا معه، بدورهم الشيء نفسه، ومزجوا دماءهم مع دماء شعبنا، وبعد إضافة الماء والنيذ إلى ذلك المزيج، شرب رجال الفئتان من الطشت، وبناء عليه أعلنوا عن أنفسهم أخوة بالدم، ثم جعلوا كلباً يعدو بين شعبنا وبين الكومان، وانهال الطرفان عليه ضرباً فقطعوه إلى مزق بسيوفهم، وتعهدوا بالوقت نفسه أن الذي سيتخلى عن الطرف الآخر في هذا التحالف، سيمزق إلى مزق بالطريقة نفسها.

وحدثنا فيليب دي توسي أيضاً عن أعجب مشهد رآه عندما كان في معسكر الكومان، فقد توفي فارس من مرتبة عالية جداً بينهم، فأمروا بحفر قبر عميق جداً وواسع في باطن الأرض، ووضعوا في هذا القبر الفارس، وقد ألبسوه ثياباً فاخرة جداً، وأقعدوه على كرسي، ثم أنزلوا

إلى القبر أفضل فرس كان لديه، وكذلك أحسن سيرجندي بين رجاله، وهما أحياء، وكانوا، على كل حال، قبل أن يضعوا السيرجندي في القبر، قد قام هذا باستئذان ملك الكومان مع السادة الآخرين، وفي الوقت الذي كان يودعهم، قام كل واحد من هؤلاء السادة بوضع كميات كبيرة من الذهب والفضة في ملحفته قائلاً له: «عندما سأتي إلى العالم الآخر، سوف ترد لي ما أودعتك إياه الآن»، ويجيبه السيرجندي: «هذا مأسأفعله بكل سرور».

ثم قام ملك الكومان الكبير باعطاء السيرجندي رسالة موجهة إلى أول ملوكهم، أخبره فيها بأن هذا الرجل الصالح قد عاش حياة جيدة، وخدم سيده خدمة حسنة، وبذلك استحق عن جدارة المكافأة، وبعد هذا جرى إنزال هذا السيرجندي إلى القبر ليكون مع مولاه، ومع الفرس الحي، وإثر هذا قاموا بسدّ فتحة القبر بإلقاء ألواح من الخشب متلاصقة فوقه، وسعى في الوقت نفسه جميع رجال الجيش للحصول على الصخور والأتربة، وقبل ذهابهم إلى النوم في تلك الليلة. كانوا قد رفعوا فوق القبر رابية كبيرة، لتكون ذكرى لمن دفنوه كما وصفنا.

وذهبت في أحد الأيام، عندما كان الملك في قيسارية، إلى رؤيته في محلاته، فوجدته يتحدث إلى النائب البابوي، وما أن رأي أدخل إلى حجرته حتى قام وأوقفني جانباً ليتحدث إليّ حيث قال: «إنك تعلم أنني احتفظت بك في خدمتي حتى عيد الفصح، وبناء عليه أخبرني من فضلك ما الذي يمكنني دفعه إليك لإبقائك معي مدة سنة بعد ذلك التاريخ»، فأخبرته أنني لا أريد منه أن يعطيني المزيد من ماله، أكثر مما دفعه، غير أنني أود أن أبرم معه صفقة أخرى.

فقلت له بعد هذا: «بما أنك تغضب عندما يوجه إليك طلب أي شيء، أريد أن أعقد إتفاقاً معك، أنني إذا ما تقدمت لك بأي طلب خلال ذلك العام، لن تظهر أي غضب، وفي الوقت نفسه إذا ما رفضت

طلبي، إنني من جانبي لن أغضب أيضاً».

ولدى سماع الملك لهذا الكلام انفجر ضاحكاً، وقال إنه سيحتفظ بي بخدمته وفقاً لهذه الشروط، ثم أخذني من يدي، واقتادني نحو النائب البابوي، ونحو مستشاريه، وحدثهم عن الصفقة التي أبرمناها، وكانوا مسروين لسماع ذلك، لأنني كنت أعلى الرجال مرتبة في الجيش، وأكثرهم نفوذاً فيه.

ولسوف أخبركم الآن كيف خططت لحياتي ونظمتها أثناء السنوات الأربع التي بقيت فيها في بلاد ماروآء البحر، بعد عودة أخوي الملك إلى فرنسا: فلقد كان لدي قسيسين توليا القراءة لي طوال ساعاتي، فأحدهما كان يقوم بتلاوة القديس لي منذ بزوغ الفجر، وكان الآخر ينتظر حتى يستيقظ فرساني المرتبطين بفرقتي، وكنت بعدما أفرغ من سماع القديس أذهب إلى رؤية الملك، فإذا ما رغب بالخروج ركباً، كنت أرافقه، وحدث في بعض الأحيان وصول رسل لرؤيته، وعلى هذا كانت لدينا أعمال كثيرة لانجازها في أثناء الصباح.

وكان فراشي موضوعاً في سرادقي بطريقة يستحيل فيها على أحد الدخول إليه دون أن يراي أنا متمدد هناك، وقد فعلت ذلك لأحول دون أي انسان بظن السوء بي فيما يتعلق بالنساء، وقمت كل سنة في يوم عيد القديس ريميجوس Remigius (١ - تشرين أول) بشراء خنازير ملىء حظائري، ومواشي أيضاً من أجل حظائري، وكذلك ما يكفي من الطحين والنييد لإبقاء محلاتي ممونة طوال الشتاء، وقد فعلت هذا بحكم أن المواصلات تصبح في الشتاء غير مؤكدة وليست مثلها في الصيف، وبذلك تكون المؤن أغلى سعراً وأقل وجوداً.

واعتدت على شراء مائة برميل من النييد، وكنا نشرب الأفضل أولاً، وكنت أمزج الخمرة بالماء وأقدمها لخدمتي، وأعطي الشيء نفسه إلى

أتباعي، لكن بنسبة أقل من الماء، وكان يوضع على مائدتي دناً كبيراً من الحمرة وقارورة ماء، وذلك أمام كل واحد من الفرسان حتى يتمكن من مزج شرابه حسبها يرغب.

وأعطاني الملك خمسين فارساً للخدمة في فرقتي، وكان يصاحبني في كل وجبة طعام عشرة من هؤلاء يجلسون إلى سماطي وذلك بالاضافة إلى فرساني العشرة، وكانوا يأكلون تبعاً لعادات تلك البلاد بمواجهة بعضهم بعضاً، بحيث كانوا يجلسون على حصر على الأرض، وفي كل مرة كانت تصدر فيها الدعوة إلى السلاح، كنت أجيب الدعوة فيها بارسال أربعة وخمسين من فرساني، وكان هؤلاء يعرفون بقيادة العشرافات، لأن كل واحد منهم كان يتولى إمرة عشرة رجال، وكنا كلما خرجنا مسلحين، كنت أقدم وجبة طعام في محلاتي لهؤلاء الفرسان لدى عودتهم، واعتدت خلال جميع الأعياد السنوية على دعوة القادة الرئيسيين في الجيش لتناول الطعام معي، حتى أن الملك كان في بعض الأحيان يستعير بعضاً من ضيوفي.

ولسوف أحدثكم الآن عما شهدته في ميدان العدالة وإدارتها وعن اصدار الأحكام في قيسارية، في الوقت الذي كان الملك مقيماً فيه هناك، وسأذكر أولاً وقبل كل شيء قضية فارس ألقى القبض عليه وهو في بيت للعاهرات، وكان أمامه تبعاً لعادات البلاد واحداً من خيارين: إما أن يقاد في أرجاء المعسكر من قبل العاهرة وهو لابس لقميص، ومربوط بشكل مذل بحبل؛ أو أن يسلم فرسه وسلاحه حتى يطرد من الجيش، وأعطي الفارس فرسه وسلاحه إلى الملك وغادر المعسكر، وذهبت إلى صاحب الجلالة وسألته أن يعطيني الفرس ليستخدمه تابع فقير في الجيش، فأجابني بأن هذا ليس طلباً منطقياً، بما أن الفرس ما يزال يساوي مبلغ ثمانين ليرة ذهبية، فقلت له: «الآن خرقت الاتفاق الذي عقدته معي، لأنك أبديت غضبك نحوي لتقديمي هذا الطلب»،

فأجابني وهو يضحك من قلبه: « قل ماتريده، أنا لست غاضباً منك»، ومهما يكن الحال، لم أستطع الحصول على الفرس لإعطائه للتابع الفقير.

وكانت القضية الثانية هي التالية: بينما كان فرسان من فرقتي يقومون بصيد حيوان وحشي اسمه الغزال، انقض بعض الاستبارية عليهم، ودافعوهم وأبعدوهم، ولهذا شكوت إلى مقدم الاستبارية، فأجاب بأنه سوف ينصفني، وفقاً لعادات الأرض المقدسة، باصداره الأوامر إلى الاستبارية الذي اقترفوا هذا الاعتداء، بالأكل وهم جالسين فوق أرديتهم حتى يأتي الوقت الذي يقوم فيه المعتدى عليهم بالطلب بأن يقوموا.

وتصرف المقدم معهم حسبما وعد، وعندما رأينا أنهم أمضوا مدة وهم يأكلون جلوساً على أرديتهم، ذهبت إلى المقدم، فوجدته يتناول الطعام، فرجوته أن يخبر هؤلاء الرجال بالقيام، وعمل الفرسان الذين تعرضوا للعدوان الطلب نفسه، فأجاب المقدم بأنه لن يفعل شيئاً من هذا القبيل، ذلك أنه لن يسمح لأعضاء من طائفته بإساءة السلوك نحو الذين قدموا حجاجاً إلى الأرض المقدسة.

وعندما سمعت هذا جلست على الأرض مع الاستبارية، وبدأت أكل معهم، وأخبرت المقدم أنني لن أنهض حتى ينهضون، فأخبرني بأنني أرغمه على ما لا يجب، واستجاب لطلبي، ثم إنه دعاني والفرسان الذين كانوا معي لتناول الطعام على مائدته، في حين ذهب الاستبارية للالتحاق برفاقهم على مائدة أخرى.

وكان الحكم الثالث الذي رأيت تنفيذه في قيسارية هو هذا: قام واحد من سيرجنديّة الملك، واسمه لي غولو Goulou بدفع واحد من فرسان فرقتي بيده، فذهبت إلى الملك واشتكت إليه، فأخبرني أن من المستحسن إهمال المسألة، طالما أن الذي فعله السيرجندي هو مجرد دفع

فارسي، فأخبرت الملك بأنني لن أسحب شكواي، وإذا لم ينصفني سوف أترك خدمته، مادام سيرجنديته مسموح لهم بدفع فرساني.

وبناء عليه قام الملك بانصافي وفقاً لعادات البلاد، وذلك بالطريقة التالية: جاء السيرجندي إلى معسكري وهو حافي القدمين يرتدي قميصه وسراويله فقط، وسيفه مجرد بيده، وركع أمام الفارس الذي اعتدى عليه، وأمسك سيفه من ذبابه وقدمه إلى الفارس ليأخذه من مقبضه، وقال: «قدمت ياسيدي لانصافك، لأنني دفعتك بيدي، وجلبت إليك هذا السيف حتى تكون قادراً على قطع يدي هذه من الرسغ، إذا كان يرضيك أن تفعل ذلك»، وسألت الفارس أن يغفر له ذنبه، وقد وافق على ذلك.

وكانت العقوبة الرابعة التي نفذت كما يلي: قام مقدم الداوية بإرسال الراهب هوغودي جوي Jouy، الذي كان مارشال الداوية إلى سلطان دمشق للتباحث حول اتفاقية تتعلق بقطعة كبيرة من الأرض، كانت بيد الداوية، لكن سلطان دمشق رغب باقتسامها، بأن يأخذ هو نصفها، ويأخذ الداوية النصف الآخر، وأبرمت الاتفاقية وفقاً لهذه القاعدة، وبات تنفيذها متعلقاً بموافقة الملك، وجلب الراهب هوغو معه أميراً أرسله سلطان دمشق، مع وثيقة للتصديق على أن الاتفاق قد نفذ كما ينبغي.

وعلى كل حال، عندما أخبر مقدم الداوية الملك بما تم صنعه، اندهش جلالته كثيراً، وقال له، بأنه قد تجاوزه وتخطاه بالتباحث حول مثل هذه الاتفاقية دون التشاور معه أولاً، وأخبره الملك أنه لا بد من القيام باصلاح ما، وكانت الاجراءات التي تمت كما يلي: أمر الملك برفع أجنحة ثلاثة من سرادقاته، وسمح لجميع المراتب الدنيا من الجيش بالقدوم لرؤية الذي كان يحدث، وسار مقدم الداوية وفرسانه جميعاً حفاة الأقدام مباشرة في قلب المعسكر، لأن محلاتهم كانت خارجه،

وجعل الملك مقدم الداوية، ورسول السلطان يجلسان أمامه، ثم توجه بالخطاب بصوت مرتفع إلى المقدم وقال: «أيها المقدم عليك أن تبلغ رسول السلطان باعتذارك وانسحابك من أي معاهدة أبرمتها مع سيده من دون الرجوع إليّ أولاً، وعليك أن تضيف أنه بما أنك لم تستشرنني، فإنك تعد السلطان في حل من الاتفاق الذي عقده معك، وأن تسلمه جميع الوثائق ذات العلاقة وتعيدها إليه»، وبناء عليه تناول مقدم الداوية الوثيقة المكتوبة، وناولها إلى الأمير وهو يقول: «أعيد إليك الاتفاق الذي عقده معك خطأ، وإنني أعبر عن أسفي لقيامي بذلك».

ثم طلب الملك من المقدم ومن الداوية الآخرين النهوض، وقد نفذوا ذلك، ثم قال جلالتة للمقدم: «اركع الآن أمامي وكفر عن ذنبك بالاتصال هكذا بالسلطان ضد إرادتي»، فركع المقدم. وقدم طرف عباته إلى الملك، مسلماً بذلك كل شيء تمتلكه طائفته، حتى يمكن لجلالته أن يأخذ منه كل تعويض يقرره، وقال الملك: «إنني أعلن أولاً بوجوب نفي الراهب هوغو من مملكة القدس كلها، فهو الذي أبرم هذه الاتفاقية»، ولم يستطع مقدم الداوية (الذي كان مع الملك اشبين كونت دي ألكسون Alencon ، المولود في قلعة الحجاج) ولا حتى الملكة، ولا أي انسان آخر أن يفعل شيئاً لصالح الراهب هوغو، أو انقاذه من مغادرة الأرض المقدسة ومملكة القدس.

الفصل الخامس عشر

حملة إلى يافا

أيار ١٢٥٢ — حزيران ١٢٥٣

في الوقت الذي كان الملك فيه يقوم بتحسين مدينة قيسارية، عاد رسله من مصر، جالين معهم معاهدة قد كتبت وفقاً لشروط جلالته التي جرى وصفها من قبل، وقضت بين الملك وبين الأمراء، أنه سيذهب في يوم محدد إلى يافا، وفي الوقت نفسه تعهدوا أن يكونوا في اليوم نفسه في غزة، وذلك وفاء للأيمان التي حلفوها، وذلك من أجل وضع مملكة القدس بين يديه، وأقسم الملك مع جميع الرجال القياديين في جيشه على مراعاة شروط المعاهدة، حسبما نقلت إليهم من قبل الرسل، وكان معنى هذا أننا كنا ملزمين بموجب أيماننا التي حلفناها على مساعدة الأمراء ضد سلطان دمشق.

وما أن علم هذا السلطان بأننا قد تحالفنا نحن أنفسنا مع المصريين حتى أرسل قوة حسنة التجهيز مؤلفة من أربعة آلاف مسلم إلى غزة، إلى حيث وصل الجيش من مصر، وقد فعل هذا لأنه كان مدركاً تمام الإدراك أن هذه القوات إذا ما استطاعت الالتحاق بنا فذلك قد يعني خسارته، ومع هذا لم يبلغ الملك خططه بالزحف إلى يافا، وعندما سمع كونت يافا بقدومه، انطلق يعمل في سبيل جعل قلعته تبدو في وضع قادرة فيه على الصمود في وجه هجوم ما، ووضع أمام كل فتحة من فتحات الشرافات— وكان هناك منها خمسمائة— ترساً ورنكاً، وريشة صغيرة، وكان هذا من أجل المناظر الذي تود العيون أن تراها، لأن رنوكه كانت من الذهب، أو مزينة بصليب مخطط بخطوط صغيرة.

وقد عسكرنا في الحقول حول القلعة، القائمة على طرف البحر،

والممتدة من الطرفين إلى الشاطيء، وبدأ الملك على الفور ببناء تحصينات جديدة حول القلعة القديمة وتمتد باتجاه اليسار ويأتجاه اليمين حتى البحر، وغالباً مارأيت جلالته يحمل زيبلاً مليئاً بالطين من أجل الخنادق، حتى ينال الغفران المرثجى.

وأخفق الأمراء المصريون بالحفاظ على إتفاقيتهم بالالتقاء بنا، ذلك أنهم لم يتجرأوا على القدوم إلى غزة بسبب أن عساكر دمشق كانت هناك، ومن جانب آخر وفوا بعهدهم المقطوع معنا فبعثوا إلينا برؤوس جميع المسيحيين التي كانت معلقة على أسوار قلعة القاهرة منذ أيام أسر كونت دي بار، وكونت دي مونتفورت، ودفن جلالته هؤلاء في أرض طاهرة، كما أرسلوا إلينا الأطفال الذين أخذوهم عندما جرى أسر الملك، وقد فعلوا هذا وهم آسفين، لأن هؤلاء الأطفال كانوا قد تخلوا عن عقيدتهم، وبالإضافة إلى هؤلاء بعثوا إلى جلالته فيلاً، تولى شحنه إلى فرنسا.

وبينما كنا معسكرين في يافا، جاء أمير من جانب سلطان دمشق، ليقوم بحصد القمح في قرية وقعت على مسافة ثلاثة فراسخ عن معسكرنا، وقد توافقنا على المضي لمحاربتة، غير أنه ما أن رأنا حتى هرب، وفي أثناء فراره شرع تابع صغير من أسرة جيدة بمطاردته، وقد تمكن من إلقاء اثنين من فرسانه أرضاً دون أن يكسر رحمة، ثم سدد طعنة قوية نحو الأمير نفسه، وقد بلغت من الشدة حداً أن الرمح انكسر في جسد الأمير.

ووصل الآن رسل من الأمراء المصريين للالتماس من الملك أن يعين يوماً يمكن فيه لقادتهم القدوم لرؤيته، وقد وعدوا بالقدوم من دون اخفاق، وقرر الملك أن لايرفض طلبهم، وحدد يوماً لهم، وقد تعهدوا بالأبيان أن يكونوا في ذلك اليوم في غزة.

وعندما كنا ننتظر حلول يوم الاجتماع مع الأمراء المصريين، جاء الكونت دي إيو EU الذي كان وقتها بمرتبة تابع، إلى المعسكر، وأحضر معه الفارس الجيد أننول دي غوين Guines، وأخويه، وسبعة أشخاص آخرين ، وقد بقي في خدمة الملك، وقد جرت ترقيته إلى مرتبة فارس من قبل الملك.

وفي حوالي الوقت نفسه عاد أمير أنطاكية إلى المعسكر مع الأميرة أمه، وقدم الملك له تشریفاً كبيراً، ونصبه فارساً وسط حفل عظيم، وكان الأمير آنذاك في السادسة عشرة من عمره، لكنني لم أرقط شاباً بمثل هذا الذكاء، وقد طلب من الملك أن يمثل بحضرته ويجتمع به بحضور أمه، وعندما أعطى الملك موافقته تحدث كما يلي وقال: «تعلمون يا صاحب الجلالة بدون شك حقيقة أن أمي سوف تبقى الوصي الشرعي عليّ لمدة أربعة أعوام مقبلة، وعلى كل حال، لا يحق لها ياسيدي أن تدع بلادي للإهمال وللضياع، وأقول هذا لك ياسيدي لأن مدينة أنطاكية قد خربت على يديها، ولهذا أتوسل إلى جلالتك لتطلب منها إعطائي المال والرجال حتى يمكنني الذهاب لحماية شعبي في تلك المدينة، ولكي أقدم لهم العون الذي هم بحاجة إليه، وفي الحقيقة ياسيدي هذا هو السبيل الصحيح الذي عليها الالتزام به، لأنني إذا ما بقيت في طرابلس ستكون هناك حاجة لنفقات عظيمة، ولسوف يكون ذلك الانفاق لا لشيء وبدون جدوى.

وأصغى الملك بتعاطف إلى مطلب الشاب، وبذل جهد طاقته لاقناع أمه لتعطي ابنها القدر الذي يمكن استخراجها منها، وفور تركه الملك ذهب الأمير إلى انطاكية حيث رحب بقدمه خير ترحيب، وقام بموافقة من الملك فوضع رنوكه التي كانت مذهبة مع رنوك فرنسا، لأن الملك قد نصبه فارساً.

وقدم مع الأمير من أرمينيا العظمى ثلاثة مغنين، وكانوا أخوة،

وكانوا ذاهبين إلى القدس للحج، وكان معهم ثلاثة أبواق قد صنعت بطريقة أن الصوت كان يصدر من ناحية وجوههم، وعندما شرعوا يلعبون بهم، كان بإمكانك القول بأن الصوت صوت بجعات خارجة من بركة، وقد قدموا موسيقى جميلة ولطيفة وكانت رائعة أن تسمعها، وقام هؤلاء الرجال الثلاثة بحركات قفز بالفضاء مدهشة، وعندما وضعت حصيرة تحت أقدامهم نفذوا قفزات بهلوانية من وضعهم القائم وانتهوا وأقدامهم مرة أخرى فوق الحصير، وكان بإمكان اثنان منهم القيام بقفزات بهلوانية في الفضاء نحو الخلف، وفعل المسن بينهم الشيء نفسه أيضاً، وعندما كان يطلب منه الدوران بالفضاء ورأسه إلى الأمام، كان يرسم علامة الصليب على نفسه لأنه كان خائفاً من أن تندق عنقه وهو يدور.

والآن بما أنه عمل طيب أن لاتنسى ذكر غوتير كونت دي بريين، وكذلك كونت يافا، سوف أتحدث عنه هاهنا، فهو قد ولي أمر يافا لسنوات عديدة، ودافع عنها بشجاعة وبأعمال نشيطة، وعاش معظم وقته على ماكان يربحه من المسلمين ومن أعداء الدين الآخرين، وهكذا حدث مرة أنه هزم جمعاً غفيراً من المسلمين كانوا ينقلون كميات هائلة من الحرير ومن الثياب المذهبة، واستولى على جميع بضائعهم، ثم قام بعدما جلب الأسلاب الى يافا بتوزيع كل شيء بين فرسانه، ولم يترك لنفسه شيئاً، وكان من عادته، أن يقوم بعد توديعه لفرسانه، بحصر نفسه في بيعته، وإمضاء وقت طويل بالصلاة هناك قبل الذهاب ليلاً إلى النوم مع زوجته، وكانت سيدة حكيمة جداً وفاضلة، كما كانت أخت ملك قبرص.

وبعدما كان شاه فارس، الذي كان اسمه بركة خان، قد هزم من قبل واحد من أمراء التتار، حسبما أخبرتكم، زحف مع جيشه كله إلى مملكة القدس، واستولى هناك على قلعة طبرية، التي كان يودس دي مونتبليارد

قد حصنها، وكان هذا هو القسطلان، وصاحب طبرية من خلال زوجته، وأنزل شاه فارس بنا ضرراً عظيماً، لأنه عاث فساداً بالبلاد، ودمر كل شيء أمكنه أن يجده، خارج قلعة تل الصافية، وخارج عكا وصفد، وحول يافا أيضاً، وبعد ما أوقع كل هذه الأضرار انعطف باتجاه غزة لينضم بقواته إلى سلطان القاهرة، الذي كان قادماً للاحاق كل ما يمكنه من أذى بشعبنا.

وقرر بارونات البلاد، مع بطريك القدس الخروج ومهاجمة الشاه قبل وصول سلطان القاهرة، ولكي ينالوا بعض المساندة بعثوا خلف سلطان حمص، وكان واحداً من أفضل الفرسان بين المسلمين، وقد أظهرنا نحوه تشريفاً عظيماً في عكا إلى حد أنهم غطوا الشوراع التي كان سيمر بها بالسجاد، وزينوها بأقمشة مذهبة وأقمشة حريرية، ثم زحفوا جميعاً إلى يافا، وأخذوا سلطان حمص معهم.

وأصدر بطريك القدس قراراً بحرمان الكونت غوتير كنسياً، لأنه لم يسلم برجاً كان بيده، كان يعرف باسم برج البطريك، وتوسل شعبنا إلى الكونت ليذهب معهم، ويحارب ضد الشاه، وأجاب بأنه سيفعل ذلك عن طيب خاطر، شريطة أن يجلله البطريك حتى عودتهم، ورفض البطريك فعل أي شيء من هذا القبيل، ومع ذلك أجرى الكونت غوتير استعداداته، وذهب مع الجيش.

وكانت قواتنا مشكلة من ثلاث فرق، كانت احدها تحت قيادة الكونت غوتير، وكانت الثانية بقيادة سلطان حمص، في حين شكل البطريك وشعب البلاد الفرقة الثالثة، وكان الاستتارية في فرقة الكونت غوتير، ومضوا جميعاً على ظهور خيولهم حتى باتوا على مرأى من الأعداء، وما أن رآهم رجال شعبنا حتى توقفوا، وقسم العدو قواته إلى ثلاث فرق أيضاً، وبينما كان الخوارزميون يعبئون رجالهم، التفت الكونت غوتير نحو رجالنا وصرخ: «أيها السادة، من أجل الرب دعونا

نمضي ونقاتلهم، لأننا نعطيهم وقتاً مادماً واقفين»، لكن ما من أحد أصغى إليه.

ولدى ملاحظة الكونت لذلك، مضى إلى البطيريك وسأله التحليل وفق الشروط التي كان قد اقترحها، ورفض البطيريك - على كل حال - رفضاً قاطعاً منحه التحليل، وكان يوجد في فرقة الكونت غوتير رجل دين شجاع، كان هو أسقف الرملة، وكان قد حقق انجازات كثيرة برفقة الكونت، فقال للكونت: «لا تشغلن نفسك، لرفض البطيريك منحك التحليل، لأنه هو المخطيء وأنت المصيب، وإنني شخصياً أحلك باسم الآب، والابن والروح القدس، ودعنا الآن نحمل عليهم».

وهكذا غمزوا خيولهم، وهاجموا إحدى فرق شاه فارس، وهي الفرقة التي شكلت الساقة، وسقط عدد كبير من القتلى على الطرفين، ووقع كونت غوتير بالأسر أثناء القتال، لأن شعبنا هرب بفوضى معيبة، حتى أن عدداً كبيراً منهم أغرقوا أنفسهم بالبحر لشدة خوفهم، وكان السبب في ياسهم ورعبهم إلى هذا الحد أن إحدى فرق شاه فارس هاجمت العساكر الذين قادها سلطان حمص، وقد فقد هذا السلطان عدداً كبيراً من رجاله في الدفاع عن موقفه، حتى أن الذي بقي من الألفين الذين قادهم في المعركة، كان فقط مائتين وثمانين، فهذا كان عددهم عندما غادر ميدان المعركة.

واعتقد الشاه أنه لن يكون بإمكان سلطان حمص الصمود طويلاً، بعدما فقد هذا العدد الكبير من رجاله، لذلك قرر الذهاب والقيام بمحاصرته في قلعته بحمص، وعندما رآه السلطان قادماً، خرج إلى رجال شعبه وأخبرهم أنه عازم على الخروج ومواجهة العدو، ذلك أنه إذا ما ترك نفسه ليحاصر، فسيخسر ويضيع، وقامت خطة عمله على ارسال رجاله المسلحين بشكل فقير عبر واد خفي، وكان عليهم لحظة

سماعهم لقرع طبول السلطان مهاجمة معسكر الشاه من الخلف، ومن ثم شروع بقتل النساء والأطفال.

وخرج الشاه إلى السهل المفتوح لمحاربة عساكر السلطان التي رآها مصطفة أمامه، غير أنه ما أن سمع صراخ شعبه من المعسكر حتى نكص على عقبيه وعاد باتجاه المعسكر لانقاذ النساء والأطفال، فألقى رجال السلطان على الفور بأنفسهم على الشاه وعلى جيشه، وقاتلوهم بنجاح كبير، إلى حد أنه من الخمسة والعشرين ألف فارسي كانوا موجودين لم يبق رجل واحد أو امرأة، فجميعهم قد قتلوا في المعركة أو هلكوا بحد السيف.

وكان الشاه قبل أن يذهب إلى حصار حمص، قد حمل كونت غوتير إلى أمام أسوار يافا، وقام الفرس بتعليقه من ذراعيه على عمود ذي شعب، وأخبروه أنهم لن ينزلوه حتى تكون قلعة يافا في حوزتهم، وبينما كان معلقاً على هذه الصورة صرخ بأعلى صوته إلى رجاله في القلعة بأن لايسلموا القلعة بسبب أي عذاب قد ينزله به العدو، وقال بأنهم إذا ما استسلموا فسوف يقتلهم بيديه.

وما أن علم الشاه بهذا حتى بعث بكونت غوتير إلى القاهرة بمثابة هدية إلى السلطان في تلك المدينة، وذلك مع مقدم الداوية وعدد كبير آخر ممن أخذوا أسرى، وكان عدد الذين حملوا الكونت إلى مصر حوالي الثلاثمائة رجل، وهؤلاء هم الذين لم يقتلوا عندما واجه الشاه منيته عند حمص، وهؤلاء أيضاً هم الثلاثمائة رجل من الخوارزمية الذين كانوا بين من هاجمنا فيما بعد في يوم الجمعة، عندما كنا مشاه، ولقد حملوا أعلاماً حمراء مشرشرة حتى أسنة رماحهم، التي ثبتوا على رؤوسها رؤوساً صنعت من الشعر، وقد بدت تشبه رؤوس الشياطين.

ورفع عدد من التجار في القاهرة شكاوى إلى السلطان حتى ينصفهم

من كونت غوتير، بسبب الخسائر العظيمة التي عانوا منها على يديه، وأذن لهم السلطان بالانتقام من الكونت، وبناء عليه ذهبوا وقتلوه بالسجن، فهناك مات في سبيل العقيدة، وبهذا الشأن يمكننا الاعتقاد بشكل مؤكد أنه الآن في اللجنة مع كوكبة الشهداء.

وَنَعُودُ الآنَ إلى سياق حكايتنا، فقد حشد سلطان دمشق رجاله الذين كانوا في غزة ودخل إلى مصر، وخرج الأمراء وقتلوا ضده وضد جيوشه، وهزمت الفرقة التي قادها السلطان الأمراء الذين اشتبكوا معها، لكن الفرقة المصرية الأخرى هزمت ساقه قوات السلطان، وذهب سلطان دمشق بعد القتال عائداً إلى غزة، وهو مجروح في رأسه وفي يده، وقبل أن يغادر ذلك المكان بعث الأمراء المصريون إليه برسلمهم لإقامة سلام معه، وبذلك عجزوا عن المحافظة على أي من الاتفاقيات التي عقدوها معنا، ولم يعد منذ ذلك الوقت فصاعداً لاهدنة ولاسلام بيننا وبين أهل دمشق، أو بيننا وبين أهل القاهرة، ويمكنني القول، أن العدد الأقصى لقواتنا، التي توفرت لدينا في هذه الآونة، لم يتجاوز الألف والأربعمائة.

وبينما كان الملك أمام يافا، قام مقدم رهبان القديس لعازر بالتجسس قرب الرملة— وهي بلدة تبعد مسافة ثلاثة فراسخ— فشاهد عدداً من القطعان وأشياء متنوعة أخرى، فخيل إليه أن بإمكانه الحصول على غنيمة ثمينة، وبها أنه لم يكن رجلاً له مكانته في الجيش، لهذا كان يعمل تماماً ما يروق له، فانطلق نحو ذلك المكان دون أن يقول كلمة إلى الملك، وكان بعدما جمع أسلابه هاجمه المسلمون، والحقوا به هزيمة ساحقة، إلى حد أنه لم ينج من جميع الرجال الذين كانوا برفقته أكثر من أربعة.

وما أن عاد إلى المعسكر حتى رفع صوته بالدعوة إلى السلاح، ومضيت وسلحت نفسي ورجوت الملك أن يسمح لي بالذهاب إلى

ذلك المكان، وقد سمح لي بالذهاب، وأمرني أن أصطحب معي فرسان الداوية وفرسان الاستارية، وعندما وصلنا إلى هناك، وجدنا بعض المسلمين، قد جاءوا من المناطق المجاورة ونزلوا إلى قلب الوادي حيث هزم مقدم فرسان القديس لعازر، وبينما كان هؤلاء الرجال ينظرون إلى الموتى، هاجمهم قائد رماة جروح الملك بشكل مفاجيء، وقبل أن يصل جنودنا، كان قد هزمهم، وقتل عدداً منهم.

وحدث أن واحداً من سيرجندية الملك، وواحداً من المسلمين قد صرع أحدهما الآخر بطعنة من رجليهما، ورأى واحد من رجال الملك هذا الحدث، فقام بقيادة فرسيهما وأراد الابتعاد بهما كي يسرقهما، ولكي لا يراه أحد، أخفى نفسه وراء أسوار مدينة الرملة، وعندما كان يجير الفرسين خارج صهريج قديم، أراد العبور فوقه، فانهار تحتته، فسقط هو والخيول الثلاثة، وبعدما أخبرت بأنهم سقطوا إلى القعر، ذهبت لأنظر إلى المكان، فرأيت الصهريج مابرح ينهار فوق رؤوسهم، وكانوا تقريباً قد تغطوا تماماً، وهكذا رجعت إلى المعسكر بدون خسائر، وذلك باستثناء ما خسره مقدم فرسان القديس لعازر.

وبعدما أبرم سلطان دمشق الصلح مع الأمراء المصريين، بعث هذا السلطان واستدعى إليه رجاله الذين كانوا في غزة، وعبرت هذه القوات على مسافة أدنى من فرسخين بعيداً عن معسكرنا، غير أنها لم تغامر أبداً بالهجوم علينا، مع أن عدد جنودهم بلغ ثلاثة آلاف من المسلمين وعشرة آلاف من البدو، وكان قبل أن يقتربوا منا قد قام مقدم رماة الزنبورك لدى الملك وفرقته، بالاحتراز والتيقظ ومراقبة تحركاتهم لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليالي ليحول بينهم وبين القيام بهجوم مفاجيء على معسكرنا.

وذهب الملك بعد عيد القديس يوحنا الانجيلي، الذي حل مباشرة بعد عيد الفصح، لسماع قداس، وبينما كان الواعظ ما يزال يتكلم، دخل

سيرجندي من فرقة قائد قوات رماة الزنبورك، إلى بيعة الملك، وهو شاكى السلاح، وأخبره بأن المسلمين قد طوقوا قائدهم، وطلبت من الملك أن يأذن لي بالذهاب، وتقديم العون له، فأذن لي، وأخبرني بأن أصطحب معي أربعمئة أو خمسمئة من الرجال المسلحين، وذكر لي أسماء من رغب إليّ باصطحابهم، وما أن خرجنا زاحفين من المعسكر، حتى قام المسلمون الذين كانوا متمركزين بين قائد رماة الزنبورك والمعسكر، بمغادرة مكانهم للالتحاق بأمر كان فوق رابية أمام قائد رماة الزنبورك، ومعه ألف رجل مسلح.

ثم بدأ القتال بين المسلمين وبين سيرجندي قائد رماة الزنبورك، وكانوا جميعاً حوالي مائة وثمانين، وفي إحدى اللحظات عندما رأى الأمير بأن رجاله قد ضغط عليهم بشدة، بعث إليهم بنجدة، وكان عدد أفرادها كبيراً إلى حد أنهم تمكنوا من دفع سيرجنديتنا نحو الخلف حتى موقف عساكر قائد الرماة، وما أن رأى قائد الرماة بأن رجالنا قد تعرضوا بدورهم إلى ضغط شديد، حتى بادر إلى ارسال نجدة لهم مكونة من مائة أو مائة وعشرين رجلاً مسلحاً، فتمكنوا من صد المهاجمين، وردوهم نحو فرقة الأمير.

وعندما كنا هناك، قام النائب البابوي، وبارونات بلاد ما وراء البحر، الذين كانوا قد بقيوا هناك مع الملك، بإخبار الملك بأنه أخطأ خطأ جسيماً بتعريضني لمثل هذا الخطر، وأرسل الملك، بناء على نصيحتهم، فاستدعاني مع قائد رماة الزنبورك، وعلى كل حال انسحب المسلمون في هذه الساعة، وعدنا جميعاً إلى المعسكر، وتعجب كثير من الناس، كيف أنهم لم يأتوا لمهاجمتنا، وقال بعضنا بأنهم لم يفعلوا ذلك، لأنهم كانوا يعانون مع خيولهم من الجوع في غزة، حيث أمضوا هناك حوالي السنة.

وبعدما انسحب هؤلاء المسلمون من معسكرهم خارج يافا، استقروا أمام عكا، وأرسلوا إلى صاحب أرسوف، الذي كان قسطلان

مملكة القدس، يخبرونه بأنهم سوف يدمرون حدائق المدينة ما لم يرسل إليهم خمسين بيزنطة، فبعث إليهم يخبرهم بأنه سوف لن يعطيهم ولا بيزنطة واحدة، ولهذا زحفوا بقواتهم، وتمركزوا على طول رمال عكا، وبذلك اقتربوا كثيراً من المدينة حتى باتت على مسافة رمية قوس عقار منهم، وزحف صاحب أرسوف إلى خارج عكا وتمركز على جبل القديس يوحنا، حيث تقوم مقبرة القديس نيقولا، وكان مقصده حماية الحدائق، وخرج سيرجنديتنا المشاة من المدينة أيضاً، وشرعوا بمناوشة المسلمين بقسيهم وبجروحهم.

واستدعى صاحب أرسوف فارساً جنوبياً اسمه جيانون Gian- none، وأمره بالذهاب باستدعاء العساكر الرجالة الذين خرجوا من عكا، حتى لا يتعرضوا للمخاطر، وبينما كان يتولى ارجاعهم وقيادتهم، شرع واحد من الأعداء يدعوه باللسان العربي بأنه يود المبارزة معه إذا ما رغب بذلك، وقال السيرجيانون بأنه يود ذلك بكل سرور، لكن فيما هو ذاهب باتجاه المسلم، أبصر على يساره مجموعة صغيرة من المسلمين تعدادها حوالي الثمانية، قد وقفت لتشهد المبارزة، ولهذا حرف طريقه عن التوجه نحو المسلم، وانطلق نحو الفئة المسلمة، التي كانت واقفة بكل هدوء لكي تشهد المبارزة، وطعن واحداً منها برمح فجندله قتيلاً.

وعندما رأى رجال الفئة المسلمة ذلك، اندفعوا نحو السيرجيانون، وهو عائد لاللتحاق برجالنا، ووجه إليه أحدهم ضربة شديدة على خوذته الفولاذية بوساطة دبوس، وبينما كان هذا المسلم يمر من أمامه، ضربة جيانون بسيفه على عمامته التي كان يلفها حول رأسه، فأطاح بها إلى الأرض (كان من عادة المسلمين ارتداء هذه العمام أثناء الذهاب إلى القتال، فبوساطتها كان بإمكانهم تحمل ضربات شديدة من السيف)، وجاء مسلم آخر يعدو به فرسه باتجاه هذا الفارس، وهو عازم على طعنه برمح بين كتفيه، لكن جيانون رأى الرمح قادم نحوه، فانحرف

جانبا، ثم مرّ المسلم به، فسدّد إليه ضربة خلفية بسيفه نحو ذراعة، وبذلك سقط الرمح من يده على الأرض.

وعاد إثر هذا جيانون، وأعاد عسكره الرّجالة إلى عكا، ولقد سدّد ضرباته الثلاثة هذه على مشهد من صاحب أرسوف، ولقد رآها أيضاً أعيان السكان في عكا، مع جميع النساء اللاتي تجتمعن فوق أسوار المدينة لمشاهدة القتال.

وكما تعلمون لم يتجرأ الحشد الاسلامي الكبير الذي احتشد أمام عكا على الاشتباك معنا ولا القتال ضد رجال عكا، لكن عندما سمع رجاله خبراً صادقاً، بأن الملك قد بعث بمجرد فئة صغيرة من الرجال الجيدين للقيام بتحسين مدينة صيدا، زحفوا بذلك الاتجاه، وما أن سمع سمعان دي مونتبليارد — الذي كان رئيس رماة القسي العقارة العائدين للملك، وقائد قوات جلالته في تلك المدينة — بأن المسلمين يزحفون ضد صيدا، حتى انسحب إلى حصن صيدا، الذي كان حصيناً جداً، ومحاطاً بالبحر من كل جوانبه، وقد فعل هذا لإدراكه تماماً بأنه لا يمتلك القدرة على مقاومة العدو، وتحصن بالقلعة مع أكبر عدد من الناس استطاع جمعه، لكن مع ذلك كان هؤلاء عددهم قليل، لأن المساحة هناك كانت محدودة جداً.

وتدفق المسلمون على صيدا، ولم يلقوا مقاومة، لأن المدينة لم تكن محاطة تماماً بالأسوار، وقد قتلوا ما يزيد على ألفين من شعبنا، ثم غادروا المدينة وهم يحملون الأسلاب التي حصلوا عليها من المدينة، وتوجهوا إلى دمشق.

وعندما وصلت أخبار ما حدث إلى الملك، غضب غضباً عظيماً (أواه، لو أنه استطاع فقط أن يعوض الخسائر)، وعلى كل حال، عدّ البارونات ما حدث واقعة سعيدة جداً، لأن الملك كان عازماً على

الذهاب، وتحصين قطعة أرض مرتفعة على الطريق بين يافا والقدس، حيث كانت توجد قلعة قديمة منذ أيام المكابيين، لكن ما حدث غير خطته.

فقد رأى بارونات ماوراء البحر أنه ليس مفيداً القيام بإعادة بناء أسوار هذه القلعة القديمة، لأنها ابتعدت خمسة فراسخ عن البحر، لذلك كان من غير الممكن ارسال المؤن والعتاد من الموانئ إليها من دون تعرضها لمخاطر الوقوع في أيدي المسلمين، الذين كانوا أقوى مما كنا، ولهذا عندما وصلت أخبار تهديم صيدا إلى المعسكر، جاء هؤلاء البارونات إلى الملك وأخبروه أنه سوف يكون مفيداً أكثر لصالح سمعته القيام بإعادة تحصين تلك البلدة، بدلاً من بناء حصن جديد، ووافق الملك على الأخذ بنصيحتهم.

وفي الوقت الذي كان فيه الملك في يافا، بلغه أن سلطان دمشق سوف يرحب بذهابه إلى القدس، وسيمنحه أماناً مؤكداً، وعقد الملك مؤتمراً عاماً، لتفحص المسألة، وبالنتيجة ما من واحد أشار عليه بالذهاب، لأنه في النهاية سوف يترك المدينة المقدسة في أيدي المسلمين.

وفي أثناء المناقشات استشهد مستشارو الملك بما حدث في مناسبة متقدمة، عندما رأى الملك العظيم فيليب أنه يتوجب عليه مغادرة عكا ليعود إلى فرنسا، وقد سمح وقتها لجميع أتباعه بالبقاء في الجيش تحت قيادة الدوق هيوج دي بيرغندي، الذي كان جد الدوق الذي توفي مؤخراً، وبينما كان الدوق مايزال في عكا، والملك رتشارد ملك انكلترا معه، وصلتها أخبار، أنها إذا ما رغبا، فبإمكانها الاستيلاء على القدس في اليوم التالي، بما أن جميع قوات سلطان دمشق، بما فيهم فرسانه، قد غادروا للالتحاق به في مكان آخر، وذلك بسبب حرب كانت قائمة بينه وبين سلطان آخر، وبناء عليه جمع الملكان قواتهما، وشكلت قوات ملك انكلترا الفرقة الأولى، بينما كان دوق دي بيرغندي، مع رجال ملك

فرنسا في الفرقة الثانية.

وبينما كانوا على طريقهم، مع فرصة طيبة بالاستيلاء على المدينة المقدسة، وصلت رسالة من معسكر الدوق إلى ملك انكلترا، يخبره فيها بعدم متابعة الزحف، لأن الدوق نفسه قد شرع بالتراجع، وكان ذلك لا لسبب غير أنه لم يرغب في أن يقال بأن الانكليز قد استولوا على القدس، وبينما كان الملك رتشارد وأتباعه يتحادثون حول هذا الموضوع، صرخ واحد من فرسانه قائلاً: «مولاي، مولاي، تعال إلى هنا، ولسوف أريك القدس»، ولدى سماع الملك بهذا، ألقى بسترته الحربية فوق عينيه، وبكى بحرقة، وصرخ إلى مخلصنا قائلاً: «أيها المولى العزيز، أتوجه إليك بالدعاء أن تجنبي رؤية مدينتك المقدسة، بما أنني لأستطيع تخليصها من أيدي أعدائك».

واستشهد المستشارون بهذه الحادثة أمام الملك، لأنهم شعروا أنه— وهو الأعظم بين ملوك المسيحية— إذا ذهب ليحج إلى القدس، دون أن يتمكن من تخليصها من أعداء الرب، فعندها سوف يجلس جميع الملوك والحجاج الذين سوف يقدمون من بعده راضين قانعين دون أن يفعلوا أكثر مما فعله، ولن يبدو أدنى اهتمام من أجل تحرير تلك المدينة المقدسة.

وأصبح الملك رتشارد مشهوراً جداً بسبب أعماله الجريئة عندما كان في بلاد ماوراء البحر، إلى حد أن أي فرس عاد إلى مسلم جفل في شعراء، كان صاحبه يقول له: «هل تظن أن ذاك ملك انكلترا؟»، وعندما كان أبناء النسوة المسلمات يبكون، كانت أمهاتهم يقلن لهم: «توقفوا، اسكتوا، أو سنذهب سنجلب الملك رتشارد، وهو سيقتلكم».

وكان دوق دي بيرغندي، الذي ذكرته للتو، فارساً جيداً بالنسبة لما يتعلق ببلاده، لكن لم يعدّ قط حكيماً، لافي علاقاته مع الرب، أو في سلوكه وتصرفاته في الأعمال الدنيوية، وهذا من الممكن فهمه بسهولة مما

أخبرتكم حوله، ولهذا السبب عندما سمع فيليب الملك العظيم، بأن كونت دي شالون قد رزق ولدًا، فسماه هيوج، على اسم دوق بيرغندي، عبر على الفور عن أمله في أن يجعله الرب رجلاً شجاعاً مثل الدوق، ولما سأله لماذا لم يقل: رجلاً عاقلاً وفطناً؟ قال الملك: «لأن هناك فرقاً عظيماً بين الرجل الشجاع، والرجل العاقل والفطن، ذلك أن هناك عدداً كبيراً من الفرسان الشجعان في كل من أراضي المسيحية وفي الأراضي الإسلامية، ممن لا يؤمنون بربنا ولا بأمه» ثم أضاف يقول: «ولهذا أقول بأن الرب قد أعطى أعطية عظيمة، ونعمة خاصة جداً، إلى الفارس المسيحي، الذي منحه شجاعة جسدية، وقدرة في الوقت نفسه على الاستمرار في خدمته بحماية نفسه من اقتراف إثم عظيم، والفارس الذي يتحكم هكذا بنفسه جدير بأن يدعى حقاً عاقلاً وفطناً، لأن قدرته على القيام بأعمال صالحة، آتية من عند الرب، والذين ذكرتهم أعلاه يمكن دعوتهم فقط شجعان، لأنهم مع امتلاكهم لشجاعه جسدية عظيمة، إنهم لا يخشون الرب، ولا يخافون من الإثم».

ولن أحاول إعطاءكم تقديراً صحيحاً عن المبلغ الكبير الذي أنفقه الملك في تحصين يافا، لأنه كان بالفعل مبلغاً عظيماً جداً وأكبر من أن يحصى، فقد حصن البلدة حتى البحر من على الطرفين، وهكذا توفر أربعة وعشرون برجاً، وباتت الخنادق خالية من الطين في الداخل والخارج، كما ووجدت ثلاثة أبواب، بني واحد منها على حساب النائب البابوي، مع جزء من السور.

ولكي أعطيكم فكرة ما عما أنفقه الملك، سأخبركم بأنني سألت النائب البابوي كم كلفه العمل في الباب وفي جزء من السور، فسألني كم هو تقديري، فقلت: لقد قدرت تكلفة الباب بخمسمائة ليرة ذهبية، وكلفة حصته من السور بثلاثمائة، فأخبرني— والرب شاهد على ما قال— بأن كلفة الباب مع السور بلغت ثلاثين ألف ليرة ذهبية.

الفصل السادس عشر

حملة إلى صيدا

حزيران ١٢٥٣ - شباط ١٢٥٤

وما أن اكتملت أعمال تحصين يافا حتى قرر الملك الذهاب إلى صيدا، وإعادة بناء دفاعاتها، وانطلق في يوم عيد الرسولين: القديس بولص، والقديس بطرس، وعسكر لإمضاء الليل مع جيشه خارج قلعة أرسوف، التي كانت محصنة تحصيناً جيداً، واستدعى في تلك الليلة أتباعه وجمعهم وسألهم فيما إذا كانوا يوافقون على ذهابه للاستيلاء على المدينة الإسلامية التي تدعى الآن نابلس، لكنها كانت تعرف باسم (شكيم) السامرة في الكتابات المقدسة.

وأجابه الداوية والاسبتارية وبارونات ما وراء البحر جميعاً بأن الخطة كما يرونها خطة جيدة في محاولة الاستيلاء على تلك المدينة، لكنهم ارتأوا أيضاً أن الملك لا يجوز أن يذهب إلى هناك شخصياً، لأنه لو حدث حادث له، فكل الأراضي المقدسة سوف تفقد، فقال الملك بأنه لن يدعهم يذهبون ما لم يذهب معهم، ولهذا بقيت الخطة معطلة لأن البارونات لم يوافقوا على أن يرافقهم.

وبعد الزحف لأيام عدة وصلنا إلى رمال عكا، حيث عسكر الملك مع جيشه، وعندما كنا هناك جاءت مجموعة كبيرة من الناس من أرمينيا العظمى لرؤيتي، وكان أفرادها ذاهبون إلى الحج إلى القدس، وذلك بعد دفعهم مبلغاً كبيراً جزية إلى المسلمين، الذين كانوا يتولون قيادتهم إلى هناك، ورجوني بوساطة مترجم عرف لغتهم ولغتنا أن أريهم ملكنا القديس، وذهبت إليه، فوجدته جالساً في سراقه، ومستنداً على العمود المركزي، وكان جالساً على الرمل دون زريبة تحته، أو دون أي شيء آخر،

فقلت: «هناك ياسيدي عساكر كثيرة من أرمينيا العظمى في الخارج، هم في طريقهم إلى القدس، وقد رجوني بأن يُسمح لهم برؤية ملكنا القديس غير أنني لم أرغب بعد في تقييل عظامك»، فانفجر الملك ضاحكاً، وطلب مني الذهاب لإحضارهم، الأمر الذي نفذته، وعندما رأوه دعوا الرب له بالحفظ، ورد هو لهم تبريكاتهم.

وفي اليوم التالي أمضى الجيش الليلة في مكان عرف باسم «مخاضة المهار»، حيث كان الماء جيد جداً، ويستخدم الناس هنا الماء لسقاية المزروعات التي تنتج السكر، وعندما كنا هناك، جاء واحد من فرساني إليّ وقال: «لقد وجدت يا مولاي محلات لك للعسكرة أحسن بكثير من البقعة التي كنا فيها بالأمس، وقام فارس آخر، كان هو الذي اختار أرض عسكري السالفه، وهو غاضب جداً، وصرخ: «إنها حماقة كبيرة منك أن تتعجل هكذا، وتحدث على هذه الشاكلة عن أي شيء أنا صنعته»، ثم إنه قفز نحو الرجل الآخر، وأمسكه من شعره، وقفزت نحوه بدوري، وضربته بمقبضي بين كتفيه حتى يطلق سراحه، وقلت: «اخرج فوراً من معسكري، وإذا ما أعانني الرب، لن تكون ثانية واحداً من رجالي».

وابتعد الفارس، وهو يبدو حزيناً جداً، وآثار الأسى عليه، لكنه ما لبث أن عاد برفقة جايل لى برن، قسطلان فرنسا، الذي رأى الفارس حقاً أسف لعمله الأحمق، فرجاني بإلحاح بقدر ما استطاع حتى أعيده إلى معسكري، فأجبتّه بأنني لن أعيده ما لم يحلني النائب البابوي من يميني، وبناء عليه ذهباً إلى النائب البابوي، وأخبراه بالذي حدث، فأجاب بأنه لا يمتلك السلطة على تحليلي، لأن اليمين كان صحيحاً، بما أن الفارس جدير حقاً بعقوبته، وإنني إذ أحدثكم عن هذه الواقعة حتى تمنعوا عن حلف أي يمين من دون مسوغ معقول، لأنه كما يقول الرجل الحكيم: «من يقسم متعجلاً جداً، يكون أعجل في الحنث بيمينه».

وعسكر الملك في اليوم التالي أمام صور، التي كانت تعرف بالكتاب المقدس باسم Tyre ، وهناك استدعى للاجتماع أعيان الرجال من جيشه، وسألهم هل سيكون عملاً جيداً بالنسبة له للذهاب للاستيلاء على مدينة بانياس قبل أن يذهب إلى صيدا، ورأينا جميعاً أنها ستكون خطة جيدة أن يرسل الملك عساكره إلى هناك، لكن ما من أخذ رأى أن من الحكمة له أن يذهب شخصياً إلى هناك، وبعد صعوبات جمة اقتنع بالتخلي عن تلك الفكرة، وتقرر أخيراً أن يذهب كونت دي إيو، وأن يكون برفقته فيليب دي مونتفورت، وجايل لى برن، قسطلان فرنسا، وبيير حاجب الملك، ومقدم الداوية مع أفراد طائفته، ومقدم الاستبارية مع رجال من طائفته أيضاً.

وقد سلحنا أنفسنا عند حلول الليل، ووصلنا قبيل بزوغ الفجر إلى سهل خارج المدينة التي اسمها الآن بانياس، لكنها عرفت بالكتابات المقدسة باسم قيسارية فيليب، وينبع في هذه المدينة نبع اسمه «أر»، وينبع بالسهل خارج المدينة نبع آخر جميل جداً يدعى «دان»، والذي يحدث الآن هو أنه عندما يلتقي هذين النهرين الصغيرين الصادرين من هذين النبعين يصبحان نهراً يدعى «الأردن»، وهو الذي تعمد مولانا في مياهه.

وتقرر بالوافق بين الداوية وبين الكونت دي إيو، والاستبارية، وبارونات البلاد الذين كانوا موجودين هناك، بأن تتخذ فرقة الملك — وهي الفرقة التي كنت أنا فيها، لأن الملك وضع تحت خدمته الفرسان الأربعين الذين كانوا من فرساني — موقفاً لها بين المدينة وبين القلعة، مدعومة بالعساكر الذين كانوا تحت إمرة الفارس الجيد غيوفري دي سارجين، وكان على بارونات البلاد، الدخول إلى المدينة من جهة اليسار، وأن يدخل الاستبارية من جهة اليمين، في حين توجب على الداوية المضي على طول الطريق الذي جئنا عليه، لفتح عمر من ذلك الاتجاه.

وزحفنا نحو الأمام حتى اقتربنا تماماً من بانياس، فوجدنا فقط أن المسلمين الذين كانوا في داخلها، قد هزموا سيرجندية الملك، وطردوهم من المدينة، وفور معرفتي بذلك مضيت إلى القادة المسؤولين عن قوات الكونت إيو، وقلت لهم: «أيها السادة، إنكم ما لم تذهبوا إلى حيث أمرنا نحن أن نذهب، وتتمركزوا بين المدينة والقلعة، سوف يقتل المسلمون جميع الذين دخلوا إلى بانياس»، وكان الذهاب إلى هناك عمل خطير جداً، لأن الطريق الذي توجب علينا ركوبه كان مليئاً بالمخاطر، والأرض وعرة وشديدة الانزلاق، وبصعوبة بالغة كان يمكن لفرس الاحتفاظ بحوافره على الأرض دون السقوط، في حين كانت الجوانب الأخرى من الراية المنخفضة التي توجب علينا الوصول إليها، غاصة بعساكر المسلمين على ظهور خيولهم.

وبينما كنت أتحدث إلى الكونت إيو وإلى فرسانه، رأيت سيرجنديتنا الرجالة يخترقون الأسوار، وما أن لاحظت ذلك حتى قلت للمسلمين كنت أتحدث إليهم، بأن الأوامر قد صدرت إلى كتيبة الملك بالذهاب إلى المكان الذي كان الجند المسلمون يحتلونه، وبسبب صدور هذا الأمر، علي الذهاب، وعندما انعطفت مع اثنين من فرساني وأخذت اتجاه الذين كانوا يهدمون السور، رأيت واحداً من السير جندي الخيالة، قد سقط فرسه عليه، وهو يحاول الوثوب فوق السور، ولدى رؤيتي ذلك تراجلت، وأخذت فرسي من مقوده، وبإرادة من الرب، حدث على كل حال، أن الجند المسلمين ما أن رأونا قادمين حتى تخلوا عن الموقع الذي أردنا احتلاله، وكان هناك جرف صخري امتد نازلاً بشكل حاد إلى المدينة.

وعندما وصلنا إلى المكان الذي كان الجند المسلمون قد تخلوا عنه، تخلى المسلمون الذين كانوا في داخل بانياس عن القتال، وهجروا المدينة إلى رجالنا بدون إبداء أية مقاومة، وعندما كنت فوق الراية سمع

مارشال الداوية بأني كنت في خطر، فجاء متسلقاً للمنحدر باتجاهي، وجاء الألمان، الذين كانوا في فرقة الكونت دي إيوي، في الوقت نفسه خلفي، وعندما رأوا الخيالة المسلمين مغذين الخطى بفرارهم نحو القلعة، تحركوا للقيام بمطاردتهم، فناديتهم: «أيها السادة إنكم تبتعدون عن الصواب بما تقومون به، فنحن في موقع أمرنا باحتلاله، وأنتم تتجاوزون الآن أوامركم».

وتدعى القلعة التي تشرف على المدينة باسم «الصبيبة»، وهي على ارتفاع نصف فرسخ تماماً في أعلى جبال لبنان، وتتناثر على المنحدر الذي يقود صعوداً إلى القلعة، الصخور الكبيرة، التي يبلغ حجم بعضها حجم عدة صناديق كبيرة، وعندما أدرك الألمان بأنهم أفلعوا بعملية مطاردة بلا فائدة قفلوا عائدين، وعندما رآهم المسلمون يفعلون ذلك تحلقوا حولهم، وهاجموهم وهم على الأقدام، وسددوا نحوهم ضربات شديدة من أعالي الصخور بحراهم، وأخذوا يسحبون التجافيف عن ظهور خيولهم.

ولدى رؤية السيرجندية الذين كانوا معنا الأضرار التي لحقت بالألمان، بدأوا يشعرون بالخوف، وتنهار عزائمهم، وبناء عليه أخبرتهم أنهم إذا ما ترحلوا عن مواقعهم سوف أطردهم طرداً نهائياً من خدمة الملك، فقالوا: «كفتينا يا مولاي غير متساويتين، لأنك أنت على ظهر فرس، ويمكنك النجاة بسهولة، بينما نحن على الأقدام، ولسوف يقتلنا المسلمون»، فقلت لهم: «بالنسبة لذلك، أقسم لكم أنني لن أفر، بل سأبقى معكم مترجلاً على الأقدام»، وهكذا ترجلت، وبعثت بفرسي إلى الخلف إلى الداوية، الذين كانوا على رمية قوس عقار إلى الخلف منا.

وبينما كان الألمان يتراجعون، جاءت نشابة رماها أحد المسلمين فأصابت واحداً من فرساني، واسمه جين دي بوسي، في حلقومه، فسقط ميتاً قرب قدمي، وقال لي عمه هوغو دي اسكوت Escot ، الذي

برهن على شجاعته الكبيرة في الأرض المقدسة: « تعال يامولاي وساعدنا، لنحمل ابن أخي وننزله عبر المنزلق»، فقلت: «أتمنى أعظم السوء لكل واحد سوف يساعذك، لأنك ذهبت إلى هناك من دون أوامري، وإذا ما حاق بك شر، فأنت تستحق ذلك، احمله بنفسك إلى كومة الفضلات، لأنني لن أتحرك من هنا حتى يُرسل خلفي».

وعندما سمع جين دي فالنسيان بالخطر الذي نحن فيه، ذهب إلى أولفر دي تيرم Termes والرجال القياديين الآخرين للانجدوك Lan-guedoc وقال لهم: «أرجوكم يا سادتي وأمركم باسم الملك أن تقوموا بإنقاذ النائب»، وعندما كان يعبر عن اهتمامه، جاء وليم دي بيمونت إليه وقال: «إنك تتعب نفسك وتشغلها بلا فائدة فالنائب ميت»، فرد عليه مولاي جين: «لا أبالي إن كان حياً أم ميتاً، إنني سوف أذهب وأحصل على أخباره من أجل الملك»، وهكذا انطلق وجاء إلى المكان الذي ذهبنا إليه فوق الجبل، وما أن اقترب منا حتى صرخ إليّ للذهاب نحوه والحديث معه، وهذا ما فعلته.

وبين أولفر دي تيرم بأننا كنا في وضع خطير جداً، وإذا نزلنا عبر الطريق الذي صعدنا عليه، من الممكن أن لا نفعل ذلك دون خسائر كبيرة، لأن الجرف منحدر جداً ومنزلق، ويمكن للمسلمين الهبوط علينا من الأعلى، ثم أضاف يقول: «إذا أصغيتم إلي، سوف أساعدكم على النجاة من دون خسائر»، فطلبت منه أن يبين ما الذي يريدنا أن نفعل، وسوف أعمل على التنفيذ.

فقال: «أقول لكم، إننا إذا ما ذهبنا مباشرة على طول هذا الجرف، وكأننا نريد قصـد دمشق، فإن المسلمين الذين تراهـم في الأعلى سيعتقدون بأننا ننوي مهاجمتهم من الخلف، وما أن نصبح بالأسفل فوق السهول، فسوف نعدو بخيولنا ونمضي حول المدينة، وسوف نعبـر النهر قبل تمكنهم من الوصول إلينا، وبالإضافة إلى هذا سنلحق بهم

أضراراً عظيمة، بأن نلقي النار في بيادر القمح الموجودة هناك فوق الحقول».

واتبعنا توجيهاته، وجعلنا نجمع بعضاً من القصب الذي يستخدم لصنع المزامير، وشحنها بفحم يحترق، ورميناها بين بيادر القمح، وهكذا — شكراً لنصيحة أولفرد دي تيرم الحكيمة — أعادنا الرب سالمين، وعلى كل حال لا بد من أن أخبركم، أننا عندما عدنا إلى المعسكر، حيث كان رجال شعبنا، وجدناهم جميعاً قد خلعوا أسلحتهم لأن ما من واحد هناك أولانا الاهتمام.

وعدنا في اليوم التالي إلى صيدا، حيث كان الملك مقيماً، ووجدناه شخصياً مشغولاً، بالإشراف على دفن أجساد جميع المسيحيين الذين قتلهم المسلمون عندما هدموا المدينة، وقد حمل بذاته بعض الجثث المهترئة وذات الرائحة النتنة إلى الحفر الكبيرة لدفنها، وذلك من دون أن يغلق أنفه كما فعل الآخرون، وبعث و جلب العمال من جميع المنطقة المجاورة، وشرع بإعادة تحصين المدينة بأسوار عالية وبأبراج، وعندما عدنا إلى المعسكر وجدناه قد تولى شخصياً قياس المواقع التي كنا سننصب خيامنا فوقها، وقد منحني مكاناً إلى جوار الكونت دي إيو، لأنه عرف بأن هذا الفارس الشاب كان يؤثر صحبتي كثيراً.

ولا بد لي من أن أحدثكم هنا عن بعض المداعبات المدهشة التي لعبها كونت دي إيو معنا، فقد اصطنعت لنفسي نوعاً من أنواع البيوت اعتدت أنا وفرساني على استخدامه لتناول الطعام، وكنا نجلس للحصول على الضوء من الباب، الذي حدث أنه واجه محلات كونت دي إيو، وصنع كونت دي إيو، الذي كان رجلاً ذكياً جداً، آلة رمي بدائية صغيرة، كان بإمكانه أن يرمي بها بحجارة إلى داخل خيمتي، وكان يتولى مراقبتنا عندما كنا نتناول طعامنا، فيجهز آتته لتطول برماياتها مائدتنا، ثم يأخذ بالرمي فيكسر جدراننا وكؤوسنا، وفي إحدى

المناسبات عندما جلبت ميرة من الفراخ والديكة، وصدف أن أعطى إنسان أو آخر دباً إلى الكونت، فما كان منه إلا أن أفلت الحيوان بين طيوري، وقد قتل دزينة منهم قبل أن يتمكن أحد من الوصول إلى هناك، وقد ضربت المرأة التي كانت ترعى طيوري الدب بمغزها.

وعندما كان الملك يقوم بتحسين صيدا، وصل بعض التجار إلى المعسكر، وأخبرونا كيف أن ملك التتار قد استولى على بغداد، وأسر القائد الديني للمسلمين، الذي كان يحكم تلك المدينة، وكان يعرف باسم خليفة بغداد، وقد أخبرونا كيف حصل الاستيلاء على المدينة، والقبض على صاحبها، الأمر الذي حدث كمايلي: أرسل ملك التتار، بعدما ألقى الحصار على بغداد، إلى الخليفة يقول بأنه يرحب كثيراً بترتيب زواج بين أولادهما، وأشار مستشارو الخليفة عليه بقبول هذا الاقتراح، وبناء عليه طلب ملك التتار من الخليفة أن يرسل ما يبلغ تعداده أربعين من مستشاريه ليقسموا على الزواج، وفعل الخليفة هذا ونفذه، وبعد هذا بعث الملك يطلب منه إرسال أربعين رجلاً آخرين من بين أغني وأعظم أعيان سكان مدينته، وفعل الخليفة هذا أيضاً، ثم بعث الملك للمرة الثالثة يطلب أربعين رجلاً آخر من أفضل رجال بلاطه، ومجدداً استجاب الخليفة ونفذ المطلوب، والآن وقد بات أعيان رجال المدينة بين يديه وتحت سلطانه، شعر ملك التتار أن أهالي بغداد المتواضعين لن يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم بدون قادة، ولهذا أمر بقطع رؤوس هؤلاء المائة والعشرين رجلاً، ثم أمر بالهجوم على بغداد، واستولى على المدينة، وقبض على خليفته.

ولكي يغطي على خيائته ويلقي باللوم من أجل الاستيلاء على المدينة على الخليفة، أمر بحمل الخليفة وبوضعه داخل قفص حديدي، ثم أبقاه مزوداً بقليل من الطعام يكفي للحيلولة دون موت الرجل جوعاً، ثم سأل الملك الخليفة عما إذا كان جائعاً، وقال الخليفة أنه بالفعل كذلك،

وهو أمر لم يكن مدهشاً أبداً، وبناء عليه أمر الملك بطشت كبير من الذهب، مليء بالمجوهرات وبالأحجار الكريمة، ووضعها أمام الخليفة وسأله: «هل تعرف هذه الجواهر»، فأجابه الخليفة: «نعم كانت هذه ملكاً لي»، وسأله ملك التتار عما إذا كان يثمنهم كثيراً، وأجابه الخليفة أنهم ذوي قيمة عظيمة لديه، فقال له الملك: «بما أنك تقدرهم تقديراً عالياً، خذ من هذه الجواهر التي تراها هنا ما تريده وكل منها»، وردّ عليه الخليفة بأنه لا يمكنه ذلك، «بما أنهم ليسوا طعاماً من الممكن أكله»، وبناء عليه قال له الملك: «يمكنك أن ترى الآن ما الذي كانت عليه وسائل دفاعك، لأنك لو قمت بتوزيع ثروتك — التي لا فائدة منها الآن لك — بين رجالك المسلحين، لكان بإمكانك بالانفاق لها هكذا، القيام بالدفاع عن نفسك بنجاح ضدنا، وها هي الآن ثروتك تتخلى عنك في ساعة حاجتك الماسة».

وعندما كان الملك يقوم بتحسين صيدا، ذهبت في صباح أحد الأيام عند إشراق الشمس لأراه، فوجدته في القديس، وطلب مني انتظاره، لأنه كان يرغب بالركوب للتنزه، وهذا ما فعلته، وبينما كنا نتجول في الحقول في الخارج، مررنا أمام كنيسة صغيرة، ورأينا ونحن نعبّر من أمامها، كاهناً في داخلها، يرتل قداساً، وأخبرني الملك بأن هذه الكنيسة قد بنيت تعظيماً لذكرى معجزة قام بها مولانا عندما طرد الشيطان من جسد ابنة الأرملة، وقال لي إذا كنت أرغب، فسيقف لسماح القديس الذي بدأه الكاهن للتو، فأخبرته بأن هذا سيكون شيئاً جيداً القيام به.

ولما حل وقت تسليمنا لوحه «السلام» (لتقبيلها)، لاحظت أن القس الذي كان يتولى المساعدة أثناء القديس، كان طويلاً، وداكن البشرة، وكثيف الشعر، فخفت أن يكون واحداً من الحشيشية الأشرار، وأنه عندما سيقدم لوحه السلام إلى الملك، قد يتولى قتله، ولهذا نهضت وأخذت لوحه السلام وجلبتها إلى الملك بنفسه.

وعندما انتهى القديس، وكنا ثانية على ظهور خيولنا مررنا بالنائب البابوي في الحقول، واتجه الملك نحوه، وبعدها دعاني إلى القدم قال له: «عليّ أن أشكو لك من نائبتي، الذي جلب إليّ لوح السلام، ولم يدع القس المسكين يجلبه»، فأخبرت النائب البابوي بالسبب الذي حداني إلى فعل ذلك، فقال بأنني تصرفت بشكل صحيح، فقال الملك: «لا بالحقيقة إنه لم يفعل ذلك»، وهنا بدأ نقاش كبير بينهما، أما بالنسبة لي شخصياً فقد التزمت بالصمت، وأنا الآن حين أخبركم بهذه الحكاية، فقط لأوضح عظيم إنسانية الملك وتواضعه.

أما بالنسبة للمعجزة التي قام بها مولانا لابنة الأرملة، فقد وردت روايتها في الانجيل، الذي ذكر أنه عندما قام بهذه المعجزة كانت المنطقة تعرف باسم منطقة Tyre ، وكانت المدينة التي أشرت إليها في هذا الكتاب باسم صيدا تعرف باسم صيدون.

وعندما كان الملك مشغولاً في تحصين صيدا، جاء إليه رسل من عند نبيل عظيم كان موجوداً في عمق بلاد الإغريق، وكان يدعو نفسه «عظيم آل كومنوس»، وصاحب طرازون، وجلب هؤلاء الرجال هدية إلى الملك مؤلفة من مختلف الجواهر، وكان بين أشياء كثيرة قسي (زنبورك) مصنوعة من أعواد خاصة، وكانت الفتحات من أجل رؤوس السهام مثبتة في القسي، حتى إذا ما أطلقت رؤوس السهام، كان بإمكانك أن ترى أنها كانت حادة جداً، وجيدة الصنع.

وطلب هؤلاء الرسل من الملك إرسال فتاة غير متزوجة من بين سيدات بلاطه لتكون زوجة لسيدهم، فأجابهم بأنه لم يجلب معه أيّاً من مثل هؤلاء السيدات من بلاده، وقام على كل حال بنصيحة الرسل بالذهاب إلى القسطنطينية، للطلب من ابن عمه الامبراطور إعطاهم زوجة لسيدهم ، تكون سيدة قريبة له شخصياً وقريبة للامبراطور، وأعطاهم الملك هذه النصيحة لعل امبراطور القسطنطينية يدخل

بتحالف مع هذا النبيل العظيم والثري ضد فاتاسز، الذي كان آنذاك امبراطور الإغريق.

ووصلت الملكة، التي نقهت مؤخراً بعدما ولدت السيدة بلانشي في يافا، إلى صيدا بوساطة البحر، وما أن سمعت أنها باتت هناك، حتى نهضت من مكاني الذي كنت جالساً فيه إلى جانب الملك، وذهبت لمقابلتها، ومرافقتها حتى تعود إلى القلعة، وعندما عدت إلى الملك، الذي وجدته في بيعته، سألتني عما إذا كانت زوجته والأولاد بخير، وعندما أخبرته بالإيجاب علق قائلاً: «عندما نهضت وتركتني عرفت يقيناً أنك ذاهب لمقابلة الملكة، ولهذا طلبت منهم تأجيل القداس حتى عودتك»، وأنا مخبركم بهذا، بسبب أنني لم أسمع الملك مرة واحدة خلال السنوات الخمس التي أمضيتها معه يتحدث إليّ عن زوجته وعن الأولاد، ولم يفعل ذلك مع أي إنسان آخر، في حدود ما أعرفه، والذي أراه، يبدو أنه ليس من اللائق، وغير الصحيح بالنسبة للرجل أن يكون هكذا بعيداً عن أسرته الخاصة.

ودعوت في يوم عيد جميع القديسين جميع أعيان الرجال في المعسكر إلى محلاتي، التي كانت مجاورة للبحر، وعندما كنا نتناول طعام الغداء، وصل في سفينة فارس فقير ومعه زوجته، وأولادهما الأربعة، فقدمت لهم وجبة طعام في محلاتي، وبعدها انتهينا من تناول الطعام، جمعت كل ضيوفي المهمين وقلت لهم: «دعونا نقوم بعمل إحسان، فنفرج عن هذا الرجل الفقير وعن أولاده، بأن يقوم كل واحد منهم فيتعهد واحداً، واختصموا فيما بينهم حول من سيأخذ من، ولدى رؤية الفارس الفقير هذا شرع مع زوجته بالبكاء فرحاً.

وحدث وقتذاك أن الكونت دي إيوي، كان عائداً من تناول الطعام مع الملك فتوقف لينظر إلى الرجال الذين كانوا معي، وأخذ الطفل الذي اخترته، وكان في حوالي الثانية عشرة من عمره، وخدم هذا الفتى

الكونت بشكل جيد وبإخلاص، لذلك قام سيده بعد العودة إلى فرنسا بترتيب زواج له، وعمله فارساً، وكان في كل مرة صدف وكنت فيها في المكان نفسه مثل الكونت، كان هذا الفارس نادراً ما يفارقني واعتاد مراراً أن يقول لي: «أثابك الرب يا مولاي، لأنني مدان بكل هذا الشرف الذي أتمتع به، لك»، أما بالنسبة إلى أخوته الثلاثة فلا أدري ماذا حدث لهم.

وطلبت من الملك أن يأذن لي بالذهاب للحج إلى كنيسة سيدتنا في طرطوس، وكان مقامها مكان مقصود جداً من قبل الحجاج، لأنه هناك جرى بناء أول مذبح على الأرض تعظيماً لأم مولانا، وصنعت مولاتنا هناك كثيراً من المعجزات العظيمة، منها أسوق خبر المعجزة التالية مثلاً، فقد كان هناك رجل محبول تماماً، مسكون من قبل الشيطان، وبينما كان رفاقه الذين جلبوه إلى هذا المقام يصلون إلى أم مولانا من أجل إعادته إلى العافية، صرخ العدو من داخل جسده قائلاً لهم: «سيدتنا ليست هنا، إنها في مصر تقدم العون إلى ملك فرنسا وإلى المسيحيين، الذين ينزلون هذا اليوم بالذات إلى اليبسة، ويقاتلون على الأقدام ضد قوات الخيالة العائدة للمسلمين»، وكتب تاريخ هذه الواقعة على وثيقة جلبت إلى النائب البابوي، الذي حدثني عنها شخصياً، ويمكنني أنؤكد لكم بأن سيدتنا قد ساعدتنا بالفعل في ذلك اليوم، وكانت ستساعد أكثر لولا أننا أغضبناها وابناها، كما تقدم لي وأخبرتكم.

وسمح لي الملك بالذهاب إلى طرطوس، وأخبرني — بناء على نصيحة مستشاريه — أن أشتري مائة قطعة قماش من وبر الجمل، من مختلف الألوان، لصالحه، حتى يعطيها إلى الرهبان الفرنسيين عندما يعود إلى فرنسا، وجعلني هذا أشعر بكثير من الراحة، لأنه بدا لي في ذلك إيحاء بأنه لن يبقى طويلاً في بلاد ما وراء البحر.

وعندما قدمنا إلى طرابلس سألني فرساني عما أنا عازم على صنعه

بكل هذه القطع القماشية من وبر الجمل، ورجوني أن أخبرهم، فقلت: «إنني ربما قد استوليت عليهم لبيعهم للحصول على الفائدة الشخصية»، وقام أمير طرابلس — منحه الرب النعمة — بالاحتفاء بنا بشكل نبيل، ومنحنا كل التشريف المستطاع، وكان سيعطيني ويعطي فرساني هدايا ثمينة جداً، لو أبدينا الاستعداد لقبولهم، غير أننا رفضنا أخذ أي شيء باستثناء بعض الآثار المقدسة، التي أخذت بعضها إلى الملك، مع أقمشة وبر الجمل التي ابتعتها له.

وأرسلت أيضاً أربع قطع من قماش وبر الجمل إلى صاحبة الجلالة الملكة، وكان الفارس الذي توجه لتقديمهم، قد حملهم بعد لفهم بقطعة من الكتان الأبيض، وعندما رأتهم الملكة يدخلون إلى غرفتها ركعت أمام الفارس، وركع هو بدوره أمامها، فقالت الملكة له: «انهض يا فارسي الجيد، ليس من اللائق لك الركوع عندما تكون حاملاً لآثار مقدسة»، فرد الفارس قائلاً: «سيدتي، هؤلاء ليسوا آثاراً مقدسة، بل قطعاً من قماش وبر الجمل أرسلهم لك مولاي»، ولدى سماعها بهذا بدأت الملكة والسيدات اللائي كن عندها بالضحك، وقالت الملكة لفارسي: «أخبر سيدك بأنني أتمنى له أسوأ حظ، بما أنه جعلني أركع أمام أقمشته من وبر الجمل».

وفي أثناء إقامة الملك في صيدا، جلب له أحد الناس حجراً كان يتفتت إلى شظايا، وكان أروع حجر في العالم، لأنك عندما كنت تنتزع إحدى شظاياها، تجد شكل سمكة بحرية بين قطعتين من الحجر، وكانت هذه السمكة من الحجر كلياً، ولم يكن فيها شيئاً ناقصاً في شكلها، وقد أعطاني الملك واحدة من هذه الأحجار، فوجدت في داخلها سمكة شبوط، وكان لونها بني، وكانت بكل تفاصيلها تماماً مثل سمكة شبوط.

وعندما كنا في صيدا تلقى الملك أخباراً عن موت أمه (ماتت في تشرين ثاني ١٢٥٢)، فتمدد حزيناً لمدة يومين كاملين دون أن يتجرأ

أحد على التكلم إليه، وبعث بعد هذا واحداً من خدمه من حاشيته لاستدعائي، وعندما مثلت بحضرتي، ووجدته جالساً لوحده في غرفته، مدّ إلى ذراعيه عندما رأي وقال: «أواه، أيها النائب لقد فقدت أمي»، فقلت له: «ياسيدي لم تدهشني هذه الأخبار، ذلك أنها ماتت، لكنني مندهش منك، في أن تبدي، وأنت الرجل العاقل مثل هذا الحزن والأسى بهذه المناسبة، لأنه كما تعلم، قال أحد الفلاسفة العقلاء: مهما كان الأسى الذي يشعر به الإنسان في قلبه، ينبغي أن لا يظهر أي شيء منه على وجهه، لأنه بإظهاره لأساه يعطي لأعدائه سبباً للبهجة، ويجلب الحزن لأصدقائه»، وقام الملك بخدمات دينية كثيرة للملكة الأم في بلاد ما وراء البحر، كما وبعث إلى فرنسا بصندوق مليء بالرسائل وجهه إلى جميع الكنائس، يسألهم فيه الصلاة من أجل روحها.

وجاءت السيدة مريم دي فيرتس *Vertus* ، وكانت سيدة فاضلة وتقية، لتخبرني بأن الملكة غارقة بالأحزان، وسألنتي الذهاب إليها ومواساتها، وعندما وصلت إلى هناك، وجدتها تبكي، ولهذا قلت لها: إن الرجل الذي قال ما من إنسان يمكنه قط أن يخبر ما الذي يمكن للمرأة أن تفعله، قال الصدوق، ثم قلت: «لأن المرأة التي كرهتك كراهية عظيمة قد ماتت، وها أنت تبدين لأجلها مثل هذا الأسف»، فأخبرتني بأنها لم تكن تبكي من أجل الملكة بلانشي، بل بسبب الحزن الذي أظهره الملك بنحبه على الميتة، وبسبب انتها — ملكة نافار فيما بعد — والتي تُركت الآن لتعيش في ظل رعاية الرجال فقط.

وقد عاملت الملكة بلانشي، الملكة مرغريت بقسوة شديدة، وبقدر ما أوتيت من قدرة، حيث أنها لم تسمح لابنها أن يكون بصحبة زوجته إلا عندما كان يذهب للنوم معها أثناء الليل، وكان القصر الذي آثره الملك الشاب أن يعيش به هو قصر بونتوي *Pontoise* ، لأن هناك كانت غرفة الملك في طابق علوي، وغرفة الملكة تحته مباشرة، وقد نظموا

الأمر بحيث تمكنوا من الالتقاء والحديث معاً فوق سلم دائري يقود من غرفة إلى الأخرى، وكذلك رتبوا أنه عندما كان الحجاب يرون الملكة بلانشي تقترب من غرفة ابنها، كانوا يقرعون على الباب بعصيتهم، فكان الملك يبادر مسرعاً إلى غرفته وبذلك تجده الملكة هناك، وفعل الشيء نفسه حجاب غرفة نوم الملكة مرغريت، عندما كانت الملكة بلانشي تكون ذاهبة إلى غرفة كتتها، حتى تجد الملكة الشابة جالسة لوحدها فيها.

وكان الملك مرة إلى جانب زوجته، عندما كانت عرضة لخطر الموت بسبب جروح عانت منها أثناء ولادتها لولد، ودخلت الملكة بلانشي إلى غرفتها، وأخذت الملك من يده وسحبته جانباً وقالت له: «ابتعد عن هنا، فمالك من عمل جيد تؤديه هنا»، وعندما رأت الملكة مرغريت الملكة الأم تأخذ الملك وتبعده صرخت قائلة: «وأأسفاه، لن تدعيني أرى زوجي سواء أكنت في الحياة أم في المات!» ثم أغمى عليها، واعتقد الجميع بأنها قد ماتت ورجع الملك الذي تصور أنها كانت تموت، وبصعوبة بالغة أعادوها إلى وعيها.

الفصل السابع عشر

عودة إلى فرنسا

شباط — كانون أول ١٢٥٤

ولدى اقتراب الانتهاء من تحصين صيدا، أمر الملك بالقيام بعدة مسيرات في أرجاء المعسكر، وحث النائب البابوي الناس لدى انتهاء كل مسيرة على الصلاة للرب لكي تسير شؤون الملك حسب إرادته، وأن يتمكن من القيام بكل ما هو عظيم الرضاء في نظره، سواء أرجع إلى فرنسا أم بقي في بلاد ما وراء البحر.

وبعد انتهاء جميع المسيرات، استدعاني الملك من حيث كنت جالساً مع نبلاء بلاد ما وراء البحر، واقتادني إلى إحدى الساحات، حيث جعلني أقف وظهري متجه نحوهم، ثم قال النائب البابوي لي: «أيها النائب، الملك مسرور جداً من خدماتك، وسوف يتهيج في رؤية هذه الخدمات وهي تجلب المنفعة والشرف، ولكي يجلب الطمأنينة لك طلب مني أن أخبرك، بأنه قرر العودة إلى فرنسا في الفصح المقبل»، فأجبت: «يا رب أعنه على تنفيذ رغباته».

ونفض النائب البابوي، وأخبرني أن أرافقه إلى محلاته، الأمر الذي فعلته، واقتادني إلى غرفة خاصة، حيث لم يكن من أحد معنا، وأغلق الباب، ثم وضع يدي في يديه وشرع يبكي بحرقة، وما أن تمكن من الكلام حتى قال لي: «أنا مسرور إلى أبعد الحدود، أيها النائب، وأقدم شكري للرب، أن الملك، وأنت، وبقية الحجاج، قد نجوا من المخاطر العظيمة التي تعرضتم لها هنا، غير أنني حزين في قرارة نفسي إذ توجب عليّ أن أتخلى عن صحبة مثل هؤلاء الرجال المستقيمين، مثلك أنت، والعودة إلى بلاط روما، إلى بين الناس الخونة هناك، وعلى كل حال

سوف أخبرك بما أقترح القيام به، إنني عازم على أن أجعل من الممكن لي البقاء لمدة سنة بعد مغادرتكم، وأن أنفق كل ما لدي في تحصين أحواز عكا، وبهذه الطريقة سوف أري الناس في روما، أن من المؤكد أنني لم أجلب أي مال معي، وأن يدي فارغتين، لذلك سوف لن يسعون راكضين خلفي».

وما أن أخبرت النائب البابوي عن ذنبن اقترفهما واحد من الكهنة المرتبطين بي، حتى قال: «ما من أحد يعرف، مثلما أعرف أنا الذنوب المنحطة والدينئة التي اقترفت في عكا، ولهذا سوف ينزل الرب بهم انتقاماً، تتطهر به عكا بدماء سكانها، وسوف يأتي قوم آخرون للسكنى في مكانهم»، وقد تنبأ هذا الرجل بما وقع جزئياً، لأن من المؤكد أن المدينة غسلت تماماً بدماء سكانها، غير أن الذين سوف يعيشون هناك، لم يقدموا بعد، جعل الرب الذين سوف يرسلهم إلى هناك، رجالاً صالحين، تكون أعمالهم وفق مشيئته.

وبعد بعض الوقت بعث الملك خلفي، وأمرني بتسليح نفسي، ولدى سؤاله لماذا؟ أخبرني بأن ذلك لمرافقة الملكة وأولادها إلى صور، على بعد سبعة فراسخ، ولم أقل كلمة واحدة جواباً له، مع أنه كان باعثاً بي في مهمة خطيرة جداً، لأنه لم يكن في ذلك الوقت لاصلاح ولا هدنة بيننا وبين المسلمين في مصر أو في دمشق، وشكراً للرب، لقد وصلنا إلى صور خلال الليل سالمين تماماً، مع أننا ترجلنا مرتين، وأشعلنا النار من أجل طبخ طعامنا، ولإعطاء الأطفال شيئاً يأكلوه، أو لنمكثهم من الرضاعة.

وقبل أن يغادر الملك صيدا — التي حصنها بأسوار عالية، وبأبراج، وبخنادق واسعة نظفها من الطين من الداخل ومن الخارج — جاء البطريق مع بارونات البلاد إليه، وخاطبوه كمايلي: «لقد قمت يا صاحب الجلالة بتحصين مدينة صيدا، ومدينة قيسارية، وبلدة يافا،

ولهذا كله منافع واسعة للأرض المقدسة، كما قمت أيضاً بتقوية الدفاعات عن عكا بالأسوار وبالأبراج التي بنيتها من حولها، ولقد تداولنا حول الأمور بين أنفسنا، ولم نر وجه فائدة لمملكة القدس ببقائك هنا لمدة أطول أخرى، ولهذا ندعوك بإلحاح بأن تذهب إلى عكا أثناء الصوم الكبير المقبل، وإعداد نفسك للسفر إلى الوطن، حتى يكون باستطاعتك العودة إلى فرنسا بعد الفصح»، وأخذاً بنصيحة البطريرك والبارونات غادر الملك صيدا، وذهب إلى صور، حيث كانت الملكة مقيمة، ومضينا من هناك إلى عكا، إلى حيث وصلنا مع بداية الصوم الكبير.

واهتم الملك في أثناء الصوم الكبير في إعداد السفن للعودة إلى فرنسا، وكان عدد الموجود من السفن ثلاث عشرة فقط، بما في ذلك الغلايين والسفن، وباتت هذه المراكب جاهزة في الوقت المحدد ليركبها الملك والملكة في عشية عيد القديس مرقص بعد الفصح، وكانت الريح لطيفة للبحار، وأخبرني الملك في يوم عيد القديس مرقص، بأن ذلك اليوم هو يوم عيد ميلاده، ورددت عليه أن بإمكانه أن يقول في المستقبل بأنه قد ولد مجدداً في ذلك اليوم، لأنه من المؤكد أنه دخل في حياة جديدة عندما نجا من تلك البلاد المرعبة.

وأصبحنا في يوم السبت على مرأى من قبرص، والجبل القائم في تلك الجزيرة واسمه جبل الصليب، وتساعد في ذلك اليوم ضباب من الأرض وانتشر في البحر، فلهذا خيل للملاحين، الذين رأوا قمة الجبل فقط فوق الضباب، أننا كنا أبعد عن قبرص مما كنا عليه بالفعل، ولهذا تقدموا مبشرين بجرأة حتى حدث واصطدمت سفينتنا بشاطئ الرمل تحت الماء، ولولا أننا حظطنا واصطدمنا بذلك الشاطئ الصغير من الرمل، لاصطدمنا بكتلة كبيرة من الصخور المغرقة، ولتحطمت سفينتنا إلى قطع، ولسقطنا جميعاً ولغرقتنا.

وعندما اصطدمت سفيتتنا، ارتفعت صرخة عالية على ظهر السفينة، وكان كل واحد يصرخ وهو مصاب باليأس، وعصر الملاحون وبقية الناس أيديهم خوفاً من الغرق، وما أن سمعت الصراخ حتى نهضت من فراشي حيث كنت مستلقياً. وذهبت إلى ظهر السفينة للالتحاق بالبحارة في برج السفينة، وعندما وصلت إلى هناك قال الراهب ريموند — وكان داوياً وأمراً للملاحين — لواحد من رجاله: «ارم الرصاص»، وما أن فعل ذلك حتى صرخ: «الرحمة لنا، نحن فوق الأرض» ولدى سماع الراهب ريموند بهذا، شد ملابسه وشمورها حتى حزامه، وشرع بتنف لحيته، وأخذ بالوقت نفسه يصرخ: «لقد ضعنا، لقد ضعنا».

وقام في تلك اللحظة واحد من فرساني، واسمه جين دي مونسون Monson — وكان والد وليم راعي دير القديس ميخائيل — بتقديم خدمة عظيمة لي، بأن جلب لي رداء مبطناً من أرديتي، وألقاه على ظهري دون التفوه بكلمة، لأنني كنت مرتدياً قميصي فقط، فقلت بصوت مرتفع له: «ما فائدة هذا الرداء الذي جلبته لي، ونحن نغرق؟» فأجابني: «نفسي لك الفداء، إنني أفضل أن أرانا جميعاً نغرق على أن أراك تصاب بمرض ما من البحر وأن تموت بسببه».

ونادى بحارتنا: «أنتم، أيها الذين في الغلايين، تعالواخذوا الملك»، لكن من بين أربعة غلايين كانت للملك هناك، لم يقترب أي منها منا، وبفعلهم هذا تصرفوا بحكمة كبيرة، لأنه كان على ظهر سفيتتنا ثمانمائة إنسان، وكان هؤلاء سيقفزون إلى الغلايين لإنقاذ حياتهم، وبذلك كانوا سيسبون غرقها.

وقام الرجل الذي لديه الرصاص برمييه ثانية، ثم جاء إلى الراهب ريموند ليخبره بأن السفينة لم تعد جانحة فوق الأرض، وذهب الراهب ريموند ليخبر الملك، فوجده متمدداً فوق السطح أمام تمثال جسد مولانا الموجود فوق المذبح، وقد مدّ ذراعيه على شكل صليب، وكان

عاري القدمين في قميصه فقط، وشعره مشعث مثله مثل إنسان كان يتوقع الغرق بلا شك.

وما أن جاء نور الصباح حتى رأينا أمامنا الصخرة التي كنا سنصطدم بها، لولا أن سفينتنا جنحت فوق شاطئ الرمل، وجمع الملك في الصباح جميع مقدمي بحارة السفن، فبعثوا أربعة غواصين إلى قاع البحر، وبعد عودتهم من الغوص، استمع إليهم الملك مع مقدمي البحارة كل على انفراد، واحداً بعد الآخر، وبذلك لم يعرف غواص ما قاله الغواص الآخر، وعلى كل حال عرف مما قاله الأربعة، أنه في أثناء الجنوح فوق الرمل والاحتكاك به زال أكثر من عشرين قدماً من القعر الذي بنيت عليه سفينتنا.

وجمع الملك مقدمي الملاحين، وسألهم ما الذي يشيرون به في ضوء الدمار الذي لحق بالسفينة، وبعدها تبادلوا الرأي فيما بينهم، أخبروا الملك بأنهم ينصحونه بمغادرة السفينة وأن يصعد ظهر سفينة أخرى، وقالوا: «نحن نخبرك أن تفعل هذا، لأننا نعتقد بشكل يقيني أن جميع خشب سفينتك قد تفكك، ونخشى أنها عندما تصبح في أعالي البحار، لن تكون قادرة على الصمود في وجه ضربات الأمواج، وسوف تتفتت إلى قطع، ولأنكم تعلمون، أننا عندما كنا قادمين من فرنسا، أصيبت إحدى سفنكم بمثل الإصابة نفسها، ولدى مواجهتها للمياه العاتية، تحطمت، وهلك كل واحد كان على ظهرها باستثناء امرأة واحدة وابنها، فقد عامت بسلام على قطعة من السفينة، (أنا يمكنني شخصياً تأكيد ذلك، وأنهم كانوا يقولون الصدق، لأنني رأيت المرأة وولدها في بيت الكونت دي جويني Joigny ، حيث أعطاها مأوى، محبة بالرب).

وتشاور الملك مع اللورد بيير الحاجب، وجايل لي برن قسطلان فرنسا، وجيرفيه دي اسكرين Escraines رئيس طباخي البيت الملكي، ورئيس شامسة نيقوسيا، المسؤول عن ختم الملك، وهو الذي صار

كاردينالاً فيما بعد، وأخيراً أنا شخصياً، وسألنا عن الذين نشير بصنعه في هذه الحالة، وأجبناه على الإنسان في جميع القضايا الدنيوية الاقتداء بالذين لديهم أفضل الخبرة والمعلومات، وقلنا: «وبناء عليه، نخبرك من جهتنا أن تفعل ما يخبرك به هؤلاء البحارة».

والتفت الملك إلى مقدمي البحارة وقال: «أستحلفكم بشرفكم، فيما إذا كانت السفينة سفيتكم، ومحملة ببضائعكم، هل كنتم ستتهجرونها؟»، وأجابوه معاً أنهم ما كانوا سيقومون بذلك، وأنهم كانوا يؤثرون تعريض أنفسهم لخطر الغرق على أن يقوموا بدفن سفينة كلفتها أربعة آلاف ليرة ذهبية أو أكثر، وهنا قال الملك: «لماذا، إذن تشيرون عليّ بمغادرة السفينة؟» فأجابوه: «لأن المقارنة غير صحيحة، لأنه لا قيمتك شخصياً، ولا قيمة زوجتك، ولا قيمة أولادك، ولا قيمة الذين معك على ظهر السفينة يمكن تقويمها بالذهب والفضة ولهذا السبب نشير عليك أن لا تخاطر بحياتك أو حياتهم».

فقال الملك: «سادتي الطيبين، لقد سمعت ما ترونه، وما يراه أتباعي، وسوف أخبركم الآن بالذي أراه، وهو مايلي: إذا ما غادرت أنا هذه السفينة، فهناك خمسمائة إنسان أو أكثر على ظهرها، سيقومون بالنزول في قبرص خشية الخطر على أنفسهم — لأن ما من واحد منهم إلا ويجب حياته مثلما أحب أنا حياتي — وربما لن يعود هؤلاء إلى بلدانهم، ولهذا سأضع نفسي وزوجتي وأولادي في أيدي الرب، ولن أسبب مثل هذا الأذى العظيم لمثل هذا العدد من الناس الذين هم هنا».

وكان الضرر الذي سيسببه الملك إلى الناس من الممكن رؤيته مما حدث لأولفرد دي تيرم، الذي كان في سفينة جلالته، فقد كان واحداً من أجرأ الناس الذين رأيتهم قط، وقد ميز نفسه فوق بقية أتباعه في الأرض المقدسة، ومع ذلك لم يتجرأ على البقاء معنا خشية الغرق، وهكذا بقي في قبرص، ووجد هنا عوائق كثيرة في طريقه، حتى أنه لم

يتمكن من الإلتحاق بالملك إلا بعد مضي سنة ونصف السنة مع أنه كان رجلاً ثرياً وله مكانته، وكان من الممكن له أن يدفع بسهولة نفقات عبوره، ففكروا كيف كان يمكن لأناس من مرتبة أدنى، من دون ما يكفي من المال، كان بإمكانهم أن يدفعوه لنفقات رحلتهم إلى الوطن، وكيف كانوا سيتدبرون الأمر، وقد رأينا إنساناً مثل هذا في مكانته وقد أعيق إلى هذا الحد العظيم.

وما أن نجونا من هذا الخطر، الذي نجانا الرب منه، جتى وقعنا بخطر آخر، ذلك أن الريح التي ساقتنا إلى ساحل قبرص، حيث كان من الممكن أن نغرق بكل سهولة، بدأت الآن تهب بشدة كبيرة ويعنف أرغمتنا به على العودة ثانية إلى الجزيرة، وألقى البحارة بمراسيهم لمواجهة الريح، لكنهم لم يتمكنوا من إيقاف السفينة حتى أنهم ألقوا بخمسة مراسي، ولقد بات من الضروري إزالة جوانب حجرة الملك التي كانت واقعة فوق السطح العلوي للسفينة، فما من واحد تجرأ على البقاء هناك خشية أن تجرفه الريح إلى البحر، وحدث في ذلك الحين أن كنت أنا وجايل لى برن متمددين في غرفة الملك، ففتحت الملكة الباب، معتقدة أنها سوف تجد زوجها في الداخل، فسألتها عن الذي تبحث عنه، فأخبرتني أنها جاءت للتحديث إلى الملك، ولتطلب منه أن يعمل نذراً إلى الرب، أو إلى قديسيه، في أن يذهب في حج ما حتى يمكن للرب أن ينجينا من الخطر الذي كنا فيه، لأن البحارة قالوا بأننا جميعاً عرضة لخطر الغرق، فقلت لها: «سيدتي تعهدي بالقيام برحلة إلى مزار القديس نيقولا في فرنجفيل Varangiville ، وأنا أضمن لك عنه بأن الرب سوف يعيدك إلى فرنسا مع الملك وأولادك»، فأجابتنى قائلة: «سوف أفعل ذلك عن طيبة خاطر أيها النائب لكن الملك له طباع خاصة غريبة، حيث أنه إذا ما عرف بأنني عملت هذا التعهد من دون معرفته، لن يدعني أذهب».

فقلت: « في جميع الأحوال، هناك شيء واحد يمكنك القيام به: يمكنك الوعد، إذا ما أعادك الرب سالمة إلى فرنسا، تقديم سفينة من الفضة، قيمتها خمسة ماركات، عن الملك وعنك، وعن أولادك الثلاثة، ووقتها أنا أضمن أن الرب سوف يعيدك إلى فرنسا، لأنني شخصياً نذرت إلى القديس نيقولا أنه إذا ما أنقذنا من الخطر الذي كنا فيه في الليلة الماضية، سوف أذهب من جوانفيل، مشياً على الأقدام غير منتعل، لزيارة مزاره في فرنجفايل»، وأجابت الملكة أنه بالنسبة للسفينة الفضية التي قيمتها خمسة ماركات، فإنها تعد بها إلى القديس نيقولا، وأن أتولى الضمانة والشهادة لديه، وأخبرتها بأنني سأفعل ذلك بكل سرور، ثم إنها ذهبت، لكنها لم تبقى بعيدة لمدة طويلة، فقد عادت فوراً وقالت لي: «لقد أنقذنا القديس نيقولا من خطرنا الحالي، لأن الريح قد هدأت».

وعندما عادت الملكة إلى فرنسا — منحها الرب الرحمة — أمرت بصنع سفينة فضية لها في باريس، وكان فيها تماثيل تمثلها، وتمثل الملك، وتمثل أولادها الثلاثة، وكانوا جميعاً من الفضة، واستخدم المعدن نفسه لتمثيل البحارة، والسارية، والعلم، والدفعة، أما الأشرعة فقد خيطوا بخيوط فضية، وأخبرتني الملكة أن صنعها كلف مائة ليرة ذهبية، وعندما باتت جاهزة، أرسلت السفينة لي إلى جوانفيل، حتى أتدبر نقلها إلى بيعة القديس نيقولا، وقد فعلت ذلك، وقد رأيتها مازالت في بيعته عندما كنا نصطحب أخت الملك الحالي إلى هاغونو Ha-guenau للزواج من ابن امبراطور ألمانيا.

ودعونا الآن نعود إلى موضوعنا الأساسي، ولنتابع حكايتنا، فبعدما نجونا من هذين الخطرين، جلس الملك على حافة السفينة العليا، وطلب مني الجلوس عند قدميه وقال لي: «تعلم أيها النائب أن الرب قد أظهر قدرته بوضوح كامل لنا، بواحد من رياحه الصغيرة — وليس بواحد من رياحه الأربعة الرئيسية — وكاد أن يغرق ملك فرنسا، وزوجته

وأولاده، وكل من كان برفقته، ولهذا يتوجب علينا إظهار امتناننا وتقدير شكرنا لإنقاذنا من مثل هذا الخطر».

ثم أضاف: «ولقد أخبرنا القديسون أنه عندما تلم البلايا بالناس ويبتلون عرضة لمعاناة مثل هذه المحن، أو الإصابة ببعض الأمراض الخطيرة، أو الخضوع لعذاب شديد، عليهم عدّ ذلك بمثابة إنذارات أو تهديدات من مولانا ومخلصنا، لأنه كما قال للذين شفيوا من بعض الأمراض الخطيرة: انظروا كيف كان بإمكانكم لو أنني أردت، بإمكانه أن يقول لنا الآن: انظروا كيف كان بإمكانكم لو شتتكم أن تموتوا».

ومضى الملك بحديثه يقول: «لهذا علينا أن ننظر في أنفسنا ونتفحصها لنرى إذا ما كان هناك أي شيء فينا لا يرضي مولانا، وبسببه قام بإرعابنا، وإذا ما وجدنا شيئاً في أنفسنا يغضبه، علينا على الفور أن نتخلص منه، لأننا إذا ما فعلنا عكس ذلك بعد هذا الإنذار الذي أعطانا إياه، سوف يعاقبنا بالموت، أو بمصيبة أخرى عظيمة، سوف تؤذي أجسادنا وأرواحنا».

ثم أضاف الملك وتابع يقول: «قال القديس أيها النائب: مولانا الرب لماذا هددتنا؟ لأنك لو دمرتنا جميعاً، فذلك لن يجعلك أفقر، كما أنك لن تكون أغنى لو حفظتنا، وقال القديس: ومن هذا نرى أن هذه الانذارات التي بعثها لنا، لم يبعثها ليزيد مرابحه، ولا ليحمي نفسه من الخسارة، بل أرسلهم فقط صدوراً عن حبه العظيم، ليوقظنا، لكي نمثلك شعوراً نظيفاً بشأن مستقبلنا، وأن نظهر قلوبنا من كل ما لا يرضيه».

وبعدما زودنا سفينتنا بما يلزم من ماء الشرب، وأشياء أخرى كنا نحتاجها، غادرنا جزيرة قبرص، وأبحرنا إلى جزيرة أخرى اسمها

لامبدوسا Lampdusa حيث أمسكنا عدداً كبيراً من الأرناب، ووجدنا هناك ناسكاً عجوزاً بين الصخور، مع حديقة كان النساك الذين عاشوا هناك منذ مدة طويلة قد زرعوها، وكانت مزروعة بأشجار الزيتون، وأشجار التين، والكرمة وأشجار أخرى ونباتات من مختلف الأنواع، وكان هناك نهر صغير يجري خلال الحديقة من نبع هناك، وذهب الملك مع بقيتنا إلى قلب البستان، حيث وجدنا في أول كهف وصلناو إليه كنيسة صغيرة، جدرانها مطلية بلون أبيض، وهي تحتوي على صليب من الطين الجاف، ولدى دخولنا إلى الكهف الثاني وجدنا جسدين لرجلين ميتين، اهترأت جلودهما، وما تزال أطرافهما فوق بعضها، وعظام أيديهما فوق صدريهما، وكان جسديهما ممددين باتجاه الشرق، حسب الطريقة نفسها التي يدفن بها الناس تحت الأرض.

وعندما عدنا إلى سفينتنا وجدنا واحداً من بحارتنا مفقوداً، واعتقد مقدم البحارة أنه لا بد بقي في الجزيرة ليكون ناسكاً، ولهذا ترك نيقولا دي سوسي Soisi ، الذي كان مقدم سيرجنديّة الملك ثلاثة حقائب من البقساط، علّ ذلك الرجل يجد شيئاً يفتات به.

وبعدما غادرنا لامبدوسا وصلنا إلى مرأى من جزيرة كبيرة في وسط البحر، وكانت تعرف باسم بانتالاريا Pantalaria (قوصرة)، وكانت مسكونة من قبل المسلمين الذين كانوا خاضعين لملك صقلية وملك تونس، وترجت الملكة الملك أن يرسل إلى هناك ثلاثة غلايين ليحلبوا فواكه لأولادها، وقد وافق الملك، وبعث بمقدمي الغلايين للذهاب إلى هناك، وأمرهم أن يكونوا جاهزين لالتحاق به فور مروره أمام الجزيرة، وأخذت الغلايين طريقها إلى هناك، ودخلت إلى ميناء صغير، لكن الذي حدث أنه عندما مرت سفينة الملك من أمام الميناء، لم تكن هناك علامة على وجودهم.

وبدأ البحارة يتمنون فيما بينهم، وبناء عليه أمر الملك بمشول جميع

البحارة أمامه، وسألهم عن الذي يعتقدون أنه قد حدث، فقالوا بأنه يبدو لهم أن المسلمين قد أسروا رجال الملك وغلايينهم، وقالوا: «ونحن ننصح جلالتك بشدة أن لا تنتظرهم، لأنك الآن بين مملكتي صقلية وثورنس، وما من واحدة منهما تمتلك مشاعر الحب نحوك، وإذا ما تركتنا نتابع ابحارنا، فسوف نخرجك من هذا الخطر قبل الصباح، لأننا نكون في ذلك الوقت قد مررنا خلال المضيق».

وقال الملك: «الحق أقول، ليس لدي نية بالأخذ بنصيحتكم، وأن أترك رجالي في أيدي المسلمين، دون بذل غاية جهدي لإنقاذهم، ولهذا أمركم بإدارة أشركم حتى يكون بإمكاننا مهاجمة الأعداء»، وعندما سمعت الملكة بهذا، بدأت تبدي عظيم جزعها وقالت: «واحزننا، هذا كله من صنعي».

وبينما كنا نجهز أشرعة سفينة الملك والسفن الأخرى حتى نكون في مجرى الريح نحو الساحل، رأينا الغلايين تغادر الجزيرة، وما أن اقتربوا من الملك، حتى سأل الملاحين لماذا تأخروا كل هذه المدة، فأجابوه بأن ذلك لم يكن تقصيراً منهم بل فوق طاقتهم، ومرد الخطأ إلى بعض أبناء برجاسية باريس، الذين كان عددهم ستة، فقد تأخر هؤلاء في الحدائق، وهم يأكلون الفواكه، ولقد كان من غير الممكن إحضارهم، ولم يرغبوا في تركهم خلفهم، وأمر الملك بوضع المجرمين الستة في القارب الطويل، وهنا بدأوا يصرخون ويعولون، وقالوا: «من أجل الرب، خذ يا صاحب الجلالة كل ما نملكه فدية لنا، ولا تلقنا بين القتلة واللصوص، لأن ذلك سيكون عاراً أبدياً لنا».

وبذلت الملكة وجميعنا كل ما نستطيعه حتى يغير الملك قراره، غير أنه لم يصغ إلى أي واحد منا، وهكذا وضع الستة جميعاً في القارب الطويل، ومكثوا هناك حتى وصلنا إلى اليابسة، وكانوا في وضع خطر كبير، وضيق شديد، حتى أنه عندما كان البحر يثور، كانت الأمواج العالية

تندفق فوق رؤوسهم، وتوجب عليهم البقاء جالسين طوال الوقت، خوفاً من أن تجرفهم الرياح إلى الماء، وكان هذا العقاب رادعاً لهم واستحقوه، بسبب الأذى الذي ألحقه جشعهم بنا، فقد تأخرت رحلتنا اسبوعاً عما كانت ستحتاجه، لأن الملك جعل السفن تغير مسارها، وتعود إلى الخلف.

وقبل أن نصل إلى اليابسة واجهنا مخاطرة أخرى في البحر، فقد قامت إحدى الراهبات العلمانيات، وكانت تتولى خدمة الملكة، بأخذ منشفة الملكة التي كانت ترتديها حول رأسها، عندما وضعت سيدتها في الفراش، وألقت بها بدون انتباه قرب الموقد المعدني، الذي كانت فوقه شمعة الملكة تحترق، وبعدها مضت هذه الانسانة البسيطة إلى النوم في الحجرة المخصصة لنوم النساء، تحت فراش الملكة، تابعت الشمعة احتراقها، حتى بات لهبها منخفضاً بما فيه الكفاية لاشعال المنشفة، وانتقلت النار من هناك إلى الأقمشة التي كانت تغطي الملكة بها لباسها.

وأفاقت الملكة لتجد حجرتها وهي تحترق، فقفزت من فراشها وهي عارية تماماً، والتقطت المنشفة، ورمتها وهي تحترق في البحر، ثم أطفأت النار التي كانت فوق ثيابها، وصرخ الرجال الذين كانوا خلف السفينة في القارب الطويل بهدوء «النار، النار» فرفعت رأسي فرأيت المنشفة وهي ماتزال تلتهب بقوة فوق سطح البحر الهادئ، فارتديت قميصي بأقصى سرعة ممكنة، وذهبت فجلست مع البحارة.

وبينما أنا هناك، جاء تابعي، الذي كان نائماً عند أسفل فراشي، وأخبرني بأن الملك قد استيقظ وسأل عن مكان وجودي، وقال: «لقد أخبرته أنك في حجرتك، فقال الملك لي: انك تكذب»، وفيما نحن نتحدث جاء قسيس الملك الأخ غيوفري بشكل مفاجيء إلينا وقال لي: «لا تخشى شيئاً، كل شيء على ما يرام» فقلت: «الأخ غيوفري إذهب إلى الملكة وأخبرها بأن الملك مستيقظ، واطلب منها أن تذهب إليه لكي

يطمئن باله».

وفي اليوم التالي قال قسطلان فرنسا، وبيير حاجب الملك، وجيرفيه رئيس طباشي الملك، للملك: «ما الذي حدث في الليل، لأننا سمعنا كلمة نار؟»، أما أنا من جانبي فقد احتفظت بالصمت، لكن الملك رد قائلاً: «إنه مجرد حادث عرضي، يبدو لي أن النائب يعرف عنه أكثر مني، وعلى كل حال سوف أخبركم كيف أنه صدف أن نجونا بصعوبة من الاحتراق في الليلة الفائتة»، وهكذا أخبرهم بالذي حدث وقال لي: «أيها النائب إنني أمرك من الآن فصاعداً بأن لاتذهب إلى الفراش، حتى تكون قد أشرفت على إطفاء جميع النيران، باستثناء النار الرئيسية في مخزن السفينة، وليكن معلوماً لديك أنني لن أذهب إلى فراشي حتى تأتي إليّ وتخبرني بأن ذلك قد صنع»، وقد نفذت هذا الواجب طوال وجودنا في البحر، ولم يذهب الملك إلى فراشه قط حتى عدت إليه.

وحدث حادث آخر في أثناء رحلتنا، فقد كان اللورد دراغونت Dra-gonet، وهو سيد من بروفانس، نائماً في صباح أحد الأيام في سفينته، التي تبعد متقدمة حوالي الفرسخ أمام سفننا، ولدى استيقاظه دعا واحداً من أتباعه وقال له: «خذ شيئاً ما وغط تلك الفتحة لأن الشمس تضرب وجهي»، ووجد التابع نفسه غير قادر على تغطية الفتحة إلا من الخارج، فصعد جانب السفينة، وعندما كان مشغولاً في وضع الغطاء انزلقت قدمه، وسقط في الماء، وبما أن السفينة كانت سفينة صغيرة، لم يكن لديها قارب طويل للنجاة مربوط بها، وهكذا خلفت التابع على مسافة بعيدة منها، ورآه الذين كانوا في سفينة الملك، لكن بما أن الرجل في الماء لم يبذل أي جهد لمساعدة نفسه، ظننا أنه حزمة ما، أو برميلاً.

وقام واحد من غلايين الملك بانتشاله، وجلبه إلى سفينتنا، حيث أخبرنا كيف وقع الحادث، وسألته لماذا لم يحاول مساعدة نفسه، إما بالسباحة أو بأي طريقة أخرى، فأجابني أنه لم تكن هناك حاجة لذلك،

أو ضرورة بالتفكير بالقيام بذلك، لأنه عندما بدأ بالسقوط أو كل نفسه إلى سيدتنا سيدة فوفيرت Vauvert وقد أمسكته هي من كتفيه من وقت سقوطه حتى انتشله غليون الملك، وتشريفاً لهذه المعجزة، تدبرت أمر رسمها على جدران بيعتي في جوانفيل، وكذلك فوق الزجاج الملون للنوافذ في بليكورت.

وبعدما أمضينا عشرة أسابيع في البحر وصلنا إلى ميناء وقع على قرابة الفرسخين من قلعة هير Hyeres، التي عادت بملكيتها إلى كونت دي بروفانس، الذي أصبح فيما بعد ملكاً على صقلية، ووافقت الملكة ومعها جميع المستشارين على وجوب نزول الملك هناك، لأن البلاد كانت تابعة إلى أخيه، وردّ الملك، أنه في جميع الأحوال لن يغادر سفينته حتى نصل إلى أيغو— مورت Aigues- Morts، التي كانت في أراضيه، وتمسك بهذا الرأي ضدنا طوال يومي الأربعاء والخميس، ولم نستطع إجباره على تغيير رأيه.

وامتلكت جميع السفن التي بنيت في مرسيليا سكانين ارتبط كل واحد منها بذراع دفة بطريقة رائعة تمكّنك من إدارة السفينة إلى اليمين أو إلى اليسار بسهولة مثلما يمكنك إدارة الحصان أثناء الفلاحة، وفي يوم الجمعة كان الملك جالساً على واحد من هذين الذراعين، وقد استدعاني إليه وقال: «ما هو رأيك أيها النائب حول هذه المسألة؟» فقلت: «إنك سوف تستحق ما سيجري لك إذا ما واجهت منيتك بشكل ما، مثلما حدث لمدام بوربون، التي رفضت النزول في هذا الميناء، بل مضت ثانية إلى أيغو— مورت، وبقيت في البحر لمدة ستة أسابيع كاملة».

واستدعى الملك مستشاريه للاجتماع به، وبعدما أخبرهم بالذي قلته سألمهم عن الذي يشيرون به، وقد رأوا جميعاً أن عليه النزول هناك، وبالتالي سيكون تصرفاً غير منطقي من جانبه، الآن وقد باتوا خارج الخطر، تعريض نفسه، وزوجته وأولاده لمزيد من المخاطر في البحر،

وقبل الملك هذه النصيحة التي أسديناها له، وبعث قراره بهجة عظيمة في نفس الملكة.

وبالنتيجة نزل الملك مع أسرته قرب قلعة هير، وفي الوقت الذي كان ينتظر فيه هناك للحصول على خيول لرحلته عائداً إلى جزيرة فرنسا، أهداه راعي دير كلوني— الذي صار فيما بعد أسقفاً لأولف Olive — مهريين، تساوي قيمتهما خمسمائة ليرة ذهبية في هذه الأيام، وكانا مهر للملك شخصياً والآخر إلى الملكة، وبعدهما أهداه إياهما راعي الدير للملك: «سوف أعود غداً، لأتحدث إلى جلالتكم حول مسائل شخصية»، وعاد راعي الدير في اليوم التالي، وأصغى الملك مطولاً وبعناية كبيرة لما قاله، وعندما ذهب مضيت إلى الملك وقلت له: «أود أن أسالك إذا ما سمحت لي، عما إذا كنت أوليت راعي يركلوني العناية وأصغيت إليه باهتمام، بسبب المهريين اللذين أعطاكهما البارحة؟» وفكر الملك ملياً ولوقت طويل، ومن ثم قال: «تريد أن أخبرك الصدق، لقد فعلت».

فقلت: «يا صاحب الجلالة هل تعرف لماذا سألتك هذا السؤال؟» فقال: «لماذا فعلت ذلك؟» فأجبت: «بسبب أنني أشير بإخلاص على جلالتك، أنك عندما تعود إلى مملكتك أن تحظر على مستشاريك الذي أقسموا على إدارة أعمال العدالة، قبول أي شيء من الذين لديهم أية قضية لعرضها أمامك، وكن متأكداً، أنهم إذا ما قبلوا أية هدية، سوف يصغون برضا أعظم، وبعناية أكبر إلى الذين أعطوهم شيئاً ما، مثلما فعلت جلالتك في قضية راعي دير كلوني»، واستدعى الملك على الفور مستشاريه إليه، وأخبرهم بالذي قلته، فأخبروه بأن الذي أشرته عليه جيداً.

وسمع الملك تقارير عن راهب فرنسيسكاني اسمه الأخ هوغو، وبسبب سمعة هذا الراهب العظيمة استدعاه إليه، حتى يتمكن من

رؤيته ويستمع إلى عظته، وفي اليوم الذي كان الراهب هوغو قادماً فيه إلى هير، تشوفنا على طول الطريق الذي كان قادماً عليه، ورأينا حشداً عظيماً من الرجال والنساء يسرون خلفه على أقدامهم، وطلب الملك منه أن يعظ، وقد بدأ قداسه بتعليقات على الذين كانوا في التنظيمات الرهبانية، وقال: «سادتي، لقد رأيت عدداً كبيراً من الرهبان في بلاط الملك، وفي صحبته»، ثم أضاف: «في المقام الأول، أنا شخصياً واحد من عدد كبير جداً هنا، وأقول هذا لأن الرهبان هنا في وضع لا يمكن انقاذهم فيه، ما لم تكن الكتابات المقدسة تكذب علينا، وهذا غير ممكن، لأن هذه الكتابات المقدسة تخبرنا أن الراهب لا يجوز أن يعيش خارج دير، أكثر من الوقت الذي يمكن لسمة أن تعيشه خارج الماء، وهنا إذا كان هؤلاء الرهبان يقولون بأن البلاط هو دير، يمكنني أن أقول لهم إنه أو سع دير رأيت قط، لأنه يمتد من شاطئ البحر هذا إلى الشاطئ الآخر، وإذا ما أعلنوا أنهم يبارسون في دير من هذا الطراز حياة قاسية في سبيل خلاص أرواحهم، إنني لا أصدقهم، لأنني أخبركم أنني وأنا موجود معهم هنا لقد أكلت كثيراً من مختلف أنواع اللحوم، وشربت كثيراً من الخمور القوية واللطيفة من أفضل الأنواع، ومن هنا أؤكد لكم بثقة أنهم لو كانوا يعيشون في ديرتهم لما عاشوا مثل هذه الحياة السهلة والرغدة، التي يعيشونها الآن مع الملك».

وأخبر الراهب أثناء عظته الملك كيف ينبغي أن يحكم لصالح شعبه، وأنهى خطابه بقوله بأنه قرأ الكتاب المقدس وكثيراً من الكتابات التي تساعد على شرحه، غير أنه لم يرقط في الكتابات المسيحية أو غير المسيحية، أن أي مملكة أو دولة ضاعت أو انتقلت من حاكم إلى آخر، ما لم يكن تقدم ذلك تجاهل لمطالب الحق والعدالة، وقال: «ولهذا، على الملك العائد الآن إلى مملكته، أن يأخذ بالحسبان حكم شعبه بالعدل والمساواة، فبذلك يكون جديراً بحب الرب، ولن ينتزع الرب مملكته منه

مادام حياً».

وقد قلت للملك يتوجب عليه الاحتفاظ بالراهب هوغو بصحبته بقدر ما يمكنه من الوقت، فأخبرني بأنه قد تولى رجاء الراهب للبقاء معه، لكن لهذا كله رفض، ثم أخذني الملك من يدي وقال: «دعنا نذهب كلانا ونترجاه معا»، وذهبنا لرؤيته، وقد قلت له: «أرجوك ياسيدي استجب لما طلبه منك الملك، وامكث معه طالما هو في بروفانس»، وقد أجابني بغضب عظيم قائلاً: «في الحقيقة ياسيدي إنني لن أفعل مثل هذا الشيء، ولسوف أذهب إلى حيث يرى الرب أنه أفضل من البقاء مع الملك وبرفقته»، وقد بقي يوماً واحداً معنا، وغادر في الصباح التالي، وسمعت فيما بعد أنه مات ودفن في مدينة مرسيليا، وقد صنع هناك عدداً من المعجزات.

ومضى الملك في اليوم الذي غادر فيه هير نازلاً من القلعة سيراً على الأقدام لأن الراية كانت شديدة الانحدار، ولقد ابتعد في سيره كثيراً إلى حد أنه لم يستطع العودة إلى مهره، وهكذا توجب عليه امتطاء مهري، وعندما أحضر مهره إليه التفت مغضباً كثيراً نحو خادمه بونس Ponce، وبعدما وجه إلى هذا الانسان المسكين توبيخاً كبيراً، قلت للملك: «يتوجب عليك يا صاحب الجلالة أن تغفر لبونس الخادم كثيراً، لأنه خدم جدك، وأباك، وأنت»، فرد علي: «أيها النائب، إنه لم يخدمنا، بل نحن الذين خدمناه، بالسماح له بالبقاء معنا على الرغم من مواصفاته السيئة، لأن جدي الملك فيليب، أخبرني مرة أن علينا مكافأة خدمنا، بعضهم أكثر، وبعضهم أقل، وذلك تبعاً للطريقة التي أدوا بها واجباتهم، كما أنه اعتاد أن يقول لا يمكن لانسان أن يحكم بلاداً بشكل جيد ما لم يعرف كيف يرفض بقسوة وبثبات مثلما يعرف كيف يعطي»، وأضاف يقول: «وإنني إذ أخبرك بهذه الأشياء، لأن العالم جشعون جداً بمطالبهم، إلى حد أن عدداً قليلاً من الناس هم الذين يفكرون بإنقاذ

نفوسهم، أو يسعون في سبيل شرفهم الشخصي، دون أن يكون ذلك على حساب الاستيلاء على ممتلكات الآخرين سواء أكان ذلك حقاً أم باطلاً».

ومرّ الملك في طريقه عبر مقاطعة بروفانس، بمدينة واقعة في تلك الأرجاء اسمها اكس Aix ، فيها يرقد جسد مريم المجدلية مدفوناً، ومضينا للنظر إلى كهف مرتفع كثيراً في منطقة صخرية قيل بأن القديسة قد عاشت فيه عيشة التنسك لمدة سبع عشرة سنة، وعندما وصل الملك إلى بوكير Beaucaire، ورأته قد صار في أراضيها داخل ممتلكاته، ودعته وذهبت لأقوم بزيارة ابنة أخي دوفين دي فينا Daufine de Vinne ، ثم زيارة عمي كونت دي شالون Chalon ، وابنه كونت بيرغندي.

وبعد الإقامة لبعض الوقت في جوانفيل، حيث توليت العناية بمصالحني الخاصة، ذهبت للالتحاق بالملك، الذي وجدته في سواسون، وقد رحب بي بسرور عارم، إلى حد أن جميع الذين كانوا معه تعجبوا من ذلك، ووجدت الكونت جين دي بريتاني هناك مع زوجته ابنة الملك ثيبوت الأول ملك نافار، وقد قدمت لتقدم الولاء للملك، بشأن جميع الحقوق التي يمكن أن تناها في شامبين، وعلى كل أجل الملك النظر بالقضية، وأحالتها، وكذلك أحال الملك ثيبوت الثاني إلى مؤتمر سوف يعقد في باريس، حيث يمكن سماع قضيتها، ولكي تأخذ العدالة مجراها لصالح الفريقين.

وجاء ملك نافار مع مستشاريه إلى هذا المؤتمر، وكذلك فعل كونت دي بريتاني، وفي أثناء الاجراءات طلب الملك ثيبوت يد ابنة الملك، السيدة ايزابل، وذلك من أجل الزواج، ولقد قررت الذهاب إلى الملك للحديث معه حول هذا التحالف، وذلك دون أن أعاباً بالأشياء التي قالها أبناء بلدي من شامبين، من وراء ظهري، وذلك حسداً منهم لي

إزاء الحب الذي رأوا الملك يبيده نحووي في سواسون، وقال الملك لي: «اذهب إلى كونت دي بريتاني واحمله على القبول، ووقتها سوف ننجز الزواج»، وأخبرته أن عليه عدم إعطاء مثل هذه الاعتبارات أهمية تجعله يتخلى عن فكرة الزواج، فأجابني بأنه لن يوافق بأي حال من الأحوال على حدوث الزواج حتى يتم الوصول إلى اتفاق، لأنه لا ينبغي أبداً أن يقول أحد من الناس أنه حتى يزوج أولاده حرم باروناته من ميراثهم.

ورويت هذا الحديث إلى الملكة مرغريت أوف نافار، وكذلك إلى ابنتها الملكة ثيبوت، وإلى مستشاريهم، وما أن سمعوا ما قاله الملك لويس حتى بادروا مسرعين للوصول إلى اتفاق، وعندما توصلت الأطراف جميعاً إلى اتفاق، جرى الاحتفال بالزواج في ميلون Melun ، بأبهة كاملة وحفل عظيم، وذهب الملك ثيبوت بعد ذلك إلى بروفنز Pro-vins مع عروسه، حيث جرى الترحيب بدخولهما من قبل جمع كثيف من البارونات.

الفصل الثامن عشر إدارة الملك لمملكته

بعد عودة الملك من بلاد ماوراء البحر، عاش دون إكتراث بمباهج الحياة الدنيا، حتى أنه لم يلبس ثوباً من فراء السمور والسنجاب، أو من الأقمشة القرمزية، كما أن ركائبه ومهاميزه لم تكن مذهبة، وصنعت ثيابه إما من وبر الجمل أو من الأقمشة الصوفية الرمادية، وكان الفراء على هذه الملابس وعلى أغطية فراشه إما من جلود الغزلان أو من جلود الأرناب، أو جلود الخرفان.

وكان شديد التقشف في تذوقه للطعام إلى حد أنه لم يأمر قط بأي طعام خاص لنفسه، بل كان يتناول أي شيء أعده الطباخ، وأكل أي شيء وضع أمامه، وكان يمزج الماء بالخمرة ويشربها من قدح عادي بيده، عندما يقوم الخدم بتحضير الخمرة خلف مائدته، واهتم دوماً بإطعام الفقراء، وبعد تناولهم للطعام، كان يرسل مالاً لتوزيعه بينهم.

وعندما كان يأتي بعض المغننين العاملين في خدمة بعض النبلاء مع آلائهم للترفيه عنه بعد الغداء، كان الملك دوماً ينتظر حتى الانتهاء من الغناء، وذلك قبل ترتيل الشكر، ثم كان يقف، ويقف كهنته أمامه لترتيل الشكر، وفي المناسبات التي كنا نزوره فيها زيارات غير رسمية، كان يجلس عند قدمي فراشه، وإذا صدف وقام بعض الرهبان المبشرين أو الفرنسييسكان الذين كانوا معه بالحديث عن كتاب، رغبوا في أن يقرأ على مسامع الملك، كان يقول: «لا تقرأوه لي، ليس هناك من كتاب يعدل بالجودة بعد الطعام حديث مفتوح بين الأصدقاء، وذلك عندما يقول كل واحد ما يرضيه قوله، وفي كل مرة كان بعض الغرباء من ذوي المكانة يأتون لتناول الطعام مع الملك، كانوا دوماً يجدونه أفضل أنيس.

وسوف أحدثكم الآن عن حكمته، فقد جاءت أوقات عندما سمع الناس يعلنون في الحقيقة أنه لم يكن بين مستشاريه من كان مثل الملك بحكمته، وكان بذلك واضح من حقيقة أنه عندما كان أي انسان يستشير حول مسألة ما، لم يكن يقول له: « سوف أستشير حول هذه القضية»، بل كان إذا ما رأى الحل الصحيح واضحاً وأبلجاً، كان يقدم الجواب بدون الإشارة إلى مستشاريه، وكان يفعل ذلك على الفور، فهذا ما سمعته عندما أجاب جميع أساقفة مملكته في مسألة الإلتماس الذي قدموه مرة إليه.

ففي هذه المناسبة خاطبة أسقف أو كسير Auxerre باسم جميع الأساقفة من أصحابه بقوله: « يا صاحب الجلالة، كلفني رؤساء الأساقفة والأساقفة الحضور في أن خبرك بأن شرف المسيحية أخذ بالإنحدار على يديك، ولسوف ينحدر أكثر ما لم تعط المسألة بعض التفكير والتقدير، لأن ما من انسان يخاف من التعرض للحرمان الكنسي في هذه الأيام، ولهذا نطلب منك يا صاحب الجلالة أن تأمر نوابك وبقية المسؤولين عن الشريعة بالقيام بإرغام جميع الناس الذين هم تحت عقوبة الحرمان الكنسي أن يقوموا خلال سنة ويوم على إقامة السلام مع الكنيسة»، ورد الملك بدون أخذ أية نصيحة بأنه سوف يلبي طلبهم عن طيب خاطر، ويأمر نوابه وبقية موظفيه بارغام مثل هؤلاء الناس حسب الطريقة المرغوب بها، شريطة إعطائه معرفة كاملة عن الحكم الصادر في كل قضية، حتى يمكنه أن يحكم فيما إذا كان القرار عادلاً أم لا.

وبعدما تشاور الأساقفة فيما بينهم أخبروا الملك أنهم سوف لن يزودوه بمثل هذه المعلومات، لأن هذه قضية من اختصاص المحاكم اللاهوتية فقط، وأجابه الملك أنه بدوره لن يقدم لهم المعلومات حول القضايا الواقعة في إطار اختصاصاته القضائية، وكذلك لن يأمر موظفيه بالقيام بارغام جميع الأشخاص المحرومين كنسيا للحصول على

التحليل، دون أخذ بالاعتبار سواء أكان قرار الحرمان قد صدر بشكل عادل أو ظالم، وأضاف «لأنني إذا ما فعلت كما تريدون، سأكون سالكاً لسبيل معاكس لشريعة الرب ولبادئ العدالة، وسوف أضرب لكم مثلاً بالقضية التالية: وضع أساقفة هذه المقاطعة كونت بريتاني تحت حكم الحرمان الكنسي لمدة سبع سنوات، حصل في نهايتها على التحليل من محكمة روما، والآن لو كنت فرضت الإرغام عليه في نهاية السنة الأولى، لكنت قد أخطأت بحقه وظلمته».

وحدث بعد عودته من بلاد ما وراء البحر أن قام رهبان دير القديس أوربين Urbain بانتخاب راعيين، فأقدم الأسقف بيير دي شالون— منح الرب الرحمة إلى روحه— على طردهما وأعطى عصا الرعاية مع المباركة إلى جين دي ميمري Mymeri ، الذي عينه لتولي هذا المنصب، ولم أعترف شخصياً بهذا الرجل راعياً، لأنه آذى الراعي غيوفري، الذي اشتكى ضده، ورفع قضية وأخذها إلى محكمة روما، ولقد أبقيت الرعاية بين يدي حتى ربح غيوفري العصا، والرجل الذي أعطاه الأسقف إياها لم يحصل عليها بعد ذلك مطلقاً، لكن طوال عرض القضية واستمرار الخلاف أبقائي الأسقف تحت عقوبة الحرمان الكنسي، ولهذا السبب تخاصمت بعنف مع الأسقف بيير دي شالون، أثناء المؤتمر الديرس عقد في باريس، مثلما فعلت الكونتسه مرغريت دي فلاندرز مع رئيس أساقفة الرايمز، الذي اتهمته بأنه كان لا يقول الصدق.

وفي أثناء المؤتمر الذي عقد بعد ذلك بوقت قصير، إلتمس الأساقفة جميعاً من الملك القدوم للتحديث معهم على انفراد، ولدى عودته من المقابلة مع هؤلاء الأعيان عاد جلالته إلينا، نحن الذين كنا ننتظره في قاعة المحكمة، وأخبرنا ، وهو يضحك من قلبه، عن الاضطراب الذي واجهه مع الأساقفة، فقد قال له رئيس أساقفة الرايمز في البداية: « يا صاحب الجلالة ما الذي سوف تعطيني إياه عوضاً عن الاشراف على

دير القديس ريمي أوف رايمز، الذي سوف تأخذه مني؟ لأنني أقسم بحق الآثار المقدسة التي هي أماننا، أنني لا أنوي المعصية واقتراف الذنب، مثلما تنوي أنت بالنسبة لجميع مملكة فرنسا»، فأجابه الملك: « أقسم بحق الآثار المقدسة التي هنا أماننا، أنك بأخلاقك الجشعة سوف تقترف الذنوب من أجل كومبين Compigne وحدها، وعلى هذا واحد منا نحن الاثنين حانث بيمينه وكاذب بدعواه».

ثم قال الملك: «وبعد ذلك طلب مني أسقف تشارترز وجوب أن أعيد إليه كل ما يخصه، وهو الآن بين يدي، فأخبرته أنني لن أفعل ذلك حتى الوقت الذي سيدفع فيه جميع ما أستحقه، وفضلاً عن هذا بينت له أنه على الرغم من تقديمه الولاء لي ويديه بيدي، هو لم يتعامل معي لا بشكل صحيح ولا بإخلاص في محاولته حرمانني من حقوق قد ورثتها».

واستطرد الملك يقول: «وقال أسقف شالون الآن لي: ما الذي تفكر جلالتك بصنعه فيما يتعلق بمولاي صاحب جوانفيل، وبخصوص ذلك الراهب المسكين الذي انتزع منه دير القديس أوربين» فأجابه الملك قائلاً: «سيدي الأسقف، لقد أقررت أنت وأصحابك الأساقفة بناء على اتفاق بينكم عدم عرض قضية رجل محروم كنسياً في محكمة مدنية، واستخلصت من رسالة محتومة بإثنين وثلاثين ختماً أنك خاضع لهذا النوع من الحرمان، ولهذا لن أستمع إليك حتى تتمكن من تحليل نفسك»، وانني إذ أخبركم بهذا كله، أستهدف فقط أن أريكم بكل وضوح كيف كان بإمكان الملك معالجة أية مشكلات توجب عليه فضها شخصياً، وذلك من دون الاستعانة بغير عقله الجيد.

وبعدما هيأت الأمور كلها لصالح الراعي غيوفري راعي دير القديس أوربين ردّ لي الاحسان بالإساءة، بتقديم شكوى ضدي، حيث أعطى الملك القديس الانطباع أن ديره كان تحت الرعاية الملكية، وطلبت

من الملك البحث في هذه المسألة، حتى يتبين له بدون أدنى شك هل الدير تحت وصايته أم تحت وصايتي، فقال راعي الدير له: « بمشيئة الرب، لن تفعل شيئاً من هذا القبيل يا صاحب الجلالة، بل بالحري رتب لعرض المسألة المختلف عليها فيما بيننا على التحكيم في المحكمة القانونية، ذلك أنه بالنسبة لنا نحن الذين ننتمي إلى هذا الدير بحكم الوراثة نؤثر أن يكون الاشراف عليه من نصيبك وليس من نصيبه، وقال الملك لي: «هل يقولون الصدق عندما ذكروا أن الدير تحت وصايتي؟» فقلت: «من المؤكد لا يا صاحب الجلالة، إنه ملكي أنا».

ثم قال الملك للراعي: «قد يكون الدير هو ديرك بالوراثة، لكن هذا لا يعني أنك تمتلك الحق في المطالبة بوضعه تحت تصرفك وحدك، وفي الحقيقة تبين لي مما قلته ومما أخبرني به النائب أن قضية الوصاية هي مسألة بيني وبينه لوحدنا، وبناء عليه، إنه على الرغم من كل ما قلته، إنني لن أتمنع عن اتخاذ خطوات للوصول إلى الحقيقة بشأن هذه المسألة شخصياً، لأنني لو أرغمت اللورد جوانفيل على الالتجاء إلى القانون، سوف أكون مخطئاً بحقه، وهو واحد من أتباعي، حين أضع حقه تحت رحمة المحكمة العامة، في حين أنه يمنحني الآن— لأني سيده— فرصة كاملة للوصول إلى الحقيقة»، وبناء عليه أمر الملك شخصياً بالبحث في القضية، وما أن تبينت له الحقيقة حتى أعطاني وصاية كاملة على الدير، مع وثائق مختومة تؤكد حقي.

وعمل ملكنا القديس بشكل متواصل وفعال، حتى استطاع اقناع ملك انكلترا بالقدوم إلى فرنسا مع زوجته وأولاده، للتباحث حول السلام بين بلديهما، وكان أعضاء المجلس الاستشاري للملك مضادين بشدة لإقامة مثل هذا السلام، وقالوا له: «نحن مندهشون جداً أن نجدك يا صاحب الجلالة جاهزاً لإعطاء ملك انكلترا شطراً واسعاً من أراضيك التي ربحتها أنت وأجدادك منه، والتي خسرنا بسبب سوء

تصرفه، وإذا كنت تعتقد الآن أنه ليس لديك الحق بهذه الأرض، فإنك لا تكون قد قمت بكامل الارجاع القانوني، ما لم تعد إليه جميع ما استوليت عليه أنت وأجدادك، ومن جهة أخرى إذا كنت ترى أن لك الحق في هذه الأرض، يبدو لنا أنك مهما أعدت أصغيرا كان أم كبيراً هو خسارة لك شخصياً».

وردّ الملك القديس على هذا بقوله: «أنا مقتنع ياسادتي أن أجداد ملك انكلترا قد حرموا بشكل عادل من جميع البلاد التي هي بيدي بحق الاستيلاء، إنما بالنسبة للأرض التي أنا معطيها له، أنا لأعدها شيئاً أنا مرغم على تسليمه له أو لورثته، بل إن الذي أفعله ما هو إلا وسيلة لإقامة رابط للحب بين أولادي وأولاده، الذين هم أبناء خالة، فضلاً عن هذا الذي أعطيه إياه له غاية جيدة، لأنه لم يكن حتى الآن واحداً من أتباعي، وهو الآن سوف يقدم الولاء لي، بحكم أنني مولاه».

وما من انسان في العالم عمل باخلاص أكثر من ملكنا، لإقرار السلام بين رعاياه، خاصة بين النبلاء الكبار الذين كانوا أمراء المملكة وجيرانها، كما فعل — على سبيل المثال — في قضية كونت دي شالون — عم صاحب جوانفيل — وابنه كونت بيرغندي، اللذان كانا منشبان للحرب بينها، عندما عدنا من بلاد ماوراء البحر، ولكي يقيم السلم بينهما، بعث الملك بعضاً من أعضاء مجلس مستشاريه إلى بيرغندي على حسابه، وبفضل جهوده الحثيثة، أمكن إقامة السلام بين الأب والابن.

وبعد أمد قصير نشب قتال عنيف بين الملك ثيوت الثاني، صاحب شامبين، وبين كونت دي شالون وابنه كونت بيرغندي حول الخلاف بشأن من سيملك دير لوكسيل Luxeuil ، ولكي يزيل هذا الخلاف بعث جلالته جيرفيه دي اسكرين Esclaines Gervais de ، عندما كان رئيس المطابخ الملكية الذي تدخل في سبيل إقامة صلح بين الفرقاء.

وبعدما وضع الملك حداً لهذه الحروب، نشب خلاف آخر بين كونت ثيبوت دي بار، وبين زوج أخته كونت هنري صاحب لوكسمبورغ، ونتيجة لهذا قاتلا بعضهما بعضاً قرب برني Perny، حيث أخذ الكونت ثيبوت زوج أخته أسيراً، واستولى بعد ذلك على قلعة ليني Ligny، التابعة لكونت لوكسمبورغ عن طريق زوجته، ولكي ينهي الملك هذا النزاع ويضع حداً للحرب، بعث حاجبه بيير، الذي وثق به أكثر من أي إنسان آخر في العالم، وهكذا أمكنه إقامة السلام بين المتخاصمين.

وفي القضايا التي أسهم الملك فيها بفض الخلافات بين الناس خارج مملكته، كان بعض أعضاء مجلس مستشاريه يقولون كان الأفضل لو تركهم يتابعون الاقتتال، لأنه لو تركهم يفقدون أنفسهم، كانوا سيقاتلونه باستعداد أقل مما لو كان خلفهم الكثير من المال، وأجاب الملك منتقديه بشأن هذه المسألة قائلاً، بأنهم كانوا يتحدثون بلا حكمة، ثم قال: «لأنني لو تركت الأمراء الجيران يجربون فيما بينهم، ورأوا ذلك وأدركوه، من الممكن أن يتحدوا ويقول أحدهم للآخر: الملك يشجع هذا الصراع فيما بيننا صدوراً عن نية شريرة، وهكذا قد تدفعهم كراهيتهم لي للتكتل ومحاربتي، مما قد يسبب خسارة كبيرة لي، هذا دون القول أي شيء عن حقيقة أن ذلك يعني استجلابي لغضب مولانا الرب الذي قال: طوبى لصانعي السلام».

ونتيجة لجهود الملك المتواصلة لإقامة السلام، أحبه الشعب في بيرغندي واللورين، لأنه أقام الصلح بينهم، وأطاعه الناس هناك، حتى أنهم عندما كانوا يختلفون في بعض المناسبات، كانوا يأتون لفض مشاكلهم بعرض قضاياهم على محاكمه في الرايمز، وباريس، وأورلين.

وامتلك الملك حباً عميقاً جداً لربنا ولأمة الحنون، حتى أنه عاقب بشدة متناهيّة جميع الذين أدينوا بالحديث عنهما بقلة احترام، أو

لاستخدامهم لاسميهما في بعض الأيوان الشريرة، وهكذا رأيته يأمر في قيسارية بربط صائغ ذهب، إلى سلم مع أمعاء خنزير وأحشاء أخرى لفت حوله حتى بلغت إلى أنفه، وقد سمعت بعدما عدت من بلاد ما وراء البحر، أنه أمر بكي شفتي وأنف واحد من أهل باريس لاقترافه مثل هذا الذنب، لكن هذا لم أره بنفسي.

واعتماد الملك القديس أن يقول: «إنني على استعداد بالسماح عن طيب خاطر بأن أكوي بحديدة محمّاة، شرط أن يكون ذلك مقابل نفي جميع الأيوان الكاذبة من مملكتي»، ولقد أمضيت مايزيد على اثنتين وعشرين سنة في صحبته دون أن أسمعه قط يقسم بالرب أو بأم الرب، أو بقديسيه، وعندما كان يود التشديد على أي مقولة كان يقول: «بالفعل كانت كذلك» أو «بالفعل هي كذلك».

ولم أسمعه قط يذكر اسم الشيطان، ما لم يكن الاسم قد ظهر في كتاب ما، حيث توجب ذكره، مثل عندما تكون حياة القديسين هي الموضوع المطروق، وإنه لعيب عظيم بالنسبة لمملكة فرنسا، وللملك الذي يسمح الآن بذلك، فنادرًا ما يتمكن انسان في هذه الأيام أن يتكلم دون أن يقول: «فليأخذه الشيطان»، فضلاً عن هذا إنه لسوء استخدام يسبب الذنب أن ننسب إلى الشيطان رجلاً أو امرأة بعدما أعطيا إلى الرب منذ وقت تعميدهما، والمعتمد في قلعتي في جوانفيل أنه إذا ما قال أي واحد مثل هذه الأشياء كان يضرب فوق أذنيه، أو يصفع من أجل ذلك، واللغة السيئة غير موجودة إلى أبعد الحدود هنا.

وسألني الملك مرة عما إذا كنت قد غسلت أقدام الفقراء في يوم الخميس المقدس، فأجبتته بأنني لم أفعل شيئاً من هذا القبيل، لأنني أعتقد أن ذلك عملاً ممجوجاً، فأخبرني بأن عليّ عدم التمتع عن أداء مثل هذا العمل، مادام مولانا قد قام بمثله، وقال: «إنني أفترض أنك لن ترغب مطلقاً في حذو مثل ملك انكلترا، الذي غسل أقدام مجذومين، وقبلهم».

وكان الملك قبل أن يأوي إلى فراشه قد اعتاد على أن يبعث خلف أولاده، ويحدثهم عن أعمال الملوك الجيدين والأباطرة، ويبين لهم في الوقت نفسه أن عليهم اتخاذ مثل هؤلاء مثلاً يحتذى بالنسبة لهم، وكان يحدثهم أيضاً عن أعمال الأمراء الأشرار، الذين جلبوا الدمار إلى ممالكهم عن طريق حياتهم الجشعة، ولفسوقهم وشرورهم، وكان يقول لهم: «إنني ألفت انتباهكم إلى مثل هذه الأشياء، حتى تتجنبوها، ولا تجعلوا الرب يغضب عليكم».

وجعلهم يتعلمون ساعات صلوات سيدتنا، وجعلهم يكررون على مسامعه صلوات كل يوم، حتى يعودهم على سماع هذه الصلوات بشكل متواصل عندما يصبحون حكماً لبلدانهم.

وكان الملك كريماً جداً في تقديم الصدقات، حتى أنه كان حيثما ذهب في مملكته يقوم بتوزيع الأموال على الكنائس ذات الموارد القليلة، وعلى بيوت المجذومين، وعلى بيوت الاحسان، وعلى المشافي، وعلى الرجال والنساء من منبت أصيل الذين يعانون من الضائقة، وقدم الطعام كل يوم إلى عدد كبير من فقراء الناس، وذلك بالإضافة إلى الذين كانوا يأكلون في قاعته، وغالباً ما رأيتهم يقطع الخبز إلى هؤلاء بنفسه ويناوهم شراهم.

ولقد بني في عهده كثير من الديرة، من ذلك على سبيل المثال: دير رويومونت Royaumont ودير القديس أنطوني قرب باريس، ودير ليس Lys، ودير موبيسون Maubuisson، وكثير من البيوت الدينية الأخرى للاخوان المبشرين وللرهبان الفرنسيين، وقد بنى مشفى في بونتي Pontoise، ومشفى في فيرنون، وملجأ للعميان في باريس، وديراً للراهبات الفرنسيين في سينت-كلود، وهو الذي أسسته

أخته السيدة ايزابل بتأييد منه.

وعندما كان يقع بين عطاياه أية منحة عائدة إلى الكنيسة المقدسة، كان الملك يقدم دوماً على استشارة الناس الأفاضل، الذين يمكنه أن يعتمد على حسن أخلاقهم، وذلك قبل منح إدارة الأعطية، وبعد التشاور معهم كان يقدم الأعطية مخلصاً، وبضمير مستريح، دون مراعاة لغير رضا الرب، ولم يعط قط أي رجل دين مسؤولية إدارة منحه من المنح مالم يقيم أولاً بالتخلي عن جميع الوظائف التي بيده، وكان كلما ذهب للمرة الأولى لزيارة بلدة في مملكته، كان يمضي أولاً إلى الأخوان المبشرين أو إلى الفرنسيين الذين هم هناك ويسألهم الدعاء.

وبعد عودة الملك لويس إلى فرنسا من بلاد ماوراء البحر كرس نفسه تكريساً كاملاً لعبادة مخلصنا، وكان عادلاً جداً في تعامله مع رعيتيه، ولهذا السبب قرر أنه سيكون عملاً مفيداً جداً، ونيلاً، إذا ما تولى إصلاح مملكته الفرنسية، وكانت أول خطوة اتخذها في هذا الاتجاه هي إصدار مرسوم عام لجميع رعاياه في جميع أرجاء المملكة، كانت صورته كما يلي:

«نحن لويس، بنعمة الرب ملك فرنسا، نأمر نوابنا، وعمالنا، ورؤساء الكنيسة والمديرين لدينا، وجميع الآخرين، في كل الظروف، وفي كل المناصب التي يشغلونها، أن يقسموا، على إقامة العدل للجميع، ماداموا في مناصبهم، وذلك دون مراعاة للأشخاص، أو تفریق بين فقير وغني، وكذلك إلى الناس الذين هم من بلاد أخرى، بحيث يكونوا مثلهم مثل أبناء البلاد، وأن يراعوا الممارسات والعادات الطيبة والمعترف بها.

وإذا حدث أن قام النواب، أو العمال، أو غيرهم من الرسميين مثل السير جنديّة أو نظار الغابات، بعمل أي شيء معاكس لأيمانهم، وقد أدينوا بفعل ذلك، سوف نعاقبهم بمصادرة أملاكهم أو باعتقالهم

شخصياً، وإلينا سيوكل معاقبة النواب، ومعاقبة الآخرين من قبل النواب.

زيادة على هذا، سوف يؤدي اليمين جميع رؤساء الكنائس، والنواب والسيرجنديّة أنهم سيكونون مخلصين في حماية مواردنا والمحافظة على حقوقنا، ولن يسببوا انتزاع حقوقنا منا، أو إضاعتها، أو زوالها، وعليهم أن يقسموا في الوقت ذاته على أن لا يأخذوا أو يتسلموا، بأنفسهم أو بوساطة آخرين ذهباً أو فضة أو أية منافع غير مباشرة، أو أية أشياء مهما كان نوعها، باستثناء الفواكه فقط، أو الخبز أو الخمر، أو الهدايا الأخرى، التي لا تتجاوز قيمتها عشرة سوسات Sous، ولا يجوز تجاوز هذا المبلغ مطلقاً.

وعليهم أيضاً أن يقسموا أن لا يأخذوا، أو يكونوا السبب في أخذ أية هدية، مهما كان نوعها، من خلال وساطة زوجاتهم، أو أولادهم، أو أخوانهم. أو أخواتهم، أو أي شخص مرتبط بهم، وفور معرفتهم بتسلم مثل هذا النوع من الهدايا، يتوجب عليهم إعادتها في أول لحظة مناسبة، وبالإضافة إلى هذا، عليهم أن يقسموا على عدم استلام أية هدية، مهما كان نوعها، من أي إنسان، عائد إلى وكالتهم، ولا من أي واحد آخر له قضية أو دعوى معروضة أمامهم.

وزيادة على ما تقدم عليهم أن يقسموا على عدم إرسال أية هدية إلى أي واحد من أعضاء مجلسنا الاستشاري، أو إلى زوجاتهم أو أولادهم، أو إلى أي إنسان يمت إليهم بصلة، ولا إلى أي واحد جرى تعيينه لتسليم حساباتهم لصالحنا، ولا إلى أي شخص قد نرسله إلى نياباتهم أو مناطقهم حيث يشغلون وظائفهم، وذلك من أجل البحث حول الكيفية التي يؤدون بها واجباتهم، ومع هذا عليهم أن يخلفوا على عدم أخذ أي ربح على أي بيع قد يتم، أو من أية إيجارات عائدة لنا، أو من نياباتهم، أو من أماكن ضرب نقودنا، أو أي شيء آخر عائد إلينا.

فضلاً عن هذا عليهم أن يقسموا ويتعهدوا أنهم إذا ما عرفوا أن أي موظف أو سيرجندي، أو مدير ممن يعمل تحت إمرتهم قد أهمل واجبه، أو تولى السرقة أو الاغتصاب، أو اقترف أية ذنوب، يستحق من أجلها الطرد من خدمتنا، عليهم عدم الإبقاء عليه والاحتفاظ به بالوظيفة مقابل أية هدية، أو وعد، أو أية قرابة أو مودة، أو لأي سبب آخر مهما كان نوعه، بل عليهم مخلصين القيام بطرده والحكم عليه.

وزيادة على هذا يتوجب على المديرين والعمال، ورؤساء القرى وجميع الموظفين الآخرين لدينا من المشاة والخيالة، أن يقسموا أنهم سوف لن يقدموا أية هدية إلى رؤسائهم، ولا إلى زوجاتهم أو أولادهم، ولا إلى أي واحد من أتباعهم.

ولما كنا نرغب في تأكيد هذه الأيمان دون أي ريب، نأمر بأدائها كاملة أمام جميع الناس، من قبل رجال الدين والمدنيين، والفرسان، والسيرجنديّة، دون اعتبار لقيام بعضهم بالإقسام أمامنا من قبل وذلك بهدف أن يتمنع الذين أقسموا مثل هذه الأيمان عن اقتراف ذنب الحنث باليمين، ليس خوفاً من الرب ومنا فقط، بل خشية أن يوصموا بالعار أمام الناس جميعاً.

ونحن نرسم ونأمر بأنه يتوجب على جميع المديرين لدينا وعلى جميع نوابنا، الامتناع عن قول أي شيء يمكن أن يفسر على أنه معاندة للرب أو لسيدتنا، أو للقديسين، وأن يكفوا كذلك عن اللعب بأي نوع من أنواع الميسر، وعن غشيان الحانات، ونحن نرسم أيضاً بالتوقف عن صنع النرد في جميع أرجاء مملكتنا، وبطرد كل النساء اللاتي يمارسن حياة الدعارة من كل بيت، وزيادة على هذا نقضي أن كل إنسان يؤجر بيتاً لنساء من هذا القبيل أن يدفع إيجار بيت لمدة سنة تعويضاً إلى النائب أو إلى المدير.

وفضلاً عن هذا نمنع نوابنا، ما داموا في خدمتنا، من شراء، أو التسبب بشراء، بوسائل مخادعة، لأي من الممتلكات أو الأراضي، يمكن أن تكون في نيابتهم أو في غيرها، من دون إذن أو تصريح منا، وإذا ما كان مثل هذا الشراء قد تم، نحكم ببقاء ما شري في أيدينا.

ونمنع أيضاً نوابنا، ماداموا في خدمتنا، من الزواج هم أو أولادهم أو بناتهم أو أي شخص ينتمي إليهم، إلى أي إنسان موجود في نيابتهم، من دون موافقتنا الشخصية و بالإضافة إلى هذا، نحن نمنعهم من وضع أي إنسان من هؤلاء في البيوت الدينية، الموجودة في نيابتهم، أو تعيينهم للإشراف على أي منحة عائدة إلى الكنيسة المقدسة، أو إعطائهم أي ممتلكات أخرى، ونمنع — زيادة على هذا — نوابنا من الحصول على أية ميرة من أي من البيوت الدينية، أو الحصول على مسكن هناك، أو بجوارها، على حساب الطائفة صاحبة البيت الديني، وعلى كل حال نحن لا نرغب في أن يشمل هذا الحظر المتعلق بالزواج أو الحصول على الممتلكات، حسبما تقدم الذكر: المديرين، ورؤساء القرى، أو الآخرين الذين يشغلون مناصب صغيرة.

ونأمر أن لا يقوم أي نائب، أو مدير، أو أي موظف من موظفي التاج، باستخدام عدد كبير من السيرجندية، أو الشمامسة، خشية أن يشكل ذلك حملاً ثقيلاً جداً على شعبنا، ولسوف يكون تعيين الشمامسة بالموافقة، وإلا فإن تعيينهم سيكون غير شرعي، وعندما يُرسل السيرجندية في مهمة ما خارج منطقتهم، أو خارج ممالكنا، نحكم بعدم اعتمادهم ما لم يكونوا مزودين برسائل من رؤسائهم.

ونأمر في أن لا يقوم أي نائب أو مدير في خدمتنا بممارسة أعمال العدالة بطريقة يخرق بها القانون الذي يشمل الناس، إلا إذا كان ذلك ضرورياً وعادلاً، كما لا يجوز وضع واحد من رعايانا في السجن إلا إذا كان مداناً بدين مستحق لنا نحن أنفسنا.

ونأمر أن لا يقوم أي نائب من نوابنا بفرض غرامة لدين مستحق لدينا على أي واحد من رعايانا، أو فرض غرامة مقابل أية مخالفة، إلا إذا تقرر ذلك في محكمة عامة كاملة، حيث يمكن تحديد مبلغ الغرامة وضبطه وتقديره بناء على نصيحة أناس مقتدرين وذوي كفاءة، حتى ولو كانت الغرامة قد دفعت، وإذا حدث أن المتهم لن ينتظر صدور الحكم من محكمتنا عليه، بل عرض مبلغاً من المال مقابل الغرامة، حسب ما يدفع بالعادة في حالات مثل هذه المخالفة، نحكم بأن تقبل المحكمة مثل هذا المبلغ إذا كان معقولاً وموائماً، وإذا كان الأمر غير ذلك، نقضي بتحديد المبلغ كما قيل أعلاه، حتى ولو سلم المعتدي نفسه إلى المحكمة، وفضلاً عن هذا نحظر على جميع النواب، ورؤساء القرى، أو المديرين، القيام بإرغام أي واحد من رعايانا، سواء بالتهديد، أو بالإرهاب، أو بأية وسيلة من وسائل التلاعب لكي يدفع غرامة بالسر، وعليهم عدم توجيه التهمة إلى أي إنسان من دون سبب معقول.

وزيادة على ما تقدم نأمر الذين يشغلون مناصب إدارة المقاطعات أو المديرين، أو أي وظيفة من وظائف التاج، بعدم بيع مناصبهم إلى آخرين من دون موافقتنا، وإذا ما ابتاع عدد من الأفراد متحدين المناصب المذكورة، نحكم بقيام واحد من الشراة بممارسة مهام وواجبات المنصب لصالح البقية، ووحده يتمتع بامتيازات المنصب فيما يتعلق بالرحلات، والضرائب والتفقات العامة، كما هي العادة بالنسبة لمثل ذلك المنصب، ونحرم على موظفي التاج بيع مناصبهم إلى أخوانهم، أو أبناء أخوتهم، أو أبناء عمومتهم، بعدما اشترؤهم منا، أو المطالبة بأي مال قد يكون حقاً لهم أنفسهم، باستثناء الديون العائدة لهم بحكم وظائفهم الرسمية، وفيما يتعلق بديونهم الشخصية، فإنهم يستردوننا بوساطة سلطات النائب، كما لو كانوا لا يعملون في خدمتنا.

ونحظر على نوابنا القيام بمحاكمة أي مدعي من رعايانا قدم دعواه

أمامهم، عن طريق نقل مكان المحاكمة من مكان إلى مكان، بل يتوجب عليهم الاستماع إلى الدعوى المقدمة لهم حيث اعتادوا على سماع الدعوى، وبذلك لن يرغبوا رعايانا على التخلي عن حقوقهم المشروعة خوفاً من المشاق والنفقات.

زيادة على هذا نأمر نوابنا ومديرينا بعدم حرمان أي إنسان مما يمتلكه من دون فحص تام، أو بناء على أمر خاص منا، وكذلك نحظر عليهم فرض أي مكوس جديدة، أو ضرائب، أو جمارك، على شعبنا، وعدم استدعاء أي إنسان للمشاركة في حملة عسكرية، من أجل ابتزاز المال منه، ولهذا نأمر بعدم استدعاء أي شخص مكلف أماننا، إلى مثل هذه الخدمة، أو الالتحاق بالجيش دونما سبب كافي، وأن الذين يمكن أن يرغبوا بالانخراط في الجيش بناء على إرادتهم، لا يجوز لأحد إرغامهم على شراء الإعفاء من مثل هذه الخدمة بدفع المال.

فضلاً عن هذا نحظر على نوابنا ومديرينا القيام بمنع إخراج أي قمح، أو خمر، أو أية بضائع للبيع، والحيلولة دون تصديرها إلى خارج مملكتنا، بدون سبب معلل، وعندما تستدعي الظروف مثل هذا الحظر، فإن ذلك يصدر بمثابة أمر عام إلى الناس جميعاً، وذلك بناء على نصيحة أشخاص أكفاء، من أجل إزالة كل الشبهات بالغش أو التعامل المزدوج.

ونقضي لسبب مماثل، أنه لدى خلو منصب من المناصب، يتوجب على النواب جميعاً، وعلى رؤساء المقاطعات، وعلى رؤساء القرى، وعلى المديرين البقاء في المنصب الذي سيشغره، سواء شخصياً أو بوساطة وكيل لمدة أربعين يوماً في المنطقة التي مارسوا فيها أعمالهم، بغية الإجابة على أية استفسار يقوم به الموظف الجديد، فيما يتعلق بأي خطأ ارتكب، أو بشكاية رفعت ضد أحدهم.

وحقق الملك بوساطة هذه الأوامر كثيراً من تحسين مملكته.

وجرت العادة في ذلك الوقت على بيع ولاية باريس إلى واحد من برجاسية المدينة، أو إلى أي إنسان آخر يتمكن من شرائها، والذي حدث أن الذين تولوا شراء هذا المنصب قاموا بتغطية جميع المخالفات الذي اقترفت من قبل أبنائهم أو أبناء أخوتهم، وهكذا اعتاد هؤلاء الشباب المفسدون على الاعتماد على الذين شغلوا وظيفة الولاية، ونتيجة لهذا سحق الناس الذين كانوا من الطبقات الدنيا سحقاً شديداً، ولم يعد بإمكانهم الحصول على العدالة ضد الأغنياء، بسبب الهدايا العظيمة والأعطيات التي قدمها هؤلاء إلى الولاة.

وكان يحدث في ذلك الوقت أنه إذا ما تكلم أي إنسان الحقيقة أمام الوالي، وأصر على التمسك بيمينه برفضه التراجع فيما يتعلق بأي دين أو قضية توجب عليه تقديم الشهادة فيها، اعتاد الوالي على معاقبته بالحكم عليه بأداء غرامة، وزيادة على هذا، وبسبب الظلم العظيم الذي مارسه الولاة، أو بسبب السرقات التي اقترفت أثناء ولايتهم، لم يعد فقراء الناس يتجرأون على البقاء في ممتلكات الملك، بل ذهبوا إلى أجزاء أخرى أديرت من قبل ولاة آخرين، وحُكمت من قبل حكام آخرين، وفي الحقيقة باتت ولايات الملك مهجورة إلى حد أنه عندما كان أحد الولاة يعقد بلاطه لم يحضره أكثر من عشرة إلى اثني عشر إنساناً.

ومع هذا كله كان هناك عدد كبير جداً من المجرمين واللصوص في باريس والمنطقة المجاورة لها إلى حد أن البلاد كلها كانت مليئة بهم، أما الملك الذي جعل مسؤوليته الرئيسية التعرف على كيفية كان العامة من الناس يحكمون، مع كيفية حماية حقوقهم ومصالحهم، فما لبث أن بات عارفاً بالحقيقة، ونتيجة لذلك حظر بيع منصب الولاية في باريس، ووضع الترتيبات لدفع عطاء جيد وسخي للذين سوف يتولون هذا المنصب في المستقبل، وألغى أيضاً جميع الضرائب والمكوس الذي سببت

فرض مضايقات لا ضرورة لها على الناس، وطلب البحث في جميع أرجاء مملكته عن رجال يتولون الحكم وينفذون العدالة بشكل جيد ودقيق، ولا يميزون الغني ولا يقدرونه فوق الفقير.

وكان واحداً من الرجال الذين ذكروا له اسمه ايتين بويلو Etienne Boileau حيث تسلم منصب الولاية، ومارس عمله بشكل جيد، حتى أن ما من مفسد، أو لص أو قاتل تجراً على البقاء في باريس، لأن جميع الذين اقترفوا الموبقات شنقوا أو أزيلوا من الوجود، ولم ينقذهم لا النسب، ولا النبالة، ولا الذهب ولا الفضة، وهكذا باتت الأوضاع في ولايات الملك تتحسن، وشرع الناس بالعودة للعيش هناك بسبب العدل الذي ساد، وازداد تعداد السكان كثيراً، وصارت الأشياء والأحوال أفضل بكثير مما مضى، حتى أن البضائع او الممتلكات وكل شيء آخر يبيع بضعف الثمن، ومقارنة بها كان الملك يتسلمه من قبل.

وأصدر الملك مرسوماً آخر، أفاد كثيراً، في تحسين الأوضاع في مملكة فرنسا، وذلك بشهادة عدد كبير من الأشخاص الحكماء والمحترمين، وجاء نص هذا المرسوم كما يلي:

«إنه بالنسبة لجميع المسائل التي أمرنا بها لصالح منافع رعايانا ومملكتنا، نحفظ لأنفسنا بحق التفسير، والتقويم، والضبط أو التأجيل، حسبنا نقرر».

وامتلك الملك لويس من أيام طفولته مشاعر الرحمة نحو الفقراء والمنكوبين، ولقد اعتاد حينما ذهب على استضافة مائة وعشرين شخصاً فقيراً كل يوم في بيته، وإطعامهم الخبز والخمرة واللحم أو السمك، وفي أيام الصوم الكبير، وقبيل الميلاد كان عدد الفقراء يزداد، وغالباً ما حدث أن قام الملك بخدمتهم شخصياً، حيث كان يضع أطعمتهم أمامهم، ويقطع لهم اللحم، ويعطيهم المال بيديه عندما كانوا يغادرون.

وفي أمسيات الأعياد الهامة والكبيرة، كان الملك يتولى خدمة الفقراء بجميع هذه الأشياء التي ذكرتها من قبل، ويفعل ذلك قبل أن يتناول شخصياً أية طعام أو يشرب أية شراب، وبالإضافة إلى هذا كان لديه عدداً من الشيوخ والرجال المعوقين، يدعوهم لتناول طعام الغداء أو العشاء كل يوم إلى جانب منضدته الخاصة، وكان يأمرهم بتقديم الطعام نفسه الذي كان يقدم إليه، وبعد تناولهم للطعام كان يعطي كل واحد منهم مبلغاً من المال ليأخذه معه.

وبالإضافة إلى هذا، اعتاد الملك أن يعطي كل يوم صدقات سخية إلى فقراء الرهبان والراهبات، وإلى المشافي ذوات الدخل القليل، وإلى الأشخاص الفقراء من المرضى، وإلى الطوائف الدينية التي لديها القليل من المال، وكان مثل هذا كريماً في عطاياه إلى الرجال والنساء الفقراء من ذوي الأصل الرفيع، وإلى بيوت النساء الساقطات، وإلى فقراء الأرمال، وإلى النساء العاملات، وإلى رجال الحرف من الفقراء، الذين ما عاد بإمكانهم ممارسة عملهم بسبب تقدم السن أو نتيجة للمرض، وكان الذين ينتفعون منه في الحقيقة كثيرة كثيرة حتى أنه من الصعب تعدادهم، وعلى هذا يمكننا القول بأن الملك لويس كان رجلاً أعظم سعادة من الامبراطور تيتوس، الذي تحدثنا عنه الكتابات القديمة بأنه كان يشعر بالحزن والأسى في أي يوم لم يكن فيه قادراً على تقديم بعض المنافع.

ومن اللحظة التي تولى فيها شؤون المملكة، وأدرك فيها ما يمتلكه من قدرات، بدأ الملك لويس في بناء الكنائس والكثير من البيوت الدينية، التي كان منها دير رويومونت Royaumont ، الذي لا مثيل له بالجمال والعظمة، وبنى مشافي في عدة أماكن، من ذلك على سبيل المثال في باريس، وبونتواز Pontois ، وشامبين، وفيرنون، وقد منح الجميع منحاً ثرية، وأسس دير القديس ماثيو في روان Rouen ، لإقامة

الراهبات من طائفة الأخوان المبشرين، وكذلك دير لونغشامب Long-champ ، من أجل الراهبات من طائفة المينورست Minorsits ، وعين لكل طائفة موارد فائضة من أجل نفقات عيشها.

وسمح الملك لأمه بإقامة دير موبوسون Maubuisson قرب بونتواز، وقد منحها موارد كبيرة جداً، وبني مأوى للعميان في أطراف باريس، وبيتاً لفقراء سكان المدينة من العجزة، وألحق به بيعة يمكنهم فيها حضور القداسات، وبني الملك الجيد أيضاً ديراً لرهبان الكارثوشيان Carthusians في فوفيرت Vauvert خارج باريس، ومنح إلى عبيد ربنا هؤلاء دخلاً كافياً للانفاق عليه.

وبنى بعد ذلك بوقت قصير مؤسسة أخرى خارج باريس عرفت ببيت بنات الرب، ووضع في هذه المؤسسة عدداً كبيراً جداً من النساء، اللائي أرغمهن الفقر على ممارسة العهر، وأعطاهن أربعمئة ليرة ذهبية سنوياً من أجل الانفاق على أنفسهن، وأقام في عدد كبير من الأماكن في مملكته بيوتاً للتائبات، وخصص لهذه البيوت دخلاً سنوياً يمكنهم من العيش، واشترط للسكن، أن تكون النساء اللائي يرغبن بالإقامة ممن أردن العيش بطهارة.

وحدث في بعض الأحيان أن بعضاً ممن كانوا من خواصه قد اعتقدوا أن من الخطأ إقدام الملك على الانفاق بهذا الشكل، وقد بدا ذلك لهم إسرافاً في الاحسان، وكان في مثل هذه المناسبات يرد على متقديه بقوله: «إني أؤثر إنفاق المبالغ الزائدة صدقات من أجل محبة الرب، وأفضل ذلك على الصرف في سبيل الأبهة والزينة الفارغتين لهذا العالم».

وعلى الرغم — مع ذلك — من الانفاق الزائد للملك في سبيل الصدقات، إنه لم يتمنع أبداً عن صرف مبالغ ضخمة من المال كل يوم من أجل الانفاق على مؤسساته الذاتية، فقد كان كريم اليدين وسمحاً

في تعامله مع الفرسان والبارونات الذين كانوا يحضرون اجتماعاته ومؤتمراته، وكذلك عامل الناس من حاشيته وأهل بيته بتقدير عظيم، حيث وفر لهم جميع الاحتياجات، ولم يقتصد في تأمين المؤن لهم وكذلك في الحفاظ على بلاطه على مستوى أعلى كراماً بما كان البلاط عليه من قبل في أيام أجداده.

وأحب الملك لويس جميع الناس الذين كرسوا حياتهم لخدمة الرب، بارتدائهم ثياباً دينية، وما من واحد من هؤلاء جاء إليه وذهب من دون أن يعطيه الذي احتاجه من أجل العيش، فقد اشترى للأخوان الكرمليين أرضاً على نهر السين، قرب شارنتون Charenton ، حيث بنى لهم هناك ديراً، ثم زودوه على حسابه الخاص بالملابس والأواني، والأشياء الأخرى الضرورية من أجل عبادة مخلصنا، وبعد هذا تفحص حاجات أتباع القديس أوغسطين، ولم يكتف بأن اشترى لهم ضيعة كانت ملكاً لواحد من أهل باريس وذلك مع جميع مرافقها وملاحقها، بل بنى كنيسة خارج باب مونمارتير Mont Martre .

أما بالنسبة لرهبان طريقة البينتنس Penitence (الصوفية)، الذين يعرفون أيضاً باسم الـ «Sack s»، فقد زودهم عن طريق المنحة بموقع على نهر السين، باتجاه سينت جرمن — دي — بري Germain - des - Pres ، حيث أقاموا هناك، لكنهم لم يقيموا لمدة طويلة، لأن طائفتهم قمعت فيها بعد، وبعد استقرار الـ «Sacks»، توصل رهبان طريقة أخرى عرفت باسم طريقة رهبان «الأردية البيضاء»، ورجوه تقديم المساعدة لهم حتى يتمكنوا من البقاء في باريس، وقد اشترى لهم بيتاً، وبعض الأبنية القديمة القائمة من حوله، حتى يمكنهم الاستقرار قرب الباب القديم للهيكل في باري، وذلك بجوار شارع التيسيراندير Tisserandrie (الغزالين)، وقد قمع رهبان الأردية البيضاء هؤلاء من قبل مجمع ليون، الذي عقده البابا

غريغوري العاشر.

وجاء إليه بعد هؤلاء طائفة رهبان أخرى، أطلقوا على أنفسهم اسم: «رهبان الصليب المقدس»، وكانوا يرتدون صلباناً فوق صدورهم، وقد التمس هؤلاء من الملك مساعدتهم، فاستجاب عن طيب خاطر، وأعطاهم بيتاً في الشارع الذي كان يعرف من قبل باسم: «Carrefour du Temple»، لكنه يعرف الآن باسم شارع الصليب المقدس. وهكذا أحاط الملك لويس الجيد مدينة باريس بأناس كرسوا حياتهم لخدمة الدين.

الفصل التاسع عشر الحملة الصليبية القاتلة ١٢٦٧ - ١٢٧٠

وحدث في أحد أيام الصوم الكبير (عام ١٢٦٧)، وبعد مضي الأحداث التي أتيت على ذكرها، أن استدعى الملك لويس جميع باروناته للاجتماع به في باريس، وقد اعتذرت شخصياً عن الذهاب بسبب حمى رباعية كنت أعاني منها منذ بعض الوقت، وترجوت جلالته أن يعفيني من هذه الرحلة، غير أنه على كل حال أرسل لي رسالة أصر فيها على حضوري، لأنه كان يوجد في باريس أطباء جيدين يعرفون جيداً كيف يعالجون مثل هذه العلة.

وهكذا ذهبت إلى باريس، لكنني عندما وصلت إلى هناك عشية عيد سيدتنا في آذار، لم أجد أحداً، ولا الملكة، ولا أي واحد آخر، كان بإمكانه إخباري عن السبب الذي استدعاني الملك من أجله، وحدث بإرادة من الرب، أن نمت أثناء الفجر، وخيل وأنا نائم أنني رأيت الملك وهو راكع على ركبتيه أمام المذبح، وخيل لي أيضاً أنه كان هناك عدداً من الأساقفة وهم في حللهم التي يرتدونها للقداس، وقد كانوا يتولون إلباسه حلة كنائسية حمراء من قماش الرايمز الصوفي الخشن.

وبعدما رأيت هذا الحلم استدعيت قسيبي وليم، الذي كان حكيماً جداً، وأخبرته بما حلمت فقال لي: «سوف ترى يامولاي الملك غدا وهو يتناول الصليب»، فسألته عما دفعه لاعتقاد ذلك، فقال لي: بسبب الحلم الذي رأيته، لأن الحلة الكنائسية الحمراء تشير إلى الصليب، الذي هو أحمر اللون بسبب الدم الذي سال من جنب ربنا، ومن قدميه، ومن يديه، وأضاف يقول: «ولأن الحلة من صوف الرايمز الخشن، فهذا يعني

أن الحملة الصليبية سوف تكون ذات منافع قليلة، كما سوف ترى إذا منحك الرب الحياة حتى ذلك الحين».

وبعد سماعي للقداس في كنيسة المجدلية في باريس، توجهت إلى بيعة الملك، وقد وجدته هناك، وقد صعد إلى السدة حيث جرى حفظ الآثار المقدسة، وقد أمرنا بانزال قطعة الصليب الحقيقي إليه، وبينما كان نازلاً ثانية، شرع فارسان كانا أعضاء في مجلسه الاستشاري بالحديث إلى بعضهما بعضاً، وقال واحد منهما للآخر: «لاتصدقني ثانية إذا لم يقيم الملك بحمل الصليب هنا في هذه الكنيسة» فرد الآخر عليه قائلاً: « ذلك سوف يكون أعظم الأيام حزناً بين ما شهدته فرنسا، لأننا إذا لم نتناول الصليب ونأخذه نحن أنفسنا سوف نفقد حظوة الملك ورضاه، وإذا ما أخذناه سوف نفقد عطف الرب ورضاه، لأننا وقتها سوف نأخذه لا من أجل الرب، بل خوفاً من غضب الملك وعدم رضاه».

وكان الذي حدث هو قيام الملك في اليوم التالي لحمل الصليب، ومعه أولاده الثلاثة، وكانت محصلة الحملة الصليبية قليلة المنافع، كما تنبأ لي قسيبي.

وضغط مللك فرنسا عليّ مع ملك نافار، بكل شدة وعاطفة لحمل الصليب، ورددت على هذا بأنني عندما كنت في بلاد ماوراء البحر في خدمة الرب، والملك، ومنذ أن عدت إلى الوطن، تولى سيرجندية الملك وملك نافار تدمير شعبي وافقاره، حتى أنه لم يكن هناك وقت كانوا فيه— أو يمكن أن يكونوا فيه— في وضع أسوأ، وأخبرتني أنه إذا توجب علي القيام بفعل مايرضي الرب، فذلك ينبغي أن يكون بالبقاء هنا لمساعدة شعبي والدفاع عنه في مقاطعاتي، لأنني وأنا أرى بوضوح تام المدى الذي سوف يتضرر شعبي منه، إذا ما وضعت حياتي عرضة للخطر بالمغامرة بالذهاب في هذا الحج من أجل الصليب، وقتها سوف أغضب ربنا الذي قدم حياته فداءً لإنقاذ شعبه.

وعددت جميع الذين أشاروا على الملك بالذهاب في هذه الحملة، قد اقترفوا ذنباً عظيماً، لأن أحوال البلاد كانت آنذاك في وضع آمن ومستقر في جميع أرجاء المملكة، وكذلك كانت العلاقات بين فرنسا وبين جيرانها، في حين أنه منذ رحيل الملك، لم يحدث لأحوال المملكة سوى المضي من سيء إلى أسوأ.

وبالإضافة إلى هذا كان الذنب الذي اقترفه الذين نصحووا الملك بالذهاب ذنباً عظيماً من جانبهم، بعد رؤيتهم أنه كان ضعيفاً جداً من الناحية الجسدية، إلى حد أنه لم يكن بإمكانه تحمل وضعه في عربة مجرورة، أو أمتطاء فرس، وفي الحقيقة كان ضعيفاً إلى حد أنه تركني أحمله بين ذراعي من بيت كونت دي أوكسير Auxerre ، إلى حيث ذهبت إلى وداعه، إلى دير الفرنسيكان، وصحيح أنه كان ضعيفاً، لكنه لو بقي في فرنسا لكان من الممكن له العيش بعض الوقت أطول، ولفعل الكثير من الأعمال الجيدة، ولنفيذ العديد من المشاريع الممتازة.

ولن أحاول وصف رحلة الملك إلى تونس، ولا اخباركم أي شيء حدث هناك، لأنني — حمداً للرب — لم أشارك فيها، وليس لدي رغبة في أن أضع في كتابي شيئاً لست متأكداً منه تماماً، وهكذا سوف أتحدث فقط عن ملكنا القديس، وأخبركم كيف أنه بعدما نزل عند تونس، أمام قلعة قرطاج سقط ضحية حمى تيفية، وتمدد ابنه الأكبر فيليب بسبب حمى رباعية، كما أنه اشتكى مما اشتكى منه والده، ولازم الملك فراشه، وشعر أنه لا بد سيغادر هذا العالم إلى العالم الآخر بعد وقت قصير.

وبعث واستدعى ابنه الأمير فيليب وأمره — كما لو أنه كان يدلي إليه بوصيته — بمراعاة جميع التعليقات التي ستركها له، ويمكنك أن تجد هذه التعليقات وقد كتبت بالفرنسية، ويقال إنها كتبت بيد القديس نفسه وجاء فيها:

«ولدي العزيز، إن أول شيء أود أن ألقنك إياه هو أن تجعل قلبك محباً للرب، لأنه بدون ذلك لا يمكن لأحد نيل النجاة، وجنب نفسك اقتراف أي شيء لا يكون مرضياً للرب، أي الامتناع عن اقتراف أي ذنب عظيم، وخير لك أن تكون مستعداً لمكافحة كل صنف من صنوف العذاب، على أن تقترف جناية عظيمة.

وإذا ما بعث الرب إليك مصيبة ما، تقبلها بصبر، وقدم الشكر من أجلها إلى مخلصنا، واعدد نفسك مستحقاً لها، وكن آملاً أنه سيحولها لصالحك، وعلى العكس إذا ما بعث الرب إليك سعادة، اشكره عندها بتواضع، حتى لا يفسدك الغرور، أو أي سبب آخر، في الوقت الذي ينبغي فيه لمثل هذه المباركة أن تجعلك أفضل، لأنه يتوجب علينا أن لانستخدم عطايا الرب للقتال ضده.

امض دوماً لتأدية الاعتراف، واختر لتلقى اعترافك رجلاً مستقيماً وعاقلاً، يعرف كيف يعلمك ما ينبغي وما لا ينبغي لك أن تفعل، وتصرف دوماً بذاتك بطريقة تجعل فيها المعترف إليه مع أصدقائك غير هيايين لقدك عندما تقترف خطيئة ما، وأصغ إلى قداسات الكنيسة المقدسة باحترام وتقوى، وبدون تمتمة، ووجه دعواتك إلى الرب من قلبك مثلما توجهها من لسانك، وخاصة أثناء القداس في لحظة التكريس، واجعل قلبك عطوفاً، ومليئاً بالشفقة نحو الفقراء، والتعساء، والمكنوبين، وواسهم وساعدهم بقدر ما تمتلك من قوة.

وحافظ على التقاليد الجيدة لمملكتك، وأزل العادات السيئة، ولا تكن جسعاً في مطالبك من شعبك، ولا تفرض عليه ضرائب ثقيلة، إلا في حالات الطوارئ.

وإذا شعرت بعبء ثقيل على قلبك، تحدث عنه إلى الذي تعترف إليه أو إلى رجل عاقل ومستقيم، غير مهذار بلسانه، وبهذه الطريقة سوف

تكون متاعبك أسهل على الحمل.

احرص على أن يكون من حولك— سواء من بين رجال الدين أو العلمانيين— من هو عاقل ومستقيم، ومخلص، وبريء من الجشع، وأكثر من محادثتهم، وابتعد عن، وتجنب معايشة الأشرار، واستمع برغبة إلى كلمة الرب، واحفظها في قلبك، وكن متشوقاً للصلاة وللعبادة، وأحب كل ما هو جيد ونافع، واکره ما هو شر، أينما وجدته.

ولا تدع انساناً يتجرأ على التفوه بحضرتك بأي شيء يمكن أن يثير، أو يدفع الناس نحو الإثم، ولا تدع أحداً يقترب ما هو ضار، مثل أن يغتاب واحد الآخر حتى يقلل من شأنه، ولا تسمح أن يقال في حضرتك أية كلمة فيها امتهان للرب ولقدسيه، وقدم الشكر للرب بشكل دائم من أجل جميع الأشياء الجيدة التي أعطاها لك، لكي تكون جديراً في تسلم المزيد من المنافع.

ولكي تتعامل بعدل واستقامة مع رعاياك، كن مستقيماً وثابتاً، ولا تنحرف لاذات اليمين ولاذات الشمال، بل اتبع دوما ما هو صحيح، واحرص على مصلحة الفقير حتى تتضح الحقيقة، وإذا ما رفع أحد دعوى ضدك، قم باستقصاء كامل حتى تعرف الحقيقة، فوقيتها يمكن لمستشاريك— وقد صارت الحقائق أمامهم— اصدار الحكم بثقة أكبر سواء أكان ذلك لك أم عليك.

وإذا حدث من خلال عملك، أو عمل أسلافك أن تملك أي شيء ينبغي أن يعود إلى انسان آخر، وتبرهن على حقه بدون أدنى شك، أعد له بدون تأخير، ومن جهة أخرى إذا وجد بعض الشك حول المسألة، اطلب البحث فيها، فوراً، وبكل دقة، وذلك من قبل رجال حكماء وذوي معرفة.

وينبغي عليك الانتباه إلى أن رعاياك يعيشون بسلام وباستقامة في

ظل حكمك، وحافظ فوق كل شيء على مدنك الجيدة، وعلى طوائف مملكتك، واحرص على أن يكونوا في الحالة نفسها، مع الامتيازات ذاتها، التي تمتعوا بها في ظل أسلافك، وإذا كان هناك أي شيء يحتاج إلى الإصلاح، افعل ما هو ضروري لجعله مستقيماً، وأبقيهم دوماً في إطار رعايتك وحبك، لأنه بسبب ثراء وقوة مدنك العظيمة، لن يتجرأ ليس فقط رعاياك، وخاصة لورداتك الكبار وباروناتك، بل أيضاً شعب البلدان الأخرى، على القيام بأي عمل ضدك.

وامنح الحب والاحترام لكل الناس العاملين في خدمة الكنيسة المقدسة، واحرص على أن لا يتولى أحد حرمانهم أو اغتصاب العطايا والهبات التي منحت إليهم من قبل أسلافك.

ويحكى عن جدي الملك فيليب، أن واحداً من مستشاريه قال له مرة بأن العاملين في الكنيسة المقدسة يسببون له الضرر والأذى، بحيث يتولون حرمانه من حقوقه ويتطاولون على سلطاته، وإنه لدهش جداً بسماحه لهم بفعل ذلك، وأجابه الملك الجيد، بأن هذا ربما كان صحيحاً، لكن بعد تقديره للمنافع التي أضفاها الرب عليه، والعطف العظيم الذي أغدقه عليه، ارتأى أنه من الأفضل غض النظر عن بعض حقوقه، بدلاً من انشباب نزاع مع رجال الكنيسة المقدسة.

احترم أباك وأمك وبجلهما، وأطع أوامرها، واعهد بمصالح الكنيسة المقدسة إلى أشخاص مستقيمين في أخلاقهم وطاهرين في حياتهم، وافعل هذا بناء على نصيحة الرجال الأفاضل والشرفاء.

واحذر من مباشرة الحرب ضد أي أمير مسيحي من دون تمعن عميق، وإذا كان لابد من مباشرتها، خذ حذرك من إيذاء الكنيسة المقدسة، أو جلب الضرر إلى أي إنسان لم يسبب لك الضرر، وفي حالات الحرب وإثارة الفتنة بين رعاياك، أقم السلم فيما بين المتنازعين

بأقصى ما يمكنك من سرعة.

وابذل قصارى عنايتك في أن تعين نوابا صالحين وعمالاً مستقيمين، وافحص دوما شؤونهم وتعرف إلى أخبارهم، وانتهبه أيضاً إلى الناس المرتبطين ببيتك، واعرف كيفية سلوكهم، وفيما إذا كان أياً منهم منصرفاً إلى شرور الجشع المفرط، أو الكذب، أو السلوك المخادع، واسع إلى أن تطرد من بلادك جميع الممارسات الممجوجة وغير المستقيمة، وابذل بشكل خاص كل ما أوتيته من قوة لاجتثاث الأيها الشريرة، والهرطقة، واحرص على إبقاء نفقات بيتك في الحدود المعقولة.

وأخيراً أرجوك يا ولدي العزيز على قلبي أن تأمر بترتيل القداسات على روحي، وإقامة الصلوات في جميع أرجاء مملكتك، وأعطني حصة كاملة وخاصة في كل عمل صالح تعمله، وأعطيك يا ولدي العزيز كل التبريكات الجيدة التي يمكن لأب أن يعطيها لابنه، ليحفظك الثالوث المقدس مع جميع القديسين، وليدافعوا عنك ويحموك من كل شر، وليمنحك الرب النعمة حتى تنفذ إرادته دوماً، وليكن الرب موقراً من خلالك، وأن نكون أنا وأنت، بعد انتهاء هذه الحياة الفانية، معه معاً، وأن نتحد في حمده إلى أبد الأبدين. آمين».

وعندما أكمل الصالح إعطاء هذه التعليمات إلى ابنه، بدأ المرض الذي كان يعاني منه يزداد قوة في الاستبداد به، وقد طلب قرايين الكنيسة المقدسة، وتلقاهم بذهن واضح، وبتملك كامل لسأته وقدراته، ووضح هذا من حقيقة أنه بينما كان الكهنة يمسحونه بالزيت، ويرتلون سبعة مزامير خاصة، ردد بدوره كل بيت شعر خلفهم.

وسمعت ابنه كونت دي ألكون Alencon ، يقول أنه عندما اقترب الملك من الموت دعا القديسين لمساعدته وحمائته، وخص بالدعاء القديس جيمس، وكان يتلو وهو يدعو دعاء الرسول الذي يبدأ بـ:

« Esto Domine » الخ، أي أن تقول: «أيها المولى كن مقدساً لشعبك وحامياً»، ثم نشد العون من القديس دنس، القديس الراعي لفرنسا، وتلا أدعيته التي تقول: « امنحنا أيها المولى الرب القدرة التي نتمكن فيها من ازدياد متع هذه الدنيا، حتى نتمكن من الوقوف دون خوف من المصائب».

وسمعت أيضاً كونت دي ألكون— عليه الرحمة من الرب— يحكي كيف أن أباه بعدما توجه بالدعاء إلى القديسة جنيفيف، طلب هذا الملك القديس أن يمدد فوق فراش مغطى بالرماد، حيث صلب يديه فوق صدره، ونظر نحو السماء، وسلم روحه إلى خالقنا، وكان هذا في الساعة نفسها من اليوم الذي مات فيه ابن الرب على الصليب من أجل خلاص العالم.

وإنه لواجب مقدس، وعمل موثم أن يبكي الانسان من أجل هذا الملك القديس، الذي حكم مملكته وحافظ عليها باستقامة وبإخلاص، والذي كان كريماً في إعطاء الصدقات هناك، والذي أقام هناك عدداً كبيراً من المؤسسات الخيرية، ومثلما يزين الناسخ، عندما ينسخ مخطوطة كتابه، بالذهب واللازورد، كذلك زين ملكنا مملكته بكثير من الأديرة الجميلة التي بناها فيها، وبعده من المشافي والبيوت للاخوان المبشرين، والفرنسيسكان، وللطوائف الدينية الأخرى، التي حدثتكم عنها، وفي غداة عيد القديس بارثلميو الرسول، وفي سنة ١٢٧٠ لتجسيد مولانا، انتقل الملك الصالح لويس من هذا العالم، وقد وضعت عظامه في نعش وحملت إلى فرنسا، حيث دفنت في كنيسة القديس دنس، وهو المكان الذي اختاره لدفنه، ومنذ ذلك الحين، أظهر الرب كثيراً من المعجزات الرائعة، تمجيداً له، وبسبب صلاحه.

الفصل العشرون

تطويب القديس لويس

١٢٨٢ — ١٢٩٨

بعد مضي بضع سنوات على وفاة الملك لويس، وبناء على طلب مستعجل من الملك الذي كان يحكم فرنسا، وعلى أمر البابا، جاء رئيس أساقفة روان والراهب جين دي سامو Samois — الذي أصبح بعد ذلك أسقفاً — إلى كنيسة القديس دنس في جزيرة فرنسا، وبقياً هناك ردحاً طويلاً من الزمن للقيام بالبحث والتقصي في حياة، وفي أعمال، وفي معجزات هذا الملك القديس، وقد دعيت لمقابلتهما، وقد احتفظا بي هناك لمدة يومين، وبعدهما سألوني وسألوا الآخرين، بحثاً بما وجداه وتيقنا منه إلى بلاط روما، وقام البابا والكرادلة بتفحص البيئات ووضعوه في عداد المؤمنين المعترفين.

وعم لذلك سرور عام — وكان هذا جديراً أن يحدث — في جميع أرجاء مملكة فرنسا، وزيادة على هذا، كان ذلك تشریفاً عظيماً للذين هم من نسل الملك ويفعلون مثله الأعمال الصالحة، وبالوقت نفسه وصمة عار للمنحدرين منه ممن لن يسيروا على نهجه في الأعمال الصالحة، وأكرر وصمة عار عظيمة إلى الذين من نسله واختاروا اقتراف الشر، ذلك أن الناس سوف يشيرون بالإصبع إليهم، ويقولون كان الملك القديس — الذي انحدروا منه — سيأنف من العمل بمثل هذا السوء.

وبعد وصول الأخبار الطيبة من روما، أمر ملك فرنسا، بالقيام في غداة يوم عيد القديس بارثلميو (٢٥ — آب ١٢٩٨) برفع الجسد المقدس من قبره، وبعد تنفيذ ذلك، كان أول من حمله رئيس أساقفة الرايمز آنذاك — عليه الرحمة من الرب — مع ابن أخيه، الذي كان

وقتذاك رئيس أساقفة ليون، وتمّ حمله بعد ذلك من قبل عدد كبير من رؤساء الأساقفة الآخرين والأساقفة، وكانوا أكثر من أن يتمكن من تسميتهم، ورفعوه أخيراً إلى سدة بنيت خصيصاً لذلك.

وفي أثناء القداس تولى الراهب جين دي سامو تقديم الموعظة، ولدى تعداده للأعمال النبيلة التي قام بها ملكنا القديس، أتى على ذكر عدد من الأفعال الباهرة التي شهدت على صحتها بأداء اليمين، والتي كنت حاضراً لدى حدوثها، وقد قال: «وهكذا يمكنكم أن تروا أن الملك كان الأعظم إخلاصاً، والرجل الأكثر استقامة في أيامه، وسوف أخبركم أنه كان رجلاً حافظ على كلمته، ووفى باتفاقية عقدها مع المسلمين، مع أنه عقدها بكلمة تفوه بها فقط، ولو أنه لم يحافظ على وعده ونكث به، لكان وفر على نفسه عشرة آلاف ليرة ذهبية أو أكثر»، ثم روى لهم القصة كاملة التي سلف وحكيها في جزء متقدم من هذا الكتاب، وبعدهما فرغ من الحكاية أضاف قائلاً: «لا تظنوا أنني أكذب عليكم، لأنني أرى أمامي الرجل الذي شهد هذه الواقعة، وقد أكد شهادته باليمين».

وبعد انتهاء القداس، قام الملك وأخوته بحمل جسد القديس، وأعادوه إلى الكنيسة بمساعدة آخرين من أسرهم، الذين كانوا جديرين بهذا التشريف، وفي الحقيقة لقد شرفوا تشريفاً عظيماً، لو أنهم برهنوا فقط أنهم بأنفسهم جديرين بذلك، حسبما قلت أعلاه، ودعونا نصلي الآن إلى الملك القديس، وندعو الرب أن يعطينا ما نحتاجه إلى أرواحنا، وأجسادنا، آمين.

ولسوف أحدثكم عن بعض الأمور لصالح تشريف ملكنا القديس، من ذلك على سبيل المثال ما رأيته مرة وأنا نائم في الفراش، فقد خيل لي في منامي أنني رأيت الملك واقفاً أمام بيعتي في جوانفيل، وقد كان — كما أعتقد — مبتهجاً بشكل رائع، ومسوراً من قلبه، وكنت أنا مسوراً جداً لرؤيته في قلعتي، وقلت له: «عندما تذهب من هنا يا مولاي

سوف أقيم مكاناً لك في بيت أنا أملكه في قرية ملكي اسمها شيفيلون Chevillon، فأجابني وهو يضحك: «مولاي صاحب جوانفيل ليس لدي رغبة بالرحيل من هذا المكان سريعاً».

وعندما استيقظت بدأت بالتفكير، وقد بدا لي أنه سيكون مرضياً للرب وللملك إذا ما أسكته في بيعتي، وهذا ما فعلته، لأنني بنيت مذبحاً من أجله، تمجيداً للرب، وتمجيداً له أيضاً، وسوف تقام هناك القداسات تكريماً لذكراه على الدوام، ولقد أوجدت وقفاً دائماً حتى يمكن فعل ذلك باستمرار، وأخبرت بهذا كله مولاي الملك لويس (ملك نافار) الذي ورث اسمه، ويبدو لي أنه سوف يفعل ما يرضي كل من الرب وملكنا القديس لويس، إذا ما اشترى بعض الآثار المقدسة الأصيلة من الجسد المقدس، وبعث بها إلى البيعة المتقدمة الذكر، أي بيعة القديس لورانت Laurent في جوانفيل، وبذلك يتمكن الذين سوف يأتون إلى مذبح الملك القديس، من التعبد هناك بإيمان أعظم.

وبودي أن يعلم الجميع أنني شخصياً رأيت بالفعل وسمعت شطراً كبيراً مما حدثتكم به هنا، فيما يتعلق بملكنا القديس، وهناك جزء كبير منه تأسس على ما وجدته في أحد الكتب، الذي دون بالفرنسية، والذي قمت بدجه في هذا التاريخ، وألفت هنا انتباهكم إلى هذا، حتى يضع الذين يسمعون هذا الكتاب أو يقرأونه كامل الثقة في صدق ما قلت أنني رأيت وسمعت، أما بالنسبة للأشياء الأخرى المدونة هنا، لا يمكنني كفالة صدقها، لأنني لم أشهدا شخصياً.

وكان الفراغ من هذا الكتاب في شهر تشرين الأول من سنة ١٣٠٩ لتجسيد ربنا.